اخترنا لك ١٣٠

مذكرات ونستون تشرشل

٤

مراجعة: محمد عطا



اخترنا لك

مذكرات ونستون تشرشل (٤)

مراجعة : محمد عطا

الحلف الأكبر

من ٧ ديسمبر عام ١٩٤١

وما يليه

لن أضير أمريكا حين أقول: إن انضمام
أمريكا إلينا في الحرب كان لي مبعث
سرور لم أحس به في حياتي من قبل
تشرشل

حلفاؤنا الروس

كان اشتراك روسيا معنا فى الحرب امرا نحبذه بشدة ، بالرغم من انه لم يكن مجديا لنا فى هذا الوقت ، فقد بلغت الجيوش الالمانية من القوة مايمكنها من تهديد انجلترا بالغزو عدة شهور ، وتوغلها فى الوقت نفسه داخل الاراضى الروسية .

وقد أجمع القادة العسكريون على أن الجيوش الروسية ستقهر بسرعة وستباد عن آخرها . ولاشك فى أن اغفال الحكومة السوفييتية احتمال مفاجأة سلاحها الجوى فى مطاراته ، وتوانيها عن اتمام الترتيبات العسكرية ، كانا سببا فى البداية السيئة التى لحقت بها ، والتى تحملت الجيوش الروسية اضرارها الجسيمة .

وبالرغم من الدفاع الباسل ، ومن قيادة المعركة بقوة جبارة ، وبالرغم من التغاضى عن قيمة الحياة الانسانية ، والبدء فى حرب عصابات طاحنة فى مؤخرة الزحف الألمانى ، بالرغم من ذلك كله حدث تراجع شامل على طول الجبهة التى تمتد الفا ومائتى ميل من جنوب لينينجراد الى مسافة أربعمائة أو خمسمائة ميل عمقا . ويرجع الفضل فى القضاء على القوات النازية الى عوامل متعددة : سيطرة الحكومة ، وقدرة الشعب الروسى على الاحتمال ، والعدد الوافر من جنود الاحتياط وسعة رقعة البلاد ، وقسوة الشتاء الروسى .

لكن هذه العوامل لم يظهر واحد منها فى عام ١٩٤١ ، وقد اتهم الرئيس روزفلت بالتهور والجرأة حينما أعلن فى سبتمبر أن الروس سيصمدون ، وأن موسكو لن تسقط فى يد هتلر .

ولكن حب الشعب الروسى لبلاده وقوته الفائقة أثبتا صحة ما أعلنه الرئيس

وكان الجنرال بروك ، الذى صحبنى فى سفرى الى موسكو فى أغسطس عام ١٩٤٢ لعقد عدة اجتماعات هناك ، يرى أن الالمان سيستولون على جبال القوقاز ويصلون الى بحر قزوين ويسيطرون عليه، ولذلك جهزنا حملة على نطاق واسع للدفاع عن ايران وسورية ، وكان رايى انا فى استطاعة روسيا الصمود والمناضلة يفوق دائما راى مستشارى العسكريين تفاؤلا ، لاننى ايقنت بما أكده لى ستالين فى موسكو من انه سيحمى خط القوقاز وان الالمان لن يستطيعوا أن يبلغوا بحر قزوين بقوات كثيرة ، ولكننا كنا نجهل فى الواقع الكثير عن موارد الروس وما يضمرونه حتى استعصى علينا تكوين فكرة صحيحة بعيدة عن التخمين .

وفى الواقع أن خوض روسيا الحرب ابعد غارات الالمان الجوية عن

بريطانيا العظمى ، وخفف من حدة خطر الغزو الذى كان يهولنا ، ومنحنا فرصة لان نستجم ونستريح فى البحر المتوسط . ولكن من جهة أخرى حملنا اعباء مضنية وتضحيات كثيرة ، فقد اخذنا نستكمل النقص فى أعـــدادنا ، وبدأت مصـــانع الذخيرة يتدفق انتاجها من شتى الاصناف والاحجام ، وكانت قواتنا فى مصر وفى ليبيا تقتحم قتالا طاحنا ، وتطلب مرات ومرات امدادها بأحدث الاسلحة ، وخاصة من الدبابات والطائرات ، وكانت قواتنا هنا تنتظر هى الاخرى على احر من الجمر ماكانت قـــد وعدت به من هذه الاسلحة الحديثة المبتكرة التى اخذت تتدفق عليها ، فقد اضطررنا حينئذ الى تطوير معظم أسلحتنا وامداداتنا الهامة المتنوعة ومنها المطاط والنفط . وحملنا على كواهلنا تبعات تنسيق القوافل التى تحمل معدات بريطانيا وأمريكا ، ونقلها الى مورمانسك وأركانجـــل مجتازين المحيط المتجمد الشمالى برغم مافى ذلك من أخطار ومخاوف .
ولم ترسل أمريكا الينا الا بعض ما كانت تنوى ارساله من الامدادات عبر المحيط الاطلنطى ، واضطررنا امام هذا التغير الكبير وتوقع قطـــع المعونات الامريكية عنا دون الاضرار بحملتنا فى الصحراء الغربية ، أن نوقف كل الاســـتعدادات التى فرضتها علينا ضرورة الدفاع عن شـــبه جزيرة الملايو وغيرها من أجزاء امبراطوريتنا الشرقية وأملاكنا ضـــد التهديد اليابانى المتزايد .

وليس من شك فى ان هناك حقيقة سيسجلها التـــاريخ حتمـــا ، وهى أن مقاومة الروس هى التى دمرت قوة الجيش الالمانى وأصابتها بأضرار فادحة ، ووجهت الى الطاقة البشرية للشـــعب الالمـــانى ضربات قاضية ، وان كنت ارى من الصواب ابراز حقيقة أخرى وهى أن روسيا بقيت أكثر من سنة منذ اشتراكها معنا فى الحرب تشكل حملا علينا لا مساعدا لنا ، وبالرغم من ذلك فقد رحبنا بهـــذا الحمل كل الترحيب ، حيث أن شعبا قويا سيقف الى جانبنا فى الحرب ، وكنا نحس بأن الجيش الروسى سيقاوم حتى لو اضطر الى التراجع الى جبال الاورال ، وسيكون أداة فعالة اذا واصل القتال . ولم تـــكن الحكومة الروسية حتى اللحظة التى أغار فيها هتلر على أراضيها تعنى بغيرها من الدول ، وقد ظهر هذا واضحا بعد ذلك • فقد ظلت واقفة وقفة المتفرج ، الجامد جمود الصخر تشاهد تحطيم جبهتنا فى فرنســـا عام ١٩٤٠ ومجهوداتنا الاخيرة فى عام ١٩٤١ لتكوين جبهة فى البلقـــان . وقد منحت ألمانيا النازية معونات اقتصــــادية مهمة وســـاعدتها فى نواح كثيرة وان تكن بسيطة • والآن تحس بأنها قد خدعت وأخذت على غـــرة وأصبحت معرضة لسلاح ألمانيا الفتاك ، لقد كانت سياستها التقليدية تملى عليها ان تتجه الى بريطانيا العظمى وامبراطوريتها لتنال منها أكبر مايمكن من معونة . ولم يتوان الروس عن مطالبة بريطانيا المناضلة المنهكة فى الحاح بأن ترسل اليهم الذخيرة التى تحتاج اليها قواتهم وحثوا أمريكا على أن تنقل اليهم أكبر كمية من الذخيرة التى كنا نعتمد عليها . وبدءوا يطالبون كذلك ـ وهـــذا هو الاكثر أهميـــة ، حتى صيف عام ١٩٤١ ـ بنزول قوات بريطانيـــة فى أوربا دون اهتمام بالاضرار والثمن ، وانشاء القوة الثانية • وبدأ شيوعيو بريطانيا ـ الذين قدموا حتى الآن أردأ ما عندهم فى مصانعنا ، ولم يكن كثيرا ، والذين كانوا يصـــفون

معركتنا « بالحرب الرأسمالية والاستعمارية » ـ يتحولون بين عشية وضحاها فيملئون الجدران باللافتات التي تحمل شعارهم « الجبهة الثانية ... الآن »

بيد أننا لم ندع على أية صورة هذه الحقائق المؤسفة المخزية تؤثر في اتجاه تفكيرنا ، وركزنا نظرتنا على ما يقدمه الشعب الروسي من تضحيات في ظل تلك الكوارث التي جلبتها حكومتهم عليهم ، ودفاعهم الباسل عن أرض وطنهم • ولاشك في أن هذه البسالة وذلك النضال طول فترة المعركة ، يكفيان للتعويض عن كل شيء .

ولم يفكر الروس مطلقا ، ولو الى حد ضئيل ، في طبيعة العمليات العسكرية البرمائية الضرورية لنزول قوات على أرض معادية أحكم الدفاع عنها ، وامدادها بالمعدات والمؤن . وكان الامريكيون في هذه الفترة على جهل تام بهذه المصاعب • فالحصول على السيطرتين البحرية والجوية في مكان النزول والاستيلاء لابد منه . يضاف الى هذين عامل ثالث هام هو ان تأمين أسطول ضخم لايهزم من سفن الانزال المجهزة خصيصا لنزول الدبابات في مجموعات كبيرة ، هو الاساس لنجاح أي غزو مهما يقابله من دفاع . وكنت قد بذلت اقصى جهدي ومابرحت أبذله لتكوين هذا الاسطول ، ولكن لم يكن في الاستطاعة تأمين بعضه ولو في دائرة محدودة قبل صيف عام ١٩٤٣ • ولم يكن في الوسع أيضا ـ وهذا ما يدركه الجميع الآن ـ تنمية قوته على نطاق واسع حتى عام ١٩٤٤ . وفي هذا الوقت الذي بلغناه من صيف عام ١٩٤١ لم نكن قد تمكنا من السيطرة الجوية على أي جزء في أوربا ماعدا خليج كاله ، حيث توجد أقوى الحصون الالمانية مناعة .

وكانت سفن الانزال مابرحت في دور التشييد ، ولم يكن قد تكون عندنا حتى في بريطانيا جيش قوي ممرن ، أحسن تجهيزه واعداده مثل القوات التي لابد أن نلتقي بها على ارض فرنسا عند نزولنا . وبالرغم من ذلك انهمرت علينا سيول من الحمق ورديء القول فيما يتعلق بالجبهة الثانية . وبدهي لم يكن عندنا أمل في أن تقنع الحكومة الروسية في هذه اللحظة أو غيرها ، وقد رأى ستالين في كلام لاحق معي انه اذا كان البريطانيون يخافون هذا النزول فهو على استعداد لان يبعث بثلاثة فيالق روسية أو أربعة الى بريطانيا لتؤدي هي المهمة ولم يكن في استطاعتي بسبب احتياجنا الى السفن ووسائل النقل العملية الاخرى الا أن اقيده بكلمته وأدفعه الى تنفيذها •

ولم يصل الينا من الحكومة الروسية رد على الرسالة الاذاعية التي وجهتها الى روسيا والعالم حين بدأ الهجوم الالماني عليها الا ماروى لنا من أن فقرات من هذه الرسالة قد نشرتها جريدة «البرافدا» وغيرها من الصحف الرسمية وأن الحكومة الروسية طلبت الينا ان نستقبل وفدا عسكريا نوت ارساله الينا • وكان السكوت في الدوائر العليا يدعو للدهشة والعجب . فقررت ان ابدد هذا الجمود وادركت أن القادة السوفييت قد يحسون بخجل من كل ماحدث منذ قامت الحرب من مواقف بين الروس والحلفاء الغربيين . وتذكرت ماحدث

بيني وبين الحكومة الثورية البلشفية منذ عشرين عاما تقريبا · ولهذا أرسلت رسالة الى ستالين فى السابع من يوليه ذكرت له فيها تصميمنا على تقديم كل مساعدة ممكنة الى الشعب الروسى . وفى العاشر من يولية أرسلت مثل هذه الرسالة · ودارت اتصالات رسمية بين وزراء خارجيتنا بيد أننى لم اتسلم رد ستالين الاول الا فى التاسع عشر من يوليه .

استهل ستالين رسالته بشكرى على برقيتى اليه ثم قال : « ارجو الا ابعد عن الحقيقة ان قلت ان موقف القوات الروسية فى الجبهة مافتىء حرجا . ولهذا يظهر لى أن موقف الروس وبريطانيا سيتحسن تحسنا كبيرا اذا استطاعتا أن تنشئا جبهة ضد هتلر فى الغرب وفى شمالى فرنسا وفى شمالى المحيط القطبى الشمالى » ·

ولا شك فى أن انشاء جبهة فى شمال فرنسا سيؤدى الى تغيير وجهة قوات هتلر عن الشرق ويجعل من الصعب عليه أن يغزو بريطانيا العظمى . ولاشك أيضا فى أن انشاء مثل هذه الجبهة سيلقى كل ترحيب لدى الجيش البريطانى ولدى جميع سكان المناطق الجنوبية فى بريطانيا .

ولاشك فى اننى افهم كل الفهم الصعاب التى تقابل ايجاد مثل هذه الجبهة . ولكننى بالرغم من ذلك مقتنع بضرورة قيامها لا لمصلحة قضيتنا المشتركة وحدها بل لمصلحة بريطانيا كذلك . ولعل هذه الفترة نسب وقت لايجادها حيث أن هتلر وجه كل قواته الآن الى الشرق ولم يكن لديه وقت كاف لتأمين المواقع التى استولى عليها فى الغرب .

ولعل من الايسر انشاء جبهة فى الشمال . ولا تفتقر بريطانيا العظمى هنا الا الى عمليات بحرية وجوية دون أن ترغم على انزال قوات او مدفعية لان قوات روسيا البحرية والجوية ستشترك معها فيها · وسنقبل بكل ارتياح توجيه مايشكل فرقة خفيفة او اكثر من متطوعى النرويج الى هذه الجبهة حيث يمكن استغلالهم فى شمال النرويج للثورة على الالمان » .

ويظهر من هذه الرسالة أن ضغط روسيا لانشاء جبهة ثانية قد بدأ منذ تبادلت الرسائل معستالين ، وهو ضغط تكرر فى كلالاتصالات التالية مع تغاض كلى عن الحقائق العملية الطبيعية عدا مايختص منها بأقصى الشمال . وقد رأيت فيما احتوته الرسالة الاولى التى بعثت بها الى ستالين اشارة وحيدة الى الاسف من مواقف روسيا السالفة · فقد انبرى ستالين لتسويغأسباب تغيير روسيا موقفها وتوقيعهاالاتفاق الذى أبرمته مع هتلر قبل الحرب . وصمم كما ذكرت قبل على أن مصلحة روسيا الاستراتيجية تقتضى بقاء القوات الالمانية فى أبعد مكان ممكن غربا فى بولندة اغتناما للفرصة وتنفيذا للخطط التى وسمت للنهوض بروسيا واعدادها عسكريا . ولم أهون من شأن دفاعه هذا ، ولذلك أمكننى أن أرد عليه ردا منطويا على الفهم ·

وقد كرست طاقتى منذ الوهلة الاولى لمعاونة روسيا بالمؤن

والذخيرة بالاتفاق على توجيه المعونات الامريكية اليها ، أو بالمساعدات المباشرة من بريطانيا . وأرسلنا فى أول شهر سبتمبر مايقرب من سربين من طائرات الهاريكين على متن « أرغوس » الى ميناء مورمانسك فى الشمال ، للمساهمة فى دعم الدفاع عن هذه القاعدة البحرية ومساعدة الجيش الروسى فى تلك المنطقة .

ودخل السربان القتال فى الحادى عشر من سبتمبر ، وقاتلا ببسالة طيلة الاشهر الثلاثة اللاحقة ، وكنت أرى اننا فى أول تحالفنا لا يمكننا أن نعمل الكثير . وحاولت ان أشغل الفراغ بحسن المعاملة ، وأن انشىء بوساطة الاتصالات البرقية ، مايضاهى تلك العلاقات الطيبة التى أنشأتها مع الرئيس روزفلت . بيد أنى فى هذه الحلقات الطويلة من الاتصالات قل أن تلقيت كلمة طيبة ، وانما كنت أجد الاعراض. وكثيرا مابقيت برقياتى بلا رد ، أو رد عليها ستالين بعد وقت طويل . ووجد عند الحكومة الروسية انطباع بأنها تسدى الينا معروفا كبيرا ، لانها تحارب فى ارضها دفاعا عن ارواح مواطنيها وكلما ازدادت الحرب قسوة ازداد هذاالمعروف وتضاعف الدين الذى نحمله على عواتقنا ، ولم تكن الفكرة طبعا سليمة أو مضبوطة . وأرغمت مرتين أو ثلاثا خلال مكاتباتنا الطويلة على أن احتج بأساليب صريحة وخاصة على المعاملة السيئة لبحارتنا الذين كانوا يقتحمون المخاطر والاهوال لنقل الامدادات الى مورمانسك أو أكانجل ، وكثيرا ما أرغمت على الصمت، وعلى سماع التبكيت من الاخرين حينما يقولون : « لا تكترث . فالالم هو الوسام الذى يمنحه كل من يجب عليه أن يتعامل مع الروس » . وفعلا كنت أتجاهل كل شىء نظير مايلقاه ستالين والشعب الروسى من ضغط وعنف . وليس فى امكانى . هنا أن أوضح للقارىء أكثر من الملامح الظاهرة فى هذا الكفاح الجبار الحديث الذى بدأ الآن بين الجيوش والشعوب . وقد استطاع الالمان فى الشهر الاول أن يشقوا طريقهم متوغلين داخل روسيا ثلاثمائة ميل . وفى نهاية شهر يوليو حدث تعارض رئيسى فى الرأى بين هتلر وبراوختيش القائد العام للقوات الالمانية ، وكان من رأى براوختيش أن مجموعة القوات الروسية التى يقودها تيموشنكو تكون القوة الرئيسية للجيش الروسى وأنه يجب تدميرها ودحرها أولا .

وكان هذا الرأى صحيحا وقال براوختيش : انه اذا نفذ ذلك فسيكون من المستطاع الاستيلاء على موسكو وهى مركز العصب الحساس لروسيا عسكريا وسياسيا وصناعيا . ولكن هتلر خالفه فى رأيه كل المخالفة . فهو يطلب احتلال الارض وتحطيم القوات الروسية على أكبر نطاق ممكن ويطلب الاستيلاء على لينينجراد فى الشمال وحوض الدونتر الصناعى فى الجنوب ، وشبه جزيرة القرم ، مداخل القوقاز التى بها موارد غنية بالبترول ، ويرى تبعا لذلك أن تتولى موسكو دورها .

وجرت مناقشات حامية ، وأصدر هتلر أوامره معارضا آراء قادة الجيش ، وحملت الامدادات من الوسط الى القوات الشمالية التى كلفها أن تضاعف من عملياتها للاستيلاء على لينينجراد . وطلب من القوات

الوسطى أن تقف موقف الدفاع ، وأن ترسل قوة من المدرعات « البانزر » في الجنوب لتطويق جناح الروس الذين كان رونشتادت يقوم بمطاردتهم مجتازين نهر الدنيبير ، واستطاع الالمان ان يقوموا بهذا العمل فقبل شهر سبتمبر تجمع عدد كبير من القوات الروسية حول كييف وفي قتال طاحن دام طوال هذا الشهر قتل أو أسر نصف مليون جندى تقريبا ولم يتمكن الالمان في الشمال من احراز مثل هذا النصر . وقد حوصرت لينينجراد ولكنها لم تسلم . وبهذا ثبت ان قرار هتلر كان غير سليم . واضطر الى ان يرجع بفكره وقوته وعزمه الى منطقة الوسط ووجه الامر الى القوات التى تطوق لينينجراد بارسال قوات متحركة وجزء كبير من قوتها الجوية لدعم هجوم جديد يوجه الى موسكو ورجعت القوة المدرعة التى كانت قد توجهت لمساندة فون رونشتادت في الجنوب الى الوسط لتشترك في الهجوم . وفي اواخر شهر سبتمبر كان المسرح قد جهز مرة أخرى للتقدم في الوسط ، وهو تقدم كانت الخطة المرسومة له قد عدل عنها قبل وقت وجيز ، في حين استمرت القوات الجنوبية في زحفها شرقا ناحية الحوض الأدنى لنهر الدون ، الذى يمهد السبيل امامها الى القوقاز .

وبدأ الآن اتجاه آخر للقصة ، فبالرغم من الاضرار الفادحة التى اصيب بها الروس استمرت مقاومتهم قوية عنيدة . قواتهم تحارب حتى النهاية وتزداد قوة وبراعة ، وراح الانصار يسرعون خلف خطوط الألمان ويخربون مواصلاتهم في حرب طاحنة قاسية . وثبت أن المواصلات التى استولى عليها الألمان غير صالحة . وبدأت السجل تتداعى تحت حركة النقل الثقيلة ، وأصبح المشى في هذه الطرق بعد انهمار الأمطار مستحيلا وبدأت سيارات النقل يظهر عليها الجهد والعجز .... وليس أمام حلول الشتاء الروسى المريع الا شهران تقريبا . فهل ستسقط موسكو قبل قدوم الشتاء ؟ واذا سقطت فهل في سقوطها الكفاية ؟

هذا هو السؤال المروع . ومع ان هتلر مابرح يحيا على امجاد انتصاره في كييف فقد بدأ القادة الالمان يحسون أن مخاوفهم السالفة لها ما يسوغها تماما فقد مضت أربعة اسابيع على القوة التى أصبحت الآن القوة الحاسمة ، ولم تتم عملية القضاء على قوات العدو في روسيا البيضاء التى كانت مكلفة بها قوات الجبهة الوسطى ولكن بانقضاء أشهر الخريف ، واستمرار الموقف الصعب في الجبهة الروسية ازدادت طلبات الروس مناشدة والحاحا ورجع اللورد بيفر بروك من امريكا بعد أن حفز قواها وضاعف هممها لزيادة الانتاج بصورة هائلة . وأصبح الآن الداعية الاول في وزارة الحرب الى ضرورة تقديم المساعدة لروسيا .

وقد قدم في هذا الطريق معونات فعالة ، نافعة وحينما ننظر الى ما تعرضنا له من ضغط للتجهيز لمعركتنا في الصحراء الغربية والقلق الذى كنا نشعر به من جهة اليابان التى تهدد كل مصالحنا في الملايو والشرق الاقصى ، والى أن كل ما نقدمه لروسيا يؤخذ من حاجات بريطانيا الضرورية ، ندرك ادراكا كاملا الداعى لوجود شخص كاللورد بيفر بروك في ذروة مجهودنا الحربى ، ليتولى — الدفاع عن حتمية اجابة مطالب روسيا . وقد حاولت أن احتفظ بالتعاون والتعادل على هدى مافكرت

واشترك معي في تفكيري كل رفاقي ، ورأينا احتمال تعريض أمننا الحيوي وخططنا للتدهور من اجل حليفنا الجديد ، والذى كآن الى زمن قريب نهازا للفرص ، طماعا ، لا يكترث بوجودنا أو صمودنا .

وشعرت أن على بيفر بروك وافريل هاريمان حينما يرجعان من واشنطن ويضحي في مقدورنا أن نواجه كل احتمالات المؤن والذخيرة ، أن يقصدا الى موسكو ويعرضا كل ما يمكننا أن نستغني عنه ، وجرتمحادثات طويلة وجادة وشعرت وزارات الدفاع بأن ارسال هذه الامدادات بمنزلة رمى بعض لحمنا وبتره • وبالرغم من ذلك جمعنا كل ما أمكننا جمعه ، وقبلنا تحويل معونات ضخمة كانت سترد الينا من امريكا وكنا فى غاية الشوق واللهفة اليها لنشترك اشتراكا ايجابيا فى المقاومة الروسية .

وعرضت على رفاقي فكرة ارسال اللورد بيفر بروك الى موسكو فى الثامن والعشرين من شهر أغسطس ، ورغبت الوزارةرغبة صادقة فى أن يبسط اللورد الفكرة لدى ستالينوشعر الرئيس روزفلت أن هاريمان سيمثله على احسن وجه فى تلك المباحثات. وأوجزت لهذا الوفد الموقف كخطوة اولى فى فقرات عامة ضمنتها رسالة ارسلتها الى ستالين وفى ليلة الرابع من سبتمبر قدم المسيو مايسكي لزيارتي وسلمنى رد ستالين . وكانت هذه أول رسالة شخصية أتلقاها منه منذ شهر يولية . وقد شكرنا على ماعرضناه من تقديم مائتى طائرة مقاتلة اخرى ثم راح يكرر اللهجة القديمة فيقول :

« ان الهدوء النسبي في المنطقة الذى نجحنا فى خلقه منذ ثلاثة اسابيع تقريبا ، قد تبدد فى الاسبوع الاخير بنقل ما يقرب من ثلاثينالى اربع وثلاثين فرقة جديدة من المشاة الالمان الى المنطقة الشرقية مع عدد كبير من الدبابات والطائرات الى جانب اتساع نشاط الفرقة الفنلندية العشرين والفرقة الرومانية السادسة والعشرين •• ويعد الألمان الخطر فى الغرب مجرد خدعة لا غير ، ولذلك حولوا كل قواتهم الى الشرق دون خشية أو رعب ، لانهم مقتنعون بأنه ليست هناك جبهة ثانية فى الغرب ولا يمكن أن توجد .ويرى الألمان ضرورة تدمير اعدائهم الواحد تلو الآخر ، الروس أولا ثم الانجليز من بعدهم . وقد خسرنا بسبب هذا اكثر من نصف اوكرانيا ، واصبح العدو على أعتاب ليننجراد ..

وانا أوقن انه يوجد طريق واحد للنجاة من هذا المأزق ، وهو انشاء جبهة اخرى خلال هذا العام فى أى مكان ، فى البلقان أو فرنسا ، تستطيع أن تجتذب ما يقرب من ثلاثين الى اربعين فرقة من الألمان . وأن تضمنوا لنا فى الوقت نفسه ثلاثين ألف طن من الالمنيوم فى مستهل شهر آكتوبر المقبل وأن ترسلوا الينا معونة شهرية لا تقل عن أربعمائة طائرة وخمسمائة دبابة من الحجمين المتوسط والصغير ••••• »

واستمر السفير الروسى الذى كنت اصاحبه انا والمستر ايدن يحدثنى اكثر من ساعة ونصف ساعة . وفى اسلوب مؤلم اكد أن روسيا تحملت وحدها تقريبا ضغط الهجوم الالمانى الجارف فى الاحد عشر اسبوعا السالفة • وقال : ان القوات الروسية تحمل الآن اثقال

هجوم لم يشهد التاريخ مثله • وقال : انه لا يرغب فى استعمال لغـــة المسرح ، ولكن قد يثبت الوقت الحالى انه بداية تحول فى التاريخ . فاذا أندحرت روسيا فكيف يستطيع البريطانيون أن يأملوا فى النصر ؟ وفى أسلوب مؤلم يدعو للعطف والشفقة أكد المسيو مايسكى أن الموقف حرج للغاية على الجبهة الروسية . وحينما شـــعرت من خلال هذا الكلام بنغمة مستترة من التهديد ، انقلب عطفى الى غضب ، وقلت للسفير الذى كنت أعرفه من سنين بعيدة : لتعلم أننا قبل أربعة أشـــهر لم تكن نعتقد انكم لن تخوضوا الحرب مع الألمان ضدنا ، بل كنا نعتقد احتمال خوضكم لها ، وبالرغم من ذلك كنا نثق فى انتصارنا فى نهاية الحرب . ولم يتراء لنا أن وجودنا أو عدمه معلقان على الخطة التى ستشتركون بها فى القتال أيا كانت • وليس لكم وحدكم من بين الدول الأخرى حق توجيه اللوم الينا مهما جرى ، ومهما عملتم . ولما أحس السفير الغضب فى لهجة حديثى هتف « أرجو أن تسكن يا عزيزى المســتر تشرشل » . وبعد ذلك غير لهجته كلية .

ثم واصل الحديث على الأســس التى وضحناها فيما تبادلنا من برقيات ، ودعانا السفير للنزول فورا فى فرنسا أو فى الأراضى المنخفضة ، فأبديت له الموانع العسكرية التى تعترض تنفيذ طلبه ، والأسباب التى تسلبه النفع للروس مطلقا • وقلت للسفير أننى أمضيت خمس ســاعات يومئذ مع الفنيين فى دراسة الطرق اللازمة لمضـــاعفة طاقة ما تحمله الخطوط الحديدية الايرانية . وتكلمت عن بعثة بيفربروك ــ هاريمان ، وعن عزمنا على بذل كل ما يمكننا ادخاره أو شحنه من امدادات ، وقلت له أنا والمستر ايدن فى النهاية : اننا من جهتنـــا مســتعدون لان نبين للفلنديين اننا سنحاربهم اذا توغلوا داخل روسيا وتخطوا حـــدودهم الطبيعية التى رسمت عام ١٩١٨ . ولم يســتطع المسيو مايسكى طبعا أن يعدل عن رايه فى ضرورة انشاء جبهة ثانية فورا ، وصار من العبث مواصلة المناقشة فى هذا الموضوع .

وأخذت راى الوزراء فورا فى المسائل التى درسناها فى اجتماعنا وفى رسالة ستالين ، وأرسلت فى المساء ردا كان أهم مافيه العبارات الآتية :

« بالرغم من أننا لن نتوانى عن تقديم أى مجهود ، فليس هنـــاك اى احتمال لان تقوم بريطانيا فى الغرب بأى عمل غير العمل الجوى ، ولا أمل فى انشـــاء جبهة ثانية فى البلقان دون معاونة تركيا • وأتمنى ــ ان اذنتم لى فخامتكم ــ أن أبسط كل الدواعى التى دعت رؤســاء أركان الحرب الى الوصول الى تلك النتائج وقد درســنا هــذه الدواعى مع سفيركم اليوم دراسة مفصلة فى اجتماع شمل وزير الخارجية ورؤســاء أركان الحرب أيضا . فالعمل الذى يؤدى الى اختلال باهظ النفقات ــ مهما كان فيه من نيات حسنة ــ لا ينفع غير هتلر .

ونحن متأهبون الآن لأن نرسم معكم خططا مشتركة ، وهناك وقائع غير ممكن مشاهدتها حاليـــا ، يتوقف عليها احتمال اســـتطاعة القوات البريطانية عام ١٩٤٢ أن تبلغ درجة تمكنها من الاســـتيلاء على البر

الأوربى ، وقد نستطيع أن نعاونكم فى أقصى الشمال على أية صورة حينما يسود الظلام تلك المنطقة . ونتمنى أن يزداد تعداد قواتنا العاملة فى الشرق الأوسط الى ثلاثة ارباع المليون قبل أن ينصرم العام الحالى والى المليون فى صيف سنة ١٩٤٢ . وعندما ننتهى من تحطيم القوات الألمانية والايطالية فى ليبيا ، تستطيع قواتنا جميعها أن تنضم الى جناحكم الجنوبى . وأملنا كله معلق على الاقل على اقناع تركيا بأن تبقى محايدة حيادا كليا . وفى خلال ذلك سنستمر فى ضرب المانيا من الجو بقوة فائقة وترك البحار مفتوحة ، والابقاء علينا أحياء ... »

وتراءى لى أن المسالة على درجة كبيرة من الأهمية ، وأرسلت حينئذ برقية الى الرئيس روزفلت بسطت فيها الصور التى بقيت حية فى ذاكرتى وهذا نص البرقية :

« لقد استعمل السفير الروسى ... لهجة لها اهمية خفية تتحدث عن حرج الموقف ، وحقيقة بداية التحول التى هى متعلقة بردنا .

وبالرغم من انه لم يرد فى كلامه ما يثبت هذا الراى ، فليس فى مقدورنا ان نتناسى احتمال تفكير روسيا فى صلح منفرد .... وأوقن أن الفرصة قد اضحت حاسمة . وليس فى طاقتنا الا أن نبذل غاية جهدنا » .

وفى الخامس عشر من شهر سبتمبر تسلمت برقية أخرى من ستالين هذا نصها : « لا أشك فى أن حكومة بريطانيا تتمنى من أعماق قلبها أن ينتصر الروس وأنها ترنو الى ما يحقق هذا النصر من طرق ووسائل . واذا كانت بريطانيا ترى استحالة اقامة جبهة ثانية فى الغرب حاليا فمن الممكن الحصول على وسيلة أخرى لبذل المساعدة العسكرية الايجابية لروسيا .

« وأنا أوقن ان بريطانيا العظمى تستطيع بلا مخاطرات أو مغامرات انزال خمس وعشرين أو ثلاثين فرقة فى اركانجل ، أو نقل مثل هذه القوة الى المناطق الجنوبية من روسيا مجتازة ايران . وفى هذا الظرف يسهل اقامة تعاون عسكرى بين قوات روسيا وبريطانيا على أرض روسيا . وقد قام مثل هذا التعاون فى فرنسا فى الحرب العالمية الأولى ، ومثل هذا الوضع يحقق عونا كبيرا ، وفى الوقت نفسه يعد ضربة عنيفة تدك عدوان هتلر ...... »

ولا اكاد أصدق نفسى حين اشاهد رئيس الحكومة السوفيتية يبدى مثل تلك التفاهات العجيبة ، مع ان لديه كثيرا من القادة العسكريين وظهر لى انه من غير المجدى مجادلة رجل تفكيره غير واقعى ، ولذلك ارسلت اليه ما أمكننى من رد حسن .

وفى خلال ذلك اختتمت مباحثات بيفربروك ــ هاريمان فى لندن ، ورحلت بعثة التموين الانجليزية الامريكية فى الثانى والعشرين من سبتمبر عن ميناء سكابافلو على متن الطراد « لندن » متجهة الى اركانجل مجتازة البحر المتجمد الشمالى ، وعلى نجاح تلك البعثة يتوقفه

كثير من المسائل ، وقد استقبلت البعثة استقبالا فاترا ، وكانت المباحثات التى جرت غير مرضية للغاية ، لان الروس يرجحون أن ما يكابدونه انما هو وليد خطئنا . ولم يقدم القادة والموظفون الروس لرفاقهم البريطانيين والامريكيين اية بيانات ، ولم يودوا أيضا أن يطلعوهم على الاسس التى قدرت عليها احتيـــاجات روسيا من خاماتنا الحربية الثمينة ، ولم يقم أى حفل رسمى احتفاء بالبعثة ــ سوى دعوة عضائها لتناول طعـــام العشاء فى الكرملين فى آخر ليلة لها بموســكو ، وينبغى الا يتبــادر الى ذهننا أن الاشخاص الذين تشغلهم أهم القضايا ، لا تساعد مثل هذه المناسبات لديهم على تحسن سير العمل الرسمى ، فعلى العكس كثيرا ما يدفع تبادل الآراء فى مثل هذه الظروف الى الوصول الى اتفاقيات رسمية ولكن لم تبد روسيا حاليا شيئا من هذه الحفاوة ، وكأننا نحن الذين قدمنا لطلب المعونات منها .

ولعل واقعة صغيرة احتفظ بها الجنرال ايسماى على صورة كتاب حر ، تلقى شعاعا على هذه القصة . فقد قام دليل من مصلحة السياحة فى روسيا بمصاحبة جندى من بحارة الأسطول الملكى البريطانى يقوم بخدمة الجنرال ليشاهد روسيا ، وقال الروسى : « هذا هو فندق أيدن وكان يسمى فى الماضى فندق ريبنتروب ، وهذا هو شــارع تشرشـــل وكان يسمى شارع هتلر ، وهــذه محطة بيفربروك ، وكانت تدعى محطة جورنج . هل ترغب فى سيجارة يا صاحبى ؟ » فرد الجندى البريطـــانى « لا وشكرا أيها الرفيق ، أو اللئيم سابقا » .

وهــذه القصـــة على ما فيها من تهكم تلقى شـــعاعا على ذلك الجو العجيب المحيط بتلك الاجتماعات .

واخيرا توصلوا الى اتفاق ودى ، ووقعوا ملحقــا يبين المعــونات والمطالب التى تكفلت بريطانيا وأمريكا بامداد روسيا بها ابتداء من أكتوبر عام ١٩٤١ الى يونية عام ١٩٤٢ . وقد تضمن الملحق ضرورة اعادة بحث خططنا العسكرية السالفة التى أثر فيها تأثيرا بالغا ماحدث لتموينا من نقص بين . وقد تحملنا الحمل كله لأنه وجب علينا أن ننزل عن انتاجنا الى جانب ما كان مقررا أن ترسله الينا أمريكا من معونات . ولم يكن فى وسعنا نحن والأمريكيين أن نبذل الوعود ارتجالا ، بشــأن نقــل هذه المعونات مجتـــازة السبل البحرية القطبية الوعرة ، المحفوفة بالاخطار . ونظرا لما سمعناه من ستالين من اسلوب اللوم والتعبير المنكر حينما قلنا ان القوافل لن تتحرك الا بعد أن تسيح الثلوج ، فقد كان ما تكفلنا به هو أن تكون هذه المعونات معدة فى مواطن الانتاج البريطانية والأمريكية . واختتمت ديباجة الملحق بهذه الفقرة :

« ستقدم بريطانيا العظمى وأمريكا كل مساعدة ممكنة لنقل تلك المعونات الى روسيا والمساهمة فى توصيلها » .

وبعث الى اللورد بيفربروك برقيـــة يقول فيها : « ان فائدة هـــذا الاتفاق تنحصر فى رفع الروح المعنوية فى موسكو الى درجة كبيرة . اما الابقاء على قوة هـــذه الروح فانه يستند الى وصـــــول المعونات الى

روسيا .... ولست أرى أن الموقف العسكرى هنا قد اجتاز مرحلة الخطر مدة أشهر الشتاء ، وفى طاقة الروح المعنوية أن تنجيه وتؤمنه » .

وبالرغم من أن الجنرال ايسماى كان له الحرية المطلقة فى دراسة الموقف العسكرى من جوانبه المختلفة وتوضيحه للقادة الروس ، فان بيفربروك وهاريمان قررا الا يعقدا مهمتهما باثارة قضايا يتعذر الاتفاق حولها . ولذلك لم يدرس هذا الجانب حاليا فى موسكو . واستمر الروس يطالبون بصفة غير رسمية باقامة جبهة ثانية فورا ، ولم يكن لديهم استعداد لسماع ما يبدى حول استحالتها من ادلة وعذرهم فى ذلك ما يكابدونه من الآم ، واضطر سفيرنا الى أن يصبر على مضض .

واوشك الخريف أن ينصرم وعاودت القوات الألمانية الوسطى بقيادة فون بوك زحفها على موسكو ، وقد تقدم جيشاها مباشرة نحو العاصمة من الجنوب الغربى مع قوات ضخمة من المدرعات تحاول تطويق الجناح . واستولى الألمان على اوريل فى الثامن من أكتوبر ، واستولوا بعد اسبوع على كالينين التى هى فى طريق موسكو ــ ليننجراد . وأرغم المارشال تيمو شنكو تجاه هذا الخطر الذى بدأ يهدد جناحه ، وتحت شدة الهجوم الرئيسى من الوسط ، على ارجاع قواته الى خط يوجد على مسافة أربعين ميلا غربى موسكو ، وهناك قرر الصمود والنضال من جديد . وكان موقف روسيا حينئذ مهددا كل التهديد . وقد تم انتقال الحكومة الروسية والسلك الدبلوماسى وما أمكن نقله من مصانع من العاصمة الى مدينة كيوبشيف الواقعة على مسافة خمسمائة ميل شرقا . وفى التاسع عشر من أكتوبر أعلن ستالين حالة الطوارىء ، وأصدر الأمر الأول التالى :

« سنناضل عن موسكو الى آخر فرد » . وقد امتثل لأمره فى طاعة ووفاء . وبالرغم من زحف قوة جودريان المدرعة من أوريل الى تولا ، وبالرغم من محاصرة موسكو الآن من جوانبها الثلاثة ، وتعرضها للهجوم الجوى ، اشتدت المقاومة الروسية فى آخر شهر اكتوبر ، وأوقف الى حد ما وبوضوح تقدم الألمان .

وأحست قرينتى بأن الشعب البريطانى بدأ يتضاعف قلقه وألمه بسبب عجزنا عن امداد روسيا بالمساعدة العسكرية ، وخاصة ان الاشهر تمضى ، والقوات الألمانية تواصل تقدمها مجتازة سهول روسيا فقلت لها : ان مسألة الجبهة ليست مهمة فى الوقت الحالى وان كل ما نستطيع عمله مدة طويلة هو متابعة امدادها بمختلف أنواع المؤن والمعدات على اكبر نطاق وشاركنى المستر ايدن فى تشجيعها على ان تبحث امكان جمع تبرعات اختيارية للاسعاف وقد شرع الصليب الأحمر البريطانى وجمعية القديس يوحنا فى مثل هذا العمل ، ولم يلبث ان انشئت جمعية مساهمة سميت جمعية « مساعدة روسيا » ودعيت قرينتى لتولى رياستها . وفى آخر شهر اكتوبر وتحت اشراف الجمعية الجديدة وجهت أول نداء لها الى الشعب البريطانى الذى لباه على الفور تلبية كريمة سخية . وخصصت قرينتى لهذه المهمة السنوات الأربع اللاحقة فى حماسة واحساس فياض بالمسئولية . وجمع من تبرعات الأثرياء والفقراء معا ما يزيد على ثمانية ملايين من الجنيهات .

وقد دفع بعض الأغنياء مبالغ كبيرة للجمعية ، ولكن معظم هذه المبالغ جمعت من التبرعات الأسبوعية التى تبرع بهـــا الشــــعب . وبالتنظيم الفائق الذى هياه الصليب الاحمر البريطانى ومنظمة القديس يوحنا ، وعلى الرغم من الأضرار الفادحة فى قوافل المحيط المتجمــــد الشمالى ، اخذت امدادات قيمة من المواد الطبية والجراحية واصناف متعددة من المرفهات والابتكارات الخاصــــة سبيلها فى سيل متدفق متواصل مجتازة البحار المتجمدة المخوفة ، الى القوات الروســـية الشجاعة والشعب الروسى المكافح .

الاجتماع بروزفلت

فى خلال ذلك جرت فى البلاد التى تتكلم الانجليزية أحداث كثيرة مهمـة . ففى منتصف يوليه قدم الى بريطانيـا المستر هارى هوبكنز مبعوثا من الرئيس فى مهمة أخرى . وكان موضوع دراستنا الأول هو الموقف الجديد الذى أحدثه هجوم هتلر على روسيا ، وأثره على كل الأمدادات التى كنا نستعيرها من أمريكا أو ندفع لها أجرها ، والتى كنا نستند اليها استنادا كليا . وبعد ذلك انتقل الى تقرير أعده القـائد الأمريكى الذى قدمنا له ما يلزم من تسهيلات للاطلاع على كل شىء ، والذى طرح فى تقريره ظلالا من الشـك على استطاعتنا الثبـات أمام الغزو الألمانى ، مما سبب اضطرابا واضحا للرئيس .

وعلى هدى هذا انتقل الى الموضـوع الثالث ، وهو ما يسـاور الرئيس من شكوك فى حكمة محاولتنا حماية مصر والشرق الأوسط ، فهو يخاف أن نفقد كل شىء بمحاولة حماية كل شىء . وفى النهاية بحث المستر هوبكنز مسألة اعداد اجتماع بينى وبين روزفلت فى مكان ما وعلى اية طريقة فى أقرب فرصة مستطاعة . وفى هـذه المرة لم يكن هوبكنز وحده ، فقد كان بلندن عدد من كبـار ضباط جيش أمريكا وأسطولها المختصين بشئون الاعارة والتـأجير ، وفى مقـدمتهم الأميرال جورملى الذى كان يعمل مع الاميرالية البريطانية فى حل مشـكلات الاطلنطى ، وفى ليلة الرابع والعشرين من يولية اجتمعت مع زملاء هوبكنز ورؤساء أركان الحرب فى داوننج سـتريت رقم ١٠ · وقـد أحضر هوبكنز أمير اللواء سيتنى وهو مراقب خاص والأمير جورملى ، والزعيم لى ملحق أمريكا العسكرى ، واشترك معنا فى الاجتماع أيضا أفريل هاريمان الذى رجع فورا من رحلة الى مصر ، حيث الم بكل شىء بأمر منى . وقال هوبكنز : « ان المسـئولين فى أمريكا الذين يشغلون مناصب رئيسية ، والذين يصـدرون القرارات فى القضايا العسـكرية يرون أن الذود عن الوضع فى الشرق الأوسط غير ممكن ، وأن الامبراطورية البريطانيـة تبذل تضحيات غير مفيدة لحماية هـذا الوضع . ويرون أن موقعـة الاطلنطى يتحتم أن تكون الموقعة الفاصـلة الأخيرة فى الحـرب ، وأن تركز كل القوى عليها » · وقال : « ان الرئيس مع ذلك يرغب فى مساندة الدفاع فى الشرق الاوسط ، نظرا للمبدأ القائل ان مقاتلة العدو واجبة أينما كان · وبعـد ذلك نظم الجنرال سيتنى مشـكلات الامبراطورية الاربع على الوضع الآتى : الدفاع عن بريطانيا وعن السبل البحـرية فى الاطلنطى والدفاع عن سنغافورة والسبل البحـرية الى اسـتراليا ونيوزيلندة ، والدفاع عن السبل البحـرية بوجه عام . والدفاع عن الشرق الاوسـط » ، وقال الجنرال : « ان كل تلك المعضلات مهمة عـلى [illegible] » . واقر الجنرال لى ما رآه الجنرال سيتنى وكان الاميرال

جورملى معتنيا بسبيل تموين الشرق الأوسط ، وخاصة اذا كانت تموينات أمريكا ستمضى الى هناك فى مجال واسع . ولكن الا يمكن أن يدفع هذا الى الاضعاف من معركة الأطلنطى ؟

وحينئذ طلبت الى رؤساء أركان حرب بريطانيا أن يوضحوا وجهات نظرهم فأبدى أمير البحر الأول الدوافع التى تدفعه الى أن يعتقد ويثق الآن أكثر من العام السابق أن فى استطاعة بريطانيا تدمير أية قوات تجهز للغزو . وتكلم رئيس أركان السلاح الجوى عن سلاحنا الجوى فى حالة مقارنته بالسلاح الجوى الألمانى ، وفى حالة مقارنته بقوته فى سبتمبر الماضى ، وأكد استطاعة قواتنا تحطيم موانى الغزو الالمانية . وتكلم رئيس أركان حرب جيوش الامبراطورية فأكد تقدم قوة الجيش أكثر مما كانت عليه فى سبتمبر السابق تقدما رائعا . وتدخلت لأبين ما اتخذناه من احتياطات خاصة لتحصين الدفاع عن مطاراتنا بعد ماتلقيناه من دروس فى كريت ودعوت ضيوف أمريكا لزيارة أى مطار يريدونه . واستطردت أقول : « وقد يضطر العدو الى حرب الغازات ، ولكنه اذا اضطر اليها فستكون هلاكا له ، لأننا أخذنا الاهبة للانتقام فورا ، وسيكون هدفنا جموعه التى على السواحل . وسنوجه فعلا حرب الغازات أيضا الى أراضيه » . ودعوت ديل حينئذ أن يتكلم عن الشرق الاوسط فقدم عرضا هائلا مؤيدا بالادلة والحجج ، للدوافع التى تدفعنا الى ان نبقى هناك كضرورة لا مفر منها .

وفى آخر النقاش ملأنى احساس بأن أصحابنا الامريكيين قد أقنعهم ما عرضناه من بيانات ، وأثر فيهم ما ظهر منا من تكاتف واجماع .

لكن تلك الثقة التى كنا نتكلم بها عن الدفاع فى الداخل لم تمتد لتعم الشرق الاقصى حين تعلن اليابان الحرب علينا . وقد أقضت تلك المخاوف أيضا السير جون ديل . وكان انطباعى أنه أكثر معرفة بسنغافورة منه بالقاهرة . وكان هذا الحكم طبعا مدعاة للأسف الشديد والكمد البالغ فالموقف يضاهي تماما موقف ذلك الرجل الذى يخير بين قتل ابنه أو ابنته . وكان رأيى انا انه مهما يقع فى الملايو فانه لا يشابه فى أهميته ما يحتمل وقوعه اذا فقدنا مصر (١) أو قناة السويس أو الشرق الأوسط . ولن أتساهل مطلقا فى فكرة ترك الدفاع عن مصر ولو ضحيت بالملايو كلها . وكان يشاركنى فى موقفى هذا رفاقى فى وزارة الدفاع .

وفى عصر يوم ما قدم الى هارى هوبكنز ، فقعدنا نتكلم فى شمس حديقة داوننج ستريت ، وفجأة قال لى : ان الرئيس يتمنى أن يجتمع معى فى مكان بعيد منعزل . فقلت له : انى أوقن أن مجلس الوزراء سيوافق على اذن باجازتى وجهزنا كل شىء بسرعة . واختير خليج بلاسنتيا بجزيرة نيوفوندلند . وحدد التاسع من أغسطس ميقاتا للاجتماع

---

(١) يتحدث تشرشل الاستعمارى وكأنما مصر ملك لبريطانيا فما أعجب منطقة «التحرير» .

ووجهت الاوامر بالاستعداد والتأهب الى أحدث بوارجنا «الامير ويلز» وكنت فى غاية الشوق للاجتماع بالرئيس روزفلت الذى كانت علاقتى معه وطيدة نامية منذ عامين تقريبا ، وخاصة أن مثل هذا الاجتماع سيشير الى تآلف أقوى بين بريطانيا وأمريكا مما يلقى الانزعاج فىنفوس أعدائنا ، ويرغم اليابان على أن تطيل النظر ، ويشجع حلفاءنا . وكانت ثمة مسائل متعددة يجب دراستها ، أهمها تدخل أمريكا فى الأطلنطى ، ومعاونة روسيا ، ومركز تموينانتا ثم تضاعف التهديد اليابانى . وصحبت معى السير اليكسندر كادوجان من وزارة الخارجية، واللورد شيرويل والعقيدين هوليس وجيكوب من وزارة الدفاع وموظفى مكتبى الخاص ، الى جانب عدد منكبار ضباط الأقسام الفنيةوالادارية وفرع التخطيط. وقال الرئيس انه سيحضر معه قادة القوات المسلحة، والمستر سمزويلز من وزارة الخارجية . واستدعى تفرق الغواصات الألمانية فى شمال الاطلنطى التزام أبعد ما يستطاع من احتياطات التكتم والسرية ، وذهب الرئيس يقضى أجازة فى يخته الخاص فى عرض البحر، وغادره الى الطراد أوجسطا ، وترك اليخت يمشى خلفه كعملية تغطية .

وفى خلال ذلك نال هارى هوبكنز ، بالرغم من مرضه ، موافقة الرئيس على السفر الى موسكو فى رحلة جوية مضنية ، خطرة ، جاب فيها فضاء النرويج والسويد وفنلندة ، ليعرف من ستالين رأسا ماهية مواقف الروس وطلباتهم ، وتقرر انضمامه الى البارجة « الامير ويلز » فى سكابافلو .

وركبت من تشيكرز القطار الخاص الذى يحمل كل هذا العدد من الموظفين ومنهم عدد كبير من كتاب « الرموز » من لندن ، وفى سكابافلو انتقلنا الى البارجة عن طريق مدمرة صغيرة. وفى الرابع من أغسطسقبيل حلول الظلام بدأت البارجة رحلتها فىالأطلنطى تحميها المدمرات. ولقيت هارى هوبكنز منهكا منرحلاته الجويةالمتتالية، ومنالاجتماعات التىأقامها فى موسكو . وقد وصل قبل يومين الى سكابافلو فى حالة سيئة منالمرض والانهاك ، مما دفع الأميرال الى اجباره على أن يذهب الى فراشه على الفور . ومع ذلك بقى مرحا على طبيعته ، وقد استرد عافيته بسرعة فى أثناء الرحلة ، وكلمنى عن رحلته الأخيرة .

وعندما تثور رياح البحر يكثر اهتزاز الحجرات الواسعة الموجودة فوق حجرات الآلات ، المريحة عادة ، وبذلك تضحى غير صالحة للاقامة، ولهذا انتقلت الى غرفة الأمير الموجودة فوق الجسر ، واستعملتها للنوم وللمكتب . وقد أحببت قبطاننا « ليشر » حبا كثيرا لأننى رأيت فيه كل سمات البحار البريطانى المحبوب ، ومع بالغ الاسى غرق هو وأكثر زملائه وبارجته الهائلة تحت عباب المحيط . وفى اليوم اللاحق اشتدت الريح حتى اضطررنا أن نختار بين الامهال فى السير ، أو أن نترك مدمراتنا الحارسة . واصدر الاميرال باوند أمير البحرية الاول القرار ، فذهبنا وحدنا فى أقصى سرعة ممكنة . وأخبرنا أن هناك عددا من الغواصات تخترق المحيط ، فقمنا بحركات انعطاف وميل لتفاديها ، وفضلنا طبعا الكف عن أى اتصال لاسلكى من جانبنا . وكان فى وسعنا أن نستقبل الرسائل دون أن نجيب عليها الا فى أوقات مخصوصة . وبذلك حدث

جمود فى حياتى اليومية المنظمة ، وأحسست بنوع من الراحة لم أحس به منذ قامت الحرب . وكان فى وسعى لأول مرة منذ عدة اشهر أن أطالع كتابا للمتعة والترفيه . وكان أوليفر ليتلتون وزير دولتنا فى الشرق الاوسط قد منحنى رواية « الكبتن هو رنبلاور » التى الفها فوريستر ، فقرأتها وكانت ممتعة غاية المتعة . وقد أرسلت اليه رسالة حينما بدت لى فرصة قلت فيها « لقيت هورنبلاور رائعة » . وقد أوجدت هذه الرسالة القلق فى قيادة الشرق الاوسط ، اذ تراءى لهم أن هورنبلاور الاسم الرمزى لعملية عسكرية خاصة لم يرد بعد خبرها اليهم .

وفى الساعة التاسعة من صباح يوم السبت التاسع من اغسطس ، وصلنا الى المكان المحدود ، وبعد تبادل التحيات البحرية المعهودة ، ذهبت الى متن الطراد أوجسطا ، وهناك حييت الرئيس روزفلت الذى استقبلنى بكل مظاهر التقدير والحفاوة ووقف مستندا الى ذراع ابنه ايليوت ، فى حين صدحت الموسيقى العسكرية بالسلامين البريطانى والامريكى ، ثم استقبلنى بحفاوة ومحبة خالصتين ، واعطيته رسالة من الملك ، ثم عرفته بمن معى ، وفى سرعة بدات المباحثات بينى وبين الرئيس وحضرها المستر سمزويلز والسير اليكسندر كاذوجان ، وأفراد القيادتين ، واستمرت المباحثات دون توقف طول الأيام الباقية من زيارتنا فى صورة مؤتمرات عامة أو اجتماعات خاصة لا يشهدها غيرنا نحن الاثنين .

وفى صباح الاحد العاشر من أغسطس قدم الرئيس على متن «الامير ويلز » وشاهد مع رجاله وضباطه، ومئات من ضباط البحريه الامريكية على اختلاف رتبهم وجنود الاسطول ، حفلا قداسيا أقيم على متن البارجة، وقد شعر كل من رأى هذا القداس بما يشير اليه من تصوير لوحدة العقيدة بين شعبينا . ولا يمكن كل من حضره أن ينسى ما شاهده من روعة فى ذلك الصباح المشرق على متن البارجة المزدحمة ، وقد رفرف العلمان البريطانى والامريكى فوق المنصة جنبا الى جنب ، وقام القسان البريطانى والامريكى يتناوبان القراءة والصلاة ، وأمامهما وقف كبار القادة من الدولتين من بحريين وعسكريين وجويين فى مجموعة واحدة خلفنا انا والرئيس ، ووراءهم حشود البحارة من الفريقين وقد اندمجوا فى مجموعة واحدة يتلون الكتب نفسها ، ويقرءون الصلوات نفسها . وقد انتقيت نشيد « الى هؤلاء ، المهددين بالاشراف على الهلاك فى البحر » ونشيد « الى الامام يا جند المسيحية » . واختتمنا بالصلاة المعهودة « يا رب ، يا مجيرنا ، فى الايام السالفة » . وظهر أن كل كلمة كانت تستثير القلوب . وعشنا ساعة رائعة كتب على أكثر من نصف من شهدها الموت بعد وقت وجيز .

وفى احد اجتماعاتنا الاولى قال لى الرئيس روزفلت : انه يرى أن فى استطاعتنا أن نصدر بيانا مشتركا يضع بعض الأسس العريقة الخاصة التى يتحتم أن توجه سياستنا فى السبيل نفسه . ولرغبتى فى تتبع هذا الرأى المفيد للغاية ، قدمت اليه يوم الاحد موجزا ملحوظا لمثل هذا البيان . وبعد دراسة طويلة مستأنية واتصالات برقية بوزارة الدفاع فى لندن ، اصدرنا البيان التالى :

« بيان مشترك من الرئيس ورئيس الوزراء »

١٢ من اغسطس عام ١٩٤١

اجتمع الرئيس الامريكى ، والمستر تشرشل رئيس وزراء بريطانيا ممثلا للحكومة البريطانية ورأيا من الأوفق اعلان بعض الاسس المشتركة فى سياسة بلادهما الوطنية التى يعلقان عليها آمالهما فى تحقيق مستقبل أفضل للعالم .

أولا : ان بلادهما لا تتطلع الى امتداد اقليمى أو غير اقليمى .

ثانيا : انها لا تريد أن ترى أية تغيرات اقليمية لا تتفق وارادة الشعوب المعنية التى يتحتم التعبير عنها فى حرية تامة .

ثالثا : تقدر الدولتان حق كل الشعوب فى أن تختار أسلوب الحكم الذى تتمنى أن تحيا فى كنفه ، وتتمنيان ان تريا حقوق السيادة والحكم الذاتى قد ردت الى هؤلاء الذين حرموها غصبا .

رابعا : ستحاول الدولتان ، تقديرا منهما لواجباتهما القائمة تمكين كل الدول كبيرها وصغيرها ، المنتصر منها والمنهزم ، من الوصول الى تجارة العالم ومواده الاولية التى تحتاج اليها لرفاهيتها الاقتصادية

خامسا : تريد الدولتان أن تحققا أبعد ما يستطاع من تعاون بين كل الشعوب فى المجال الاقتصادى لتأمين مستويات حسنة للعمال ، والنهوض الاقتصادى والكفالة الاجتماعية للجميع .

سادسا : ترجو الدولتان ، بعد تدمير العدوان النازى ، ان تريا سلاما مستقرا يكفل لكل الشعوب سبل العيش داخل بلادها فى اطمئنان ، ويكفل بالتاكيد حياة الرجال فى كل البلاد حياة متحررة من الرعب والفقر .

سابعا : يكفل هذا السلام لكل الناس حرية عبور البحار والمحيطات دون مانع .

ثامنا : يتحتم على كل شعوب العالم فى اعتقاد الدولتين التخلى عن استخدام القوة لدوافع واقعية وروحية فى وقت واحد .

ولما كان من غير المستطاع صيانة السلام فى المستقبل اذا بقيت الشعوب التى تنذر أو التى يحتمل أن تنذر بالعدوان خارج حدودها تستعمل الأسلحة البرية والبحرية والجوية فى هذا الغرض ، فانهما توقنان أن نزع السلاح من مثل هذه الشعوب أمر ضرورى الى أن يتم اقامة جهاز أوسع وأكثر دواما للأمن العام . وستعاونان وستشجعان أيضا كل الطرق العملية التى تخفف أثقال التسلح عن عوائق الشعوب المحبة للسلام .

وقد تكشفت الاهمية الكبرى لهذا البيان الذى أصبح يسمى فيما بعد « ميثاق الاطلنطى » . والمدهش فى هذا البيان أن دولة « ما زالت

محايدة من الجبهة الفنية » كأمريكا قد اشتركت فى اصداره مع دولة محاربة .

ولا مرية فى أن اشتمال البيان على تدمير العدوان النازى عن آخره « وهذه فقرة جاءت فى المسودة التى جهزتها » ، يعد تحديا ظاهرا يمكن اعتباره بمنزلة عمل حربى . وأخيرا برزت ظاهرة أخرى هى ما تجلى فى الفقرة الاخيرة من البيان من واقعية وشجاعة فقد دلت على أنأمريكا ستشترك معنا بعد الحرب فى القيام بأعمـال البوليس الدولى الى أن ينتهى العالم من وضع نظام أحسن . وتم الوصـول فى الاجتمـاعات الدورية بين قوادنا العسكريين والبحريين الى اتفاقات كثيرة بينهم . وكنا نرى الخطر فى الشرق الأقصى ماثلا باستمرار . وكانت حكومتـا بريطانيـا وأمريكا منذ عدة أشهر على وفاق تام نحو البيان . وفى آخر شهر يوليه تم احتلال اليابانيين عسكريا للهند الصينية، وبهذا الاعتداء السافر أصبحت جيوشهم العسكرية فى موقف يمكنها من توجيهالضربة الينا فى الملايو ، والى الامريكيين فى الفلبين ، والى الهولنديين فى جزر الهند الشرقية .

وفى الرابع والعشرين من شهر يوليه طلب الرئيس روزفلت من حكومة اليابان « كخطوة أولى للوصول الى تسـوية عامة » ، اعـلان حياد الهند الصينية ، وجلاء الجيوش اليابانية عنها . ولكى يكتسب هذا الطلب طابع التنفيـذ اصدر الرئيس أمرا بتجميـد كل الأموال اليابانية فى أمريكا . ودفع هذا العمل الى وقف كل الاتصالاتالتجارية مع اليابان ، وقامت حكومة بريطانيا باجراء مشابه ، وقام الهولنديون بعد يومين بالعمل نفسـه . وكان اشتراك هولندا فى هذه الاعمـال ، معناه قطع كل تموينات البترول عن اليابان بضربة واحدة .

ومرت رحلة العودة الى ايسلندة بدون حادث ، بالرغم من أننا أرغمنا فى احدى المراحل على أن نبدل سبيلنا بسبب ما روى لنـا عن وجود غواصات فى اماكن قريبة. واحتوت القوات التى قامتبحراستنا على مدمرتين كان باحداهما ضابط بحرى تحت التمرين هو فرانكلين ديلانور وروزفلت الصغير ، نجل الرئيس .

وفى الخامس عشر واجهنا قافلة مشـتركة تتجه الى الوطن ، وتشـمل ثلاثا وسبعين باخرة جميعها على أحسن ما يرام بعد رحلة جميلة عبر الاطلنطى . وكان المشـهد مشجعا للغـاية ، وقد فرحت البواخر التجارية أعظم الفرح بمشاهدة البارجة « الامير ويلز » وفى صباح سبت السادس عشر من اغسطس بلغنا الجزيرة ووقفنا فىخليج هافال ، ثم انتقلنا الى ريجافيك فى مدمرة وقد اسـتقبلتنى حشـود من الجماهير فى الميناء استقبالا حارا صاخبا ، وكانت الجماهير تكرر تحياتها الودية حينما ترانا طيلة فترة اقامتنا . وحينما تركنا الميـناء بعد الظهر بلغت تحياتها ذروتها فى صـورة بالغـة الروعة ارتفع فيها التصفيق والهتاف بصورة لم ترها ريكجافيك كما روى لى بعد . وبعد قيامنا بزيارة قصيرة لآلثينفيشوس لتحية الوصى وأعضاء وزارة ايسلندة ذهبت لأرى عرضا مشتركا قامت به القوات البريطانية والامريكيةوكان

عرضا طويلا من أمامنا فى صفوف ثلاثية ، وعزفت الموسيقى خلاله نشيد البحرية الامريكية فاثر هذا النشيد على مخيلتى حتى أننى لم اتمكن من نزعه من ذاكرتى الى وقت بعيد . واستطعت أن أدخر الوقت اللازم لزيارة المطارات الحديثة التى كنا نشيدها ، ولزيارة العيون الساخنة الهائلة والبيوت الزجاجية المبنية فوقها ، وتراءى لى فورا أن فى الوسع استعمال هذه العيون لتدفئة ريكجافيك ، وحاولت ان ازج بالمشروع الى الامام فى وقت الحرب ، ويسعدنى أنه قد تحقق الآن . وقد أدت قوات العرض التحية لى ، وابن الرئيس واقف بجوارى . وقدم العرض برهانا جديدا واضحا على التضامن الانجليزى الامريكى . وقد زرت القطعة الامريكية راميليس حينما رجعت الى خليج هفالز ، وخطبت فى ممثلين لبحارة البواخر البريطانية والامريكية الراسية هناك وبينها المدمرتان « هيكلا » و « تشرشل » . وعندما خيم الظلام بعد هذا الاختبار الطويل المتشعب أبحرنا الى سكابافلو وبلغناها صباح الثامن عشر دون أى حادث آخر ، وفى اليوم التالى وصلت الى لندن .

إيران والصحراء

دفعت ضرورة ارسال الامدادات والذخيرة المتعددة الانواع الى الحكومة الروسية والمتاعب الكثيرة فى سبيل البحر المتجمد الشمالى ، والاحتمالات الاستراتيجية القادمة الى ارادة قوية بفتح أبعد ما يستطاع من مواصلات مع روسيا عن طريق ايران .

وبالطبع كنت أحس بالقلق بسبب الاقبال على فتح جبهة حديثة فى الشرق الاوسط ، ولكن الدواعى اليها كانت قوية وقاهرة • وكانت آبار البترول الايرانية دافعا حربيا رئيسيا ، وكان علينا أن نكون مستعدين للاستيلاء عليها حين تقهر روسيا • وثمة أيضا خطر قائم على الهند • وقد افسدت خطة هتلر فى الشرق نتيجة اخماد الثورة فى العراق ، والاحتلال الانجليزى ـ الفرنسى لسورية ، وقد تما فى آخر لحظة • وقد يرجع الى المحاولة من جديد حين يهزم الروس • وكان فى طهران وفد ألمانى يشمل عددا كبيرا من الموظفين ، وكان صيت الالمان فى البلاد قد سما الى السماء • وفى مساء سفرى الى خليج بلاسينتيا لمقابلة الرئيس روزفلت أوصيت لجنة خاصة بتنظيم الخطط الضرورية لعملية تستهدف ايران ، وقد حملوا الى بالبرق وانا فى عرض البحر آثار عملهم بعد أن وافقت عليها وزارة الدفاع • وكان من الجلى أن الايرانيين لن يطردوا عملاء الالمان ورعاياهم من بلادهم • وانه يجب أن نستعمل القوة لتحقيق ذلك• وفى الثالث عشر من أغسطس قام المسيو مايسكى بزيارة المستر ايدن فى وزارة الخارجية واتفقا على نصوص المذكرات التى سترسلها الحكومتان الى طهران ، وفى السابع عشر من أغسطس أرسلت حكومتا بريطانية وروسيا مذكرة مشتركة الى ايران قوبلت مقابلة غير ودية ، وتقرر اليوم الخامس والعشرون من أغسطس موعدا لدخول قوات بريطانيا وروسيا ايران •

وأنجزت العملية فى أربعة أيام • وفى فجر الخامس والعشرين من أغسطس نزل الى البر لواء مشاة بريطانى قام من البصرة واستولى على مصفاة الزيت فى عبدان وقد فوجئت معظم القوات الايرانية بالهجوم ، ولكنها هربت بالناقلات ، وجرى بعض القتال فى الشوارع ، واكتشفت بعض قطع بحرية ايرانية صغيرة • واستولت قواتنا من جهة الشاطىء فى الوقت نفسه على ميناء « خرمشهر » فى حين اتجهت قوة الى الشمال ناحية الاهواز • وحينما كانت قواتنا تدنو من الاهواز وردت أخبار تحمل أوامر الشاه بوقف اطلاق النار ، ووجه القائد الايرانى أوامره الى جنوده بالرجوع الى ثكناتهم ، واستولينا على حقول النفط فى الشمال، وأمنا من الخطر ، ولم تتجاوز أضرارنا اثنين وعشرين قتيلا، واثنين واربعين جريحا

وتم الاتفاق مع الروس فى سهولة وليونة على كل الخطوات والاعمال السريعة وقد فرضت شروط رئيسية على الحكومه الايرانية هى : وقف العمليات الحربية ، وطرد الالمان من البلاد ، والحياد في الحرب ، واستعمال الحلفاء للمواصلات الايرانية لنقل الامدادات الحربية الى روسيا . وتم الاستيلاء على فارس فى أمن وسكون . وتقابل جنود بريطانيا وروسيا فى محبة وصداقة .

وفى السابع عشر من سبتمبر تم الاستيلاء على طهران بصورة مشتركة ، ونزل الشاه عن عرشه لابنه الاكبر الموهوب الذى يبلغ من العمر اثنين وعشرين سنة . وفى العشرين من سبتمبر أرجع الشاه بمشورة الحلفاء الملكية الدستورية ، وبعد أيام قليلة ذهب والده الى منفاه المريح حيث مات جوهانسبورج فى يوليه سنة ١٩٤٤ وغادرت اكثر جيوشنا البلاد ، ولم ندع الا فصائل صغيرة للدفاع عن طرق المواصلات وفى الثامن والعشرين من أكتوبر تم خروج القوات البريطانيه والروسية من طهران . وقد عملت قواتنا منذ ذلك الحين تحت قيادة الجنرال كينان فى تجهيز الخطوط الدفاعية لمواجهة أى زحف من ناحية القوات الالمانية التى تعبر تركيا أو القوقاز وفى أخذ العدة الادارية لاستقبال معونات هائلة ستصل عندما يصير هذا الزحف حقيقة واقعة، وغدا انشاء طريق رئيسى لامداد روسيا عبر خليج البصرة غرضنا الاول ، وكان فى الاستطاعة بمعاونة الحكومة الحليفة فى طهران ، توسيع الموانى والنهوض بالمواصلات البحرية ، وتشييد الطرق ، ومد الخطوط الحديدية .

وفى سبتمبر عام ١٩٤١ بدأ الجيش البريطانى فى هذا المشروع ، وقطع فيه شوطا الى أن أخذته الحكومة الامريكية بعد قليل لتوسعه وتشرف عليه . وبوساطة هذا المشروع استطعنا أن نبعث الى روسيا فى مدة أربع سنوات ونصف السنة أكثر من خمسة ملايين طن من الامدادات . وهكذا انقضت تجربة قصيرة ، منتجة لاستخدام قوة كبيرة باطشة ضد دولة عتيقة واهنة .

وكانت بريطانيا وروسيا تحاربان دفاعا عن حياتهما ، وقد أبهجنا كثيرا أن انتصارنا تم به حفظ استقلال ايران .

ولنرجع الآن الى مسرح البحر المتوسط الهائج : فى الخامس من يوليه تولى الجنرال أوكنلك القيادة الرسمية فى الشرق الاوسط ، وبدأت صلاتى بقائدنا الجديد ، وقد احتوانى الامل . ولكن بعد أن تبادلنا عددا من البرقيات تبين لى أن هناك اختلافات خطيرة فى الآراء والقيم بيننا . فقد رأى الدفاع عن جزيرة قبرص بفرقة على الاقل فى أسرع وقت مستطاع، كما أكد وجوب استرداد برقة ، ولكنه لم يكن موقنا أن فى امكان طبرق أن تصمد بعد شهر سبتمبر . وذكر أن تركيب دبابات أمريكا الحديثة وتسليحها ادخلا تغييرات فى العمليات التكتيكية ولا بد أن تستغرق الدراسات الخاصة بهذه التغييرات وقتا حتى يتم . ووافق بأنه سيكون عنده فى آخر شهر يوليه ما يقرب من خمسمائة دبابة من الدبابات

السريعة والثقيلة والامريكية . ولكنه يرى على اية صورة ان اية عملية تستدعي خمسين في المائة من مجموع الدبابات كقوة احتياطية نصفهـــا يكون تحت الاصلاح في المصانع ، ونصفها الآخر يحل محل ما يصـــاب من دبابات في المعركة . وكان مثل هذا الرأى مانعا يحول دون أية عملية فمثل هذا الترف لا يتم بالجنرالات الا في جنان الفردوس ــ والجنـــرالات الذين يريدون مثل هذا الترف ويفرضونه لايبلغون الجنان عادة . وألح « أوكنلك » في لزوم عنصر الزمن للتمرين الفردى والجماعى ، ووجـــود روح العمل المشترك كفريق وكشرط أساسى للكفاية والايجابية ، وأيقن أن هجوم الالمان من الشمال أى عبر تركيا وسورية وفلسطين سيكـــون جبهة حاسمة لا يرى وقوعها في الصحراء على أى حال .

وبسبب كل هذه الآراء لم أقل الكثير مما كنت آمل وضللتنى أيضا قرارات الجنرال الاولى ، وفزت في النهاية بعد اصدار والحاح بنقل الفرقة البريطانية الخمسين الى مصر . وكنت حساسا بالنسبة للدعاية المضادة التي تقول ان سياسة بريطانيا تقوم على خوض الحرب بجنود غير جنودها، وانها تتحاشى اراقة دماء الانجليز في حربها . وكانت اضرار البريطانيين في الشرق الاوسط كله ، بما فيه اليونان وكريت ، اكثر من اضرار القوات الاخرى العاملة معنا ، ولكن التسميات المعروفة أشـارت الى انطبـــاعات «مغلوطة» عن هذه الحقائق، فمثلا الفرق الهندية التي كان ثلث مشاتهاوكل مدفعيتها من البريطانيين ، لم تكن تسمى بالفرقة «البريطانية ــ الهندية» وكانت الفرق المدرعة التي تحملت بأس القتال وضغطه كلها بريطانية ، ولكنها لا تسمى بالفرقة البريطانية . ودفع عدم ذكر القوات البريطانية في البلاغات الحربية « الا قليلا » الى اسباغ شيء من الحق على دعاية العدو المشهرة بنا ، وأهاجت انتقادات مؤلمة الا في أمريكـــا وحدها ، بل في استراليا أيضا وكنت متعطشا الى وصول الفرقة البريطانية الخمسـين كسلاح حاسم للتغلب على هذه التيارات المضادة . وكان قرار الجنــرال أوكنلك باختيار هذه الفرقة بالذات وارسالها الى قبرص ، اختيارا يفتقر الى المنطق ، لانه يمكن العدو من الحصول على مادة يستعملها من غير حق في تعييرنا والاستخفاف بنا . وقد أذهل اتخاذ هذا القرار العجيـــب باستخدام مثل هذه القوة الفائقة جميع رؤساء أركان الحرب في الوطن . ودفع تصميم آخر أكثر خطورة من الجنرال أوكنلك ، الى ارجاء كل عمل حربى ضد رومل في الصحراء الغربية فترة ثلاثة أشهر أولا ، وأربعة أشهر ونصف شهر فيما بعد . مما سوغ ما تناوله « ويفل » من عمل في الخامس عشر من يونيه في عملية « فأس المعركة » اذ أنه على الرغم مما أصابنا من ضرر ، وبالرغم من تراجعنا الى مواقعنا الاصلية ، لم يستطع الالمان مطلقا أن يتقدموا طول هذا الوقت الطويل ، ولم تكن مواصلاتهم التى نهددها طرقا كافية لتمكنهم من المجيء بالتعزيزات الواجبة من المدرعات حتى من ذخيرة المدفعية ، ليتمكن رومل من أن يقوم بأكثر من الصمـــود بفضل ارادته وصيته . وكانت تغذية جنوده تكلفه مجهودا صعبا يعوقه عن زيادة هذه القوات الا بشكل تدريجى .

وفى مثل هذه الظروف كان من اللازم أن يظل متصديا للاشتباكات مع القوات البريطانية التى كانت تفوقه فى يسر مواصلاتها البرية والحديدية والبحرية ، والتى كانت تستقبل دائما المعونات والتعزيزات على أوسع نطاق فى الرجال وأدوات الحرب •

وظهر أيضا أن المبالغة فى وصف الانزعاج على جناحنا الشمالى نتيجة طبيعية لسوء التقدير • وليس من شك فى أن الدفاع عن هذا الجناح كان يستوجب غاية الحرص ، ويسوغ اتخاذ الكثير من استعدادات الدفاع وانشاء خطوط دفاعية محصنة فى فلسطين وسورية • ولكن الموقف فى هذه الجبهة أصبح الآن أحسن بكثير مما كان عليه فى يونيه • فقد سيطرنا على سورية وأطفأنا ثورة العراق ، وجيوشنا صامدة فى كل المواقع المهمة فى الصحراء • والى جانب هذا أدى الصراع بين ألمانيا وروسيا الى عودة الثقة من جديد الى تركيا فما دامت الحرب قائمة بينهما وما دام مآلها معلقا فى كفة القدر فلا يتصور أن تطلب ألمانيا من تركيا اجتياز قواتها أراضيها •

ودفع العمل « البريطانى الروسى المشترك » بايران الى معسكر الحلفاء وهكذا كان الموقف العام يعزز القيام بعمل حاسم فى الصحراء الغربية وبدلا من ذلك شعرت بحرج موقف الجنرال أوكنلك من ناحية هذا الموضوع ، وهو حرج لا يخدم الاغراض التى نعمل لها كلنا ، وليس فى مصلحتها • وقد أوردت الاسفار التى صدرت بعد انقضاء الحرب ، كيف عارضت طوائف غير رئيسية — ولكنها ذات نفوذ فى هيئة أركان العمليات الحربية فى القاهرة — قرار ارسال الجيش البريطانى الى اليونان • ولم يكن هؤلاء يعلمون ان الجنرال ويفل هو الذى ارتضى اتخاذ هذه السياسة بخالص ارادته واختياره ، وأن وزارة الدفاع ، وهيئة رؤساء أركان الحرب ، تركتا له القرار مفتوحا مع ارادة اتخاذه قرارا سلبيا •

وقد روى أن السياسيين قد أجبروا ويفل ، وأن موافقته على ارادتهم أظهرت سلسلة متتابعة من المحن . والآن كمكافأة له على سجيته الطيبة أقصى عن منصبه بعد كل تلك الانتصارات ، وحين غدت الهزيمة قريبة الوقوع • ولا ريب عندى فى أن دوائر ضباط الاركان هناك قد عمها احساس بأن على القائد الجديد الا يسمح للآخرين بدفعه الى مغامرات خطرة • بل يتحتم عليه أن يعمل فى تؤدة • وألا يقوم بأية خطوة الا اذا وثق من نتائجها • ولا مرية لدى فى أن مثل هذا الرأى قد حول الى الجنرال أوكنلك نفسه ، وبدا لى أن المكاتبات لن تدفع الى أى تقدم . فدعوت الجنرال فى شهر يوليه للقدوم الى لندن • وكانت زيارته مجدية من عدة نواح • فقد أنشأ صلات ودية مع أعضاء وزارة الحرب • ومع رؤساء الاركان • ومع وزارة الحربية وقضينا معا اجازة طويلة الى آخر الاسبوع فى تشيكرز • وحينما نمت معرفتنا بهذا الضابط المتألق • الذى يتعلق بكفايته مآلنا وأقدارنا ، وحينما غدا هو الآخر أكثر معرفة بالدوائر العليا فى جهاز بريطانيا الحربى ، ورأى كيف يعمل هذا الجهاز فى مرونة ويسر عظمت الثقة المتبادلة • ولم يكن فى طاقتنا من الجهة

الاخرى اقناعه بالتحول عن اصراره على مطله فى التأهب لهجوم دقيـــق التفاصيل يبـــدؤه فى الاول من نوفمبر . وتقرر تســمية هــذا الهجوم « بالصليبى » على أن يكون أكبر عملية قمنا بها حتى الان • ولا شـــك فى انه انتصر على كل مستشارى العسكريين بالادلة المفصلة التى جـاء بها ، ولم أقتنع برأيه • ولكن كفاياته التى لا ريب فيها وقـــوة بسطه للموضوع وشخصيته السامية الجذابة القـوية كلها دوافع أوحت الى بالاحساس بأنه قد يكون على صواب ، وبأنه لو كان مخطئا فهو أفضـــل قائد يتقلد هذا العمل ، ولهذا خضعت لموعد نوفمبر الذى قرره للبـــدء فى الهجوم ، واتجهت بكل ما أملك من مجهود لانجـــاحه • وقد حزنا جميعا أشد الحزن لاننا لم نتمكن من اقناعه بأن يوصى بالقيادة للجنرال ميتلاند ويلسون عندقيام المعركة ، فقد فضل عليه الجنرال آلان كانتجهام، الذى ذاع صيته عند انتهاء الانتصارات البريطانية فى الحبشة . وكان يلزمنا على أية حال أن نستفيد من الموقف كل الاستفادة ، والا نقنـــع بأنصاف الحلول أو الاستعدادات•وهكذا اشتركنا فى المسئولية باحتضان كل القرارات التى اتخذها • ومع ذلك ينبغى أن أثبت يقينى هنا بأن الشهور الاربعة ونصف الشهر التى استغرقها الجنرال أوكنلك فى ارجاء الاشتباك مع العدو فى الصحراء الغربية ، كانت غلطة وكارثة فى الوقت نفسه •

والان ونحن نعلم تماما ما كانت تفكر فيه القيادة العليا الالمانيـــة فيما يختص بوضع روميل • فقد كانت هذه القيادة مغرمة باقدامـــــه وبانتصاراته المدهشة التى حققها ولكنها فى الوقت نفسه كانت تحس بأنه فى موقف بالغ الخطورة . وقد كفته بشدة عن القيام بأية مغامرة جديدة الى أن يتم امداده بقوات كبيرة وحديثة . ومن الممكن بالنســـبة لشهرته الطنانة أن يرضينا ، وان يصمد فى الموقف الذى يجد نفســـه فيه ، الى أن تتدفق عليه الامدادات التى سترسل ، وخط مواصـــــلاته يمتد ألف ميل الى طرابلس • وتصلح بنى غازى كقاعدة قريبة لبعـــض تمويناته وامداداته ، لكن أيا من هذين الميناءين يتصدى النقل البحرى اليه بضربة فادحة وتكاليف باهظة وما فتئت القوات البريطانية التى تفوقه الآن فى العدد آخذة فى الازدياد يوما بعد يوم ، أما تفوق الالمـان فى الدبابات فمقصور على النوع والتنسيق ، والالمان فى الجو أوهن من غيرهم • وهم يحتاجون كل الاحتياج الى ذخيرة المدافع ويخافون أن يجدوا أنفسهم مضطرين الى اطلاق عدد مما عندهم من قذائف قليلة وما برحت طبرق تظهر كتهديد قاتل فى مؤخرة روميل ، وقد ينطلق منها فى أية برهة هجوم يقطع عليه سبل مواصلاته • ولكن كان فى امكانهم أن يشكـــروا لنا كل يوم يمضى دون أى عمل ما دمنا نقف مشدودى اليدين للخلف •

واستثمر الفريقان أشهر الصيف لتقوية جيشيهما • وكان اعـــداد مالطة بالاسلحة والمؤن أمرا مهما بالنسبة الينا • بعد أن منعنا من اتخاذ كريت قاعدة للوقود ، يمكنها أن تكفل لاسطول الاميرال كانتجهام مركزا قريبا لتمكين قوتنا البحرية المدافعة من العمل • وقويت الاحتمالات بقيام

ايطاليا وصقليه بهجوم بحرى على مالطة ، وان كنا اليوم نعلم أن هتلر وموسوليني لم يرضيا بمثل هذه الخطة الا في سنة ١٩٤٢ • وكانت مطارات العدو في كريت وبرقة تهدد سبيل قوافلنا البحرية من الاسكندرية الى مالطة بصورة خطيرة ، حتى أننا لجأنا الى الاعتماد على الغرب في نقل المؤن الى الجزيرة وقد قدم الاميرال سومرفيل بفرقة (هـ) العساملة في جبل طارق مساعدات هائلة في هذا الطريق • وقد غدا السبيل الذى كانت الاميرالية تعده أكثر السبل خطورة الطريق الوحيد المفتوح أمامنا الآن • ولحسن حظنا اجبرت مطالب الحملة في روسيا هتلر على سحب قواته الجوية من صقلية ، مما هيأ لمالطة فرصة للاستجمام ، ورد الينا السيادة على مضيق مالطة التى كنا قد فقدناها ولم يدفع هذا التحول الى معاونة قوافلنا على الوصول من الغرب بل مكننا من أن نسدد ضربات عنيفة الى سفن التموين والنقل التى تتولى تموين رومل •

واستطاعت قافلتان مهمتان أن تشقا سبيلهما عنوة بنجاح ، وكان ذهاب كل منهما عملية بحرية شاقة • وفي شهر أكتوبر استطعنا أن نغرق ستين في المائة من امدادات رومل وهي في طريقها • ولكن اشفاقي ما برح قائما • وحضضت الاميرالية على أن تضاعف جهودها • وكنت أريد بصورة خاصة ايجاد قوة بحرية تعمل باستمرار في قاعدة مالطة وقد ارتضيت هذه السياسة وان احتاج تنفيذها الى بعض الوقت • وفي شهر أكتوبر أنشأنا قوة هائلة في مالطة سميناها القوة « ك » وشملت الطرادين أورورا وبنيلوبي، والمدمرتين لانس ولايفلي. وقد قامت كل هذه الاجراءات بدورها في المعركة الجديدة التى تقرر بدؤها •

ويحتاج وصف المعارك الحديثة الى ذلك الشعور الدراماتيكي الذى كان يصاحب معارك التاريخ ، لانها تنبسط الان على مساحات واسعة ، ويستدعى البت في مصيرها عدة أسابيع ، في حين كانت معارك التاريخ المشهورة التى قررت مآل الشعوب والامبراطوريات تجرى في عدة أميال مربعة من الارض ، ويتقرر مآلها في خلال ساعتين • ولا مرية في أن معارك المدرعات السريعة والآلية في الصحراء تصور هذه المفارقة في صورة جلية • وقامت الدبابات مقام فرسان الماضي ، بأسلحة أقوى وابعد غاية وغدت مناوراتها قريبة الشبه من عدة وجوه بالحرب البحرية التى تقوم فيها بحار الرمال مقام المياه المالحة • والقوة المدرعة مقام سرب الطرادات وهى التى تحدد مصير المعركة أكثر مما يحدده الموقف الذى تواجه فيه العدو ، أو الناحية التى تظهر فيها • وتستطيع فرق الدبابات وألويتها حتى وحداتها الصغيرة أن تنشىء قوى في كل ناحية بسرعة فائقة • حتى أن خطر الحصار أو التطويق غدا أمرا لا وزن له • ومن جهة أخرى يستند كل شيء من لحظة الى أخرى، الى الوقود والذخيرة، والامداد بهما مشكلة بالنسبة للقوات المدرعة أكثر صعوبة منها بالنسبة الى البواخر التى لديها اكتفاء ذاتي ، أو الاسراب التى في عرض البحار . وهكذا تتحدث الاسس التى يقوم عليها فن الحرب عن نفسها بأسلوب جديد ، وتمنح كل معركة دروسا جديدة مستقاة من خبراتها •

ويلزمنا أن ننقص من قوة المجهود الحربي الذى تشتمل عليه هـــذه المعــــارك الصحراوية • وعلى الرغم من أن القوات المقاتلة فى كل معركة لا يربو عددها على تسعين ألف جندى أو مائة ألف بالنسبة لكـــل من الفريقين ، فانها تفتقر الى ثلاثة اضعافها من الرجال الذين يتولون امدادها بالقوة والذخيرة لمعركة تقرير المصير وهكذا تبرز معركـــة سيدى رزق القاسية التى كانت أول هجوم شنه الجنرال أوكنلك ، حين تدرس بشكل واف ، عددا من أهم ملامح الحرب الجبلية • فلقد كان التدخل الشخصى للقائدين العامين للفريقين متحكما وحاسما ، وكان مصير المعركة يتارجح كما كان فى الايام الماضية •

دان هدف و كنلك اولا العودةالى احتلال برقة وتدمير مدرعات العدو خلال هذه العملية ، وثانيا احتلال طرابلس اذا سارت الامور على ما يرام • ولتنفيذ هذين الهدفين اوصى للجنرال كانتجهام بقيادةالجيش الثامن المكون حديثا والذى يشمل الفيلقين الثالث عشر والثلاثين ، ويضم مع حاميةطبرق مايقرب من ست فرق، وثلاثة الوية احتياطية وسبعمائة وأربع وعشرين دبابة وتضمن السلاح الجوى فى الصحراء الغربية ألفا واثنين وسبعين طائرة حديثة تصلح للحرب ، الى جانب عشرة أسراب تعمل بقواعدها فى مالطة • وعلى مدى سبعين ميلا من مؤخرة رومل توجد حامية طبرق المكونة من خمس مجموعات ألوية ولواء مدرع • وكانت القلعة أهم ما يشغله وقد منعت بمركزها الاستراتيجى اى تقدم من جهته فى الاراضي المصرية • وكان غرض القيادة العليا الالمانية المقرر هو تصفية قاعدة طبرق ، وقد اتخذت كل التأهبات المستطاعة للبدء فى الهجوم عليها فى الثالث والعشرين من نوفمبر وكانت قوات رومل تتكون من الفيلق الالمانى القـــوى المكون من الفرقتين المدرعتين الخامسة عشرة ، والحادية والعشرين، وفرقةالمشاة الخفيفة التسعين ، وسبع فرق ايطالية ضمنها فرقة مدرعة واحـــدة ولدى العدو خمسمائة وثمان وخمسون دبابة منها المتوسط والثقيل ، وثلثـــاها من الدبابات الالمانية التى تحمل مدافع أضخم من مدافع دباباتنـــا ذات الرطلين • •

وكان العدو يسبقنا فى الاسلحة المضادة للدبابات . وكانت القـــوة الجوية للمحور وتتكون عند الهجوم من مائة وعشرين طائرة ألمانيةومائتى طائرة ايطالية •

وفى الثامن عشر من نوفمبر وثب الجيش الثامن فى جو ممطر للغاية، وفى الايام الثلاثة الاولى مشت الامور على ما يرام ، واســــتطاعت الفرقة البريطانية المدرعة السابقة التى تكون جزءا من الفيلق الثلاثين ، أن تستولى على « سيدى رزق » ولكن الفيلق الالمانى الذى ركز مدرعاته هاجمها بسرعة، وقامت معركة قاسية وحشية طيلة الحادى والعشرين والثـانى والعشرين داخل المطار وحوله • وامتدت كل القوات المدرعة للفريقين الى هذه المنطقة، وكانت تلتحم فى معارك مضطربة تحت ضغط نيران المدفعية المتسابقة • واستطاع الالمان بتفوقهم فى الدبابات ، وزجهم بأكبر عدد منها فى المعركة، وتفوقهم فى العدد ، أن ينتصروا. وقد تفوق الالمان بالرغم من قيادة الزعيم

جوك كامبل الباسلة والفائقة ، وأصبنا بأضرار أكثر من أضرارهم • وفى ليلة الثانى والعشرين استرد الالمان « سيدى رزق » وفقدت قواتنـــا ثلثى مدرعاتها ، وصدر اليها أمر بالتقهقر عشرين ميلا لاعادة ترتيب صفوفها ، وكانت نكسة شديدة للغاية •

وفى خلال ذلك ، وكانت مدرعات العدو ملتحمة فى القتال ، أصـدر الجنرال كانتجهام فى الحـادى والعشرين من نوفمبر ، أوامره الى الفيلق الحادى عشر بالزحف ، فاستولى على مقر قيادة الفيلق الافريقى الالمانى وفى الثالث والعشرين من الشهر أوشك أن يسترد « سيدى رزق » التى طـرد منها قبل قليل رفاقهم من رجال الفرقة الســابعة المدرعة • وفى الرابع والعشرين ركز « فربر » ثقل قواته النيوزيلندية على مدى خمسة أميـال الى الشرق من المطار • وقام دفاع طبرق بهجوم لتحطيم الحصار المفروض عليهم وكانوا يقاتلون بوحشية المشاة الالمان ، ولكنهم لم يســتطيعوا أن يفتحوا فجوة فى صفوفهم . وأمام «سيدى رزق» توقف النيوزيلنديون بعد تقدم ظافر موفق •

وقد تم عزل فرق دفاع العدو على الحدود ولكن مدرعاتهـــا كانت قد فازت فى المعركة ضد الفيلق الثـلاثين ، ونزلت بالفرقتين ضربات كاسرة وأضرار فادحة ، ولكن مآل المعركة ما فتىء معلقا فى كفة القدر •

وهنا حدثت رواية مسرحية تفكرنا بطواف « جيب » سيتوارت حـول ماكميلان سنة ١٨٦٢ فى شبه جزيرة « يورك تاون » خلال الحرب الاهلية الامريكية • ولكن قوة مدرعة هى التى نفذت هذه الرواية فى هذه المرة • وهى وحدها جيش قائم بنفسه ، كان تحطيمه سيعرض جيش المحور فى افريقية كلها لأفدح الاخطار . وقد قرر روميل أن يتولى زمام المسارعة التكتيكية ، وأن يسلك طريقه شرقا الى الحدود بمدرعاته راجيا أن يحدث الكثير من الفوضى والذعر فى صفوف قيادتنا ، ليجبرها على العـدول عن الهجوم والتقهقر • ولعل روميل وهو يفكر فى خطته الجديدة قد رجـع بمخيلته الى ما تهيأ له من حظ طيب فى تقدمه المدرع فى معركة الصـحراء السالفة فى الخامس عشر من يوليه . وهو التقدم الذى دفع الى تقهقرنا فى تلك اللحظة الصعبة وسيتضح فى سياق القصة التى سأسوقها مدى ما استطاع أن يحققه من نصر .

جمع روميل معظم قوات فيلقه الافريقى ، وكان لا يزال أقوى قوة عاملة فى الميدان وأخطأ بأعجوبة موقع فيلقنا الثلاثين ، ومخزنين ضخمين للذخيرة ، لم يكن فى طاقتنا أن نستمر فى القتال بدونهما ، ثم بلغ الحدود المصرية ، وهنا وزع روميل قوته الى عدة فرق اتجه بعضها شمالا والبعض الآخر جنوبا ، وبعدها توغل عشرين ميلا داخل الاراضى المصرية ، وأحـدث الاختـلال والفوضى فى مناطق مؤخرتنا ، وأسر من الرجال عددا كبيرا ، لكن فرقة لم تتمكن من أن تؤثر على الفرقة الهندية الرابعة التى ظلت تطاردها بوسائل تم ترتيبها بسرعة ، والى جانب هذا استمر سلاحنا الجوى الذى كـان قد أحرز السبق والسيادة على أجواء القوات المتحاربة ، يتتبع قواته ويقصفها

من الجو . وقاسـت قوات رومل التي لا يؤيدها سلاح جوى آلاما جسـاما مثلما قاست جيوشنا من قبل حين كانت ألمانيا تسيطر على أجواء المعارك .
وفي السادس والعشرين اتجهت كل مدرعات العدو الى الشمال تفتش عما أنزل من الطائرات في البردية على كثب منها . وفي اليوم التالي اتجهت الى الغرب بسرعة راجعة الى « سيدى رزق » حيث طلب منها أن تعود الى هناك بسرعة . وهكذا طاشت ضربة رومل الجريئة ، ولكن الفضل في طيشها يرجع الى فرد واحد ، هو القائد ...مى له وأقصد به أوكنلك .

فقد دفعت الضربات الشديدة التي نزلت بنا ، وحالات الفوضى التي حدثت خلف جبهتنا بسبب غارات رومل ، الجنرال كانتجهام الى ان يقترح على القائد العام وقف هجومنا ، ويصور له أن مواصلة الهجوم ستؤدى الى افناء ما عندنا من دبابات ويعرض أمن مصر كلها للخطر . وكان تصـويره يقصد الاقرار بالهزيمة وفشل العملية كلها وفي هذا الظرف الحاسم تدخل الجنرال أوكنلك نفسه . فقد أجاب طلب كانتجهام وطار مع ماريشال الجو تيدر الى مقر قيادة الصحراء في الثالث والعشرين من نوفمبر ، ومع علمه بكل الاخطار ، أصدر أمره الى الجنرال كانتجهام بالاستمرار في مهـاجمة العدو . وهكذا نجى أوكنلك المعركة بعمله الشخصي ، وأقام الحجة على ما يتمتع به من فضائل كقائد ظاهر في الميدان .

وحينما رجع الى القاهرة في الخامس والعشرين قـــرر أن يحل نائب رئيس أركان حربه الجنرال ريتش محل الجنرال كانتجهام مؤقتا ، وسوغ قراره بأنه استخلص مع الاسف أن كانتجهام على الرغم من قيادته العجيبة حتى الان بدأ يفكر تفكيرا دفاعيا لما أصبنا به من خسارة فادحة في الدبابات . وقد أيد وزير الدولة أوليفرليتلتون ، هذا القرار وأوضحه ، فأرسلت اليه ردى بالموافقة .

وأحب هنا أن أدع هذا الحادث الممض الذى حدث لهذا الضابط الشجاع ولأخيه قائدنا البحرى العام ، وللجنرال أوكنلك الذى كان صديقا شخصيا للأخوين ولكنني أود أن أفصح عن كلمة تقـــدير لسلوك الجنرال أوكنلك الذى سما فوق مستوى الاعتبارات الذاتية ، وفوق كل ما يتصــــدى له الانسان من خداع لاتخاذ عمل وسط أو ارجاء اتخاذ القرار .

وفي خلال ذلك كان فريبرج والنيوزيلنديون ، يعززهم لواء من دبابات الجيش الاول ، مستمرين في الضغط على « سيدى رزق » فرجعـــوا الى الاستيلاء على الموقع بعد يومين من القتال الوحشي القـاسي . وفي الوقت نفسه بدأت حامية طبرق محاولاتها لكسر الحصار ، وفي ليلة الســـادس والعشرين استطاعت أن تتصل بالقوة المنجدة ، واقتحمت بعض الوحدات طبرق المطوقة . ودفع هذا الموقف الى رجوع رومل من البردية ، فسـلك سبيله الى « سيدى رزق » على الرغم من ان فرقتنا الســـابقة المدرعة التي أعادت ترتيب نفسها الان شنت هجوما على جناحه بمائة وعشرين دبابة .
ورجع رومل الى الاستيلاء على « سيدى رزق » وأجبر اللواء النيوزيلندى على التقهقر بعد أن حمله خسائر ثقيلة ، متراجعا الى الحدود في اتجاه جنوبي شرقي ، حيث أعادت الفرقة الشجاعة تنظيم نفسها بعد أن فقدت أكثر من

ثلاثة آلاف رجل • ورجعت قوة طبرق الى العزلة ، وان كانت قد احتفظت بشجاعة بكل مغانم حصلت عليها من الارض • وشغل الجنرال رتش الان فى اعادة جمع قواته ، فى حين قام روملى بهجوم اخير لينجد دوابه على احدود، ورد هذا الهجوم • وبدا تراجع جيش المحور العام الى خط الغزالة وفى الاول من ديسمبر ذهب أوكنلك نفسه الى مركز القيادة الامامي حيث امضى عشرة أيام مع الجنرال ريتشى ولم يتول أوكنلك زمام القيادة شخصيا ، ولكنه استمر يشرف على اعمال مساعدة • ولم يظهر لى أن هـذا العمـل سليم بالنسبة الى الرجلين ، ولكن قوة الجيش الثامن اصبحت متقدمة الان •وفى العاشر من ديسمبر كان فى استطاعة القائد العام أن يرسـل الينا قائلا : « يظهر ان العدو يتقهقر تقهقرا تاما تجاه الغرب •• وأوقن أن فى طاقتى الآن الادعاء برفع الحصار عن طبرق • نحن نستمر فى المطاردة بتعاون تام مع سلاح الجو الملكى » • ونعرف الان من سجلات الالمان أن ما خسره العدو فى المعركة وصل الى ثلاثة وثلاثين ألف رجـل ، وثلاثمائة دبابة ، أما ما خسرته الجيوش البريطانية والامبراطورية فى الوقت نفسه فلم تتعد نصف هذا العدد من الرجال ، ومائتين وثمان وسبعين دبابة • وقد حدث تسعة أعشار هذه الاضرار فى أول شهر من الهجوم على أية حال بلغنا الان فترة من الاستجمام طبعا بالنسبة لحرب الصحراء •

ولكن قوتنا البحرية فى شرق البحر المتوسط حطمتها تقريبا سلسله متتابعة من المحن فى هذا الظرف الحاسم • فقد أطل زمن قوتنا وتقدمنـا على النهاية ، اذ بلغت الغواصات الميدان • ففى الثـامن عشر من نوفمبر أصاب طوربيد من غواصة ألمانية حاملة طائراتنا « ارك رويال » وهى فى سبيل عودتها الى جبل طارق بعد أن نقلت كثيرا من الطائرات الى مالطة ، وعجزت كل المحاولات لانقاذها وغرقت البارجة التى قامت بدور كبير واصبح فى كثير من معاركنا البحرية ، على مدى خمسة وعشرين ميلا من جبـل طارق •

وأصيبت « برهام » بعد أسبوعين بثلاثة طوربيدات وغرقت فى أقل من ثلاث دقائق ، وعلى متنها ما يقرب من خمسمائة رجل • ولم يكن هذان الحادثان كل شىء • ففى ليلة الثامن عشر من ديسمبر دنت غواصة ايطالية من الاسكندرية وقذفت ثلاثة طوربيدات حية ، ويوجه كل منهما رجـلان ونفذت الطوربيدات من مدخل الميناء حينما كان الباب مفتوحا لمرور السفن، وقد وضع الرجال قنابل زمنية انفجرت صباح اليوم الثانى أسفل البارجتين « الملكة اليزابيث » و « فاليانت » وقد أصيبت البارجتان بأضرار فادحة • وغدتا غير صالحتين للعمل شهورا عدة • وقد استطعنا أن نخفى الضرر الذى أصاب أسطولنا وقتا طويلا ، ولكن القوة « ك » لحقتها أيضا ضربة قاصمة • ففى اليوم الذى حدثت فيه كارثة الاسكندرية ، جاءت الاخبـار الى مالطة بأن قافلة ــ مهمة للعدو فى سبيلها الان الى طرابلس • وفى الحال خرجت ثلاثة طرادات وأربع مدمرات لمطاردة القافلة وحينما دنت بوارجنا من طرابلس ، سقطت فريسة حقل ألغام وأصيب طرادان اسـتطاعا أن يبحرا بالرغم من ذلك ، أما الطراد الثالث فقد أخذته الالغام المغنطة وأغرقته ولم ينقذ من بحارته الذين يربون على السبعمائة الا رجل واحد وقع فى

أسر العدو بعد نجاته مع قبطانه أوكونور وثلاثة عشر رجلاآخرين على عوامة من الطراد ، ولكن العوامة غرقت فى ثلث الليل الاول بزملائه كلهم · ولم يبق من أسطول البحر المتوسط الشرقى غيرثلاثة طرادات من سربالاميرال فيان وبعض مدمرات ·

وفى الخامس من ديسمبر ، وبعد أن عرف هتلر أخيرا ما تصدى له روملى من خطر بالغ ، أصدر أمرا بنقل فيلق جوى تام من روسيا الى صقلية وشمالى افريقية · وبدا الجنرال كيسلرنج الذى تقلد القيــــادة الجوية، بتوجيه هجوم جوى جديد على جزيرة مالطه ، وبلغت هذه الغارات أقصاها ولم يكن فى طاقة الجزيرة أن تعمل شيئا غيرالدفاع بقوة فى سبيلحياتها· ولم يأت آخر العام حتى كان السلاح الجوى لالمانيا هو المسيطر على السبل البحرية الى طرابلس مما أتاح لروملى أن يعيد تكوين قواته وتنسيقها بعد ما منى به من هزيمة · ولم يحدث مطلقا فى تاريخ الحروب بوضوح أهمية تعاون الاسلحة البحرية والجوية والبرية كما اتضح فىحوادث هذهالشهور القليلة ·

ولكن هذه الاشياء كلها غدت الان ذاوية تحت ضغط الاحداث العالمية

ميناء الدر

(بـــيرل هاربـــور)

كنت أنا والسـفير وينانت وافريل هاريمان وحـــدنا في تشيكرز مساء الاحد السابع من ديسمبر عـــام ١٩٤١ ، وحولت مؤشر الراديو لننصت الى نشرة أنباء الساعة التاسعة التي بدأت قبل لحظات ، وكأن ثمة بعض الاخبار عن القتال في الجبهة الروسية ، وفي الجبهة الليبية ، ثـــم تبع ذلك بعض الانباء عن هجوم ياباني على السفن الامريكيـــة في جزر هاواي وعلى البواخر البريطانية في جزر الهند الشرقية الهولندية ·وتبع ذلك أذيع أن المستر « فلان » سيذيع تعليقا بعد الانباء ، ثم يتبع ذلـك برنامج « وحدة الالباب » أو ما ضاهى ذلك · ولم يخطر ببالي شخصيا أي شيء ، بيد أن أفريل هاريمان ذكر أن ثمة شيئا عن هجـــوم ياباني على الامريكيين ، وبالرغم مما كنا نشعر به كلنا من جهد ، تجددت كل مشاعرنا · وكان سويزر الساقي : قد سمع بما حدث فحضر الى الحجرة يقول « هذا صحيح لقد سمعنا أنفسنا ما وقع في الخارج ، فقـد أغار اليابانيون على الامريكيين » وعم جونا الوجوم ، وكنت قد أذعت في حفلة غداء رسمية أقيمت في الحادي عشر من نوفمبر أن بريطانيـــا ســتعلن الحرب على اليابان بعد ساعة واحدة اذا هاجمت أمريكا · وغادرت مقعدي على المائدة ، واجتزت القاعة الى المكتب الذي يعج بالعمل ، وطلبت تسجيل محادثة تليفونية لي مع الرئيس · وأدركني السفير في الخارج · وقد توهم أنني أنوي القيام بخطوة يعسر اصلاحها ، فقال « ألا ترى من الاحسن أن نتيقن أولا ؟ » ·

وكان الرئيس روزفلت بعد دقيقتين أو ثلاث دقائق على الناحيـة الاخرى من الخط التليفوني فقلت : « يا سيدي الرئيس ، ما الذي يردد حول اليابان ؟ » قال : « انه صحيح · لقد أغاروا علينا في ميناء الدر· وها نحن أولاء معكم الآن على السفينة نفسها · وناولت وينانت السماعة، وجرى كلام قصير ، سمعت خلاله السفير يقول : « حسنا ··· حسنا » ثم ينطق في جد أكثر « آه » · ورجعت أتكلم الى الرئيس فقلت : « ان هذا التطور ييسر الاشياء · والله معك » ورجعنا الى القاعة ، والتمسـنا تهيئة أفكارنا للحدث العالمي الضخم الذي حدث ، والذي كان مفاجئـا بطبعه ، بحيث جعل أولئك المسئولين يلهثون من الحيرة·وتحمل صاحباي الامريكيان الصدمة تحملا يثير الاعجاب ، ولم تكن عندنا فكرة اطلاقا عن أن الاســـطول الامريكي قد أصيب بأضرار بالغة : ولم ينتحبا أو يندبا بسبب دخول بلادهما الحرب · ولم يبديا كلمة واحدة في الافصاح عن الألم والعتاب · بل في امكان الانسان أن يقول أن هذا التطور خلصهما

من عذاب الم طويل . ولم ينعقد البرلمان قبل يوم الثلاثاء ، وكان الاعضاء موزعين في نواحي الجزر البريطانيـــة ، ومن العسير جمع شملهم لتعسر طرق الاتصـــال بهم . وطلبت من مكتبي أن يتصل حالا برئيس المجلس ومراقبيه للعمل على دعوة البرلمان بمجلسيه الى الانعقاد في اليوم التالي. وأبرقت الى وزارة الخارجية أطالبها بأن تجهز حالا دون أي تخلف اعلانا بالحرب على اليابان ، مع مراعاة كل الخطوات الرسمية الضرورية ، وان يكون كل شيء معدا في وقت انعقاد البرلمان ، وطلبت أيضا دعوة كـل أعضاء وزارة الحرب لاخبارهم ، وكذلك رؤساء أركان الحـــرب ووزراء القوات المسلحة الذين كنت أتوقع وصول الاخبار اليهم .

وربما لا يتضرر أي أمريكي اذا قلت : ان وقوف أمريكا الى جانبنـــا في الحرب كان مبعثا لاعظم سرور لي . ولم يكن في طاقتي أن آتكهن بما تجري به الاحـــداث ولا أقول أنني كنت قد قدرت بصـــورة دقيقة قوة اليابان الحربية ، ولكنني علمت في هذا الوقت أن أمريكا قد غدت غارقة في الحرب حتى رأسها ، وستواصلها حتى النهاية . وهكذا فقد كسبنا في النهاية . نعم لقد كسبنا بعد دنكرك ، وبعد أن سقطت فرنسا ، وبعد حكاية وهران المرعبة ، وبعد خطر الغزو ، حينما كنا شعبا غير مسلح ، اذا استثنينا الاسطول والطيران ، وبعد نضـــالنا الدامي ضـــد حرب الغواصات ، وبعد أن انتصرنا بمشقة في الجولة الاولى من معركة الاطلنطي وبعد سبعة عشر شهرا من القتال وحدنا ، وتسعة عشر شهرا من تقلد المسئولية في أحلك الظروف . نعم لقد كسبنا الحرب ، فستحيا انجلترا وتحيا بريطانيا ؛ وتحيا جامعة الشعوب البريطانيـــة ، والامبراطورية . أما الى متى ستستمر الحرب ، وعلى أية صورة ستنتهي فلم يكن في طاقة انسان أن يعلمه ، ولم يهمني أن أعلمه في هذا الوقت فستـــخرج مرة أخرى في تاريخ جزيرتنـــا المديد ، وبالرغم مما يلاحقنا من ضربات وما يصيبنا من مشقة ، فائزين سالمين . وهكذا لن نفنى ولن ينقرض تاريخنا ولن ننتهي كأفراد أيضـــا . لقد تقررت نهاية هتلر ، وتقررت نهـــاية موسوليني . أما اليابانيون فسيعركون عركا كالطحين ؛ ومـــا بقي لا يتجـــاوز كونه مجرد تطبيق سليم للقوة العاتية المتفوقة . فالامبراطورية البريطانية ، وروسيا ، وأمريكا في النهاية ، كلها تتماسك الان بكل ما عندها من حياة وقوة ؛ أراها على هدى معلوماتي ، تصل في قوتهـــا الى ضعفين أو ثلاثة أضعاف ما عند أعدائها . ولا ريب ثمة في أن القتـــال سيستمر . وترقبت تدهورا أو أضرارا خطيرة في الشرق ، ولـــكن هذا التدهور لن يكون غير مجرد فترة تمر . وفي طاقتنا بوســـاطة اتحادنا أن نخضع كل قوة معادية في العالم . وقد تحدث خطوب ، وقد ندفع أثمانا غالية ، ونجتاز محنا عنيفه ولكن لا مرية في النهاية ولا شقاق .

وقد التمس بعض السخفاء ، وهم كثرة ؛ لا ينحصر وجـــودهم في بلاد العدو ، بخس وزن القوة الامريكية فقال بعضهم : ان الامريكيـــين مترفون . وقال البعض الآخر : انهم لن يأتلفوا مطلقا ، وانهم سيمشون كالرعناء من بعيد ، ولن يجازفوا بأنفسهم في المعركة ؛ فهم لا يطيقون تحمل اراقة الدماء ، وستوقف ديمقراطيتهم ونظم انتخاباتهم المتـــكررة

جهدهم الحربى ، وسيكونون أدنى الى وصمة خفية فى نواحى الاصدقاء والاعداء على حد سواء • وسنشاهد اذن ومن هؤلاء الناس الوافرى العدد ، الكثيرى الغنى والثرثرة • ولكنى كنت قد درست الحرب الاهلية الامريكية وعلمت انها قد سارت الى عاقبتها المحتومة • وسرى الدم الامريكى فى شراييني ، ورجعت الى مخيلتى ملاحظة كان ادوارد جراى ، قد قالها قبل ثلاثين عاما تقريبا وهى أن امريكا أكثر شبها بمرجل ضخم ، واذا أوقدت النار تحته فليس هناك ما يخفف من القوة التى يولدها • وذهبت الى فراشى فى تلك الليلة وقد امتلأت وأثقلت بالمشاعر والعواطف ، فرقدت رقاد الانسان الذى يحس بالرضا والخلاص • وحينما تنبهت من رقادى ، قررت السفر للقاء روزفلت • وبسطت الموضوع على وزراء الحرب حينما اجتمعنا ظهر ذلك اليوم ، فوافق كل الرفاق ، وبعد ذلك كتبت الى الملك فوافق جلالته كذلك •

وأعطتنى وزارة الحرب حق اعلان الحرب على اليابان فورا ، وقد نفذت كل الاعمال المطلوبة • وحينما شرع ايدن فى رحلة الى موسكو وكنت مسئولا عن وزارة الخارجية ، أرسلت الى السفير اليابانى الرسالة التالية :

وزارة الخارجية : ٨ من ديسمبر

« سيدى

فى الليلة السابعة من شهر ديسمبر عرفت الحكومة البريطانية أن القوات اليابانية دون أى انذار سابق فى صورة اعلان بالحرب أو تحذير أخير باعلان الحرب التمست الهبوط الى شاطىء الملايو ، وضربت سنغافورة وهنج كونج •

ونظرا لما حدث من عدوان قائم على الاستخفاف ، والتحدى المباشر للقانون الدولى ، وخاصة للمادة الاولى من ميثاق لاهاى الثالث المرتبط ببدء الاعمال الحربية وهو الميثاق الذى وقعته كل من اليابان وبريطانيا ، صدرت الاوامر الى السفير البريطانى فى طوكيو باخبار حكومة الامبراطورية اليابانية باسم حكومته فى بريطانيا أن حالة الحرب قد بدأت بين دولتينا •

لى الشرف ياسيدى مع وافر التقدير أن أكون خادمكم المطيع » •

ونستون تشرشل

ولم يرض هذا التعبير المجامل بعض الناس • ولكن ليس ثمة ما يحول دون أن تكون مهذبا مع من ترغب أن تقتله شخصيا •

وانعقد البرلمان فى الثالثه مساء ، وامتلأ بالرغم من قصر الوقت وبنص الدستور البريطانى على أن اعلان الحرب من حق الملك باستشارة وزرائه ، ويواجه البرلمان هذه الحقيقة على أنها أمر قائم ، وعلى هذا فقد كنا أكثر وفاء لوعدنا مع أمريكا ، اذ أعلنا الحرب فعلا على اليابان قبل

تقرير الكونجرس الامريكي اعلانها . وكانت الحكومة الملكية الهولندية قد جهزت اعلانها كذلك . واقترع المجسان على هذا القرار وأجمعا عليه ومر زمن ما قبل أن نسمع ما حدث فعلا في ميناء الدر تفصيلا ، ولكن الحكايه سجلت الان بصورة تامه ووافية . لقد كانت الخطة اليابانية الى أول عام ١٩٤١ تنبني على اشتباك الاسطول الياباني الرئيسي في موقعة هائلة في مياه الفلبين ، على حين يلتمس الامريكيون ، كما هو مترقب سلوك سبيلهم مجتازين الباسفيك ؛ لنجدة حاميتهم في هذا الموقع الامامي . ولكن فكرة الهجوم المباغت على ميناء الدر ، ثبتت في رأس الاميرال ياماماتو القائد الاعلى الياباني . وكملت التأهبات لهذه الضربة المخاتلة - قبل اعلان الحرب ، في سرية وتكتم بالغين وفي الثاني والعشرين من نوفمبر نزلت قوة خارقة مكونة من ست حاملات تؤيدها البوارج والطرادات ، في ميناء لم تتعود القدوم اليه في جزر كوريل ، شمالي اليابان مباشرة وعين يوم الاحد السابع من ديسمبر موعدا للهجوم وفي السادس والعشرين من نوفمبر أبحرت القوة الهائلة بقيادة الاميرال ناجومو . واتجهت القوة في سيرها الى الشمال من هاواي ، مجتازة السحاب والزوابع في هذه المناطق الشمالية ، الى أن دنت من غرضها دون أن يحس بها أحد ، وقبل بزوغ شمس اليوم الموقوت شن الهجوم من موقع يبعد مائتين وخمسة وسبعين ميلا عن شمال ميناء الدر . وأسهمت في الهجوم ثلاثمائة وستون طائرة تشمل قاذفات من شتى الانواع ؛ تحميها المقاتلات . وفي السابعه والدقيقة الخامسة والخمسين وقعت القنبلة الاولى . وكانت البوارج الثماني لاسطول الباسفيك الهدف الرئيسي للهجوم . وكانت ثمة أربع وتسعون بارجة من سفن الاسطول الامريكي في الميناء . ولحسن الحظ كانت حاملات الطائرات مع قوة كبيرة من المدرعات ، متخلفة عن الميناء في مهمات خاصة . وانقضت المعركة في العاشرة صباحا ؛ وتراجع العدو تاركا خلفه أسطولا مدمرا تلتهمه الحرائق والدخان وروح الثأر التي سادت أمريكا . وقد انفجرت البارجة أريزونا ، ودمرت البارجة أوكلاهوما ، وغرقت البارجتان ويست فرجينيا وكاليفورنيا ؛ وأصيبت كل البوارج الاخرى بأضرار ما عدا بنسلفانيا . وقتل ما يقرب من ألفي أمريكي ، وجرح ما يقرب من ألفين آخرين . وانتقلت السيطرة على المحيط الهادى الى أيدى اليابانيين ، وتحول الميزان الاستراتيجي العالمي في الوقت الحالي تحولا كاملا .

وكان مما قضى به على أصدقائنا الامريكيين أن يتحملوا سلسلة أخرى من النوازل في الفلبين ، حيث يتقلد القيادة الجنرال ماك آرثر . وفي العشرين من نوفمبر استقبلنا انذارا يومىء الى تطور خطير في العلاقات الدبلوماسية وشرع الامير هارت قائد الاسطول الامريكي المتواضع في آسيا ، مباحثاته مع السلطات البحرية البريطانية والهولندية القريبة ، وبدأ تحقيقا لخطته الحربية ، يوزع قواته ناحية الجنوب حيث نوى أن يجمع قوة هائلة في المياه الهولندية بالاسهام مع أصدقائه المرتقبين ولم يكن تحت امرته سوى طراد ثقيل واحد ، وطرادين خفيفين الى جانب اثنتي عشرة مدمرة وعدد من السفن المساعدة . وقد تجمعت قوته في

غواصاته التي كان لديه منها ثمان وعشرون . وفي الساعة الثالثة من صباح الثامن من ديسمبر تلقف الاميرال رسالة تتضمن أخبارا مدهشة عن حدوث هجوم على ميناء الدر وبادر فورا دون أن يترقب تأكيد واشنطن للخبر بتحذير كل من يهمهم الامر ببدء العمليات الحربية ، وعند الفجر قامت طائرات الانقضاض اليابانية بتسديد ضربتها ،واستمرت الغارات الجوية طوال الايام اللاحقة على مدى يزداد باستمرار . وفي العاشر من ديسمبر التهمت الحرائق القاعدة البحرية في كافيتي التهاما كاملا وفي صباح اليوم نفسه قام اليابانيون بانزال أول قوة في شمالي جزيرةلوزوان وتوالى انزال القوات بسرعة مذهلة . ودمرت أكثر طائرات أمريكا في المعارك أو على الارض . ورحل ما بقي منها في العشرين من ديسمبر الى بورت داروين في استراليا . وكانت سفن الاميرال هارت قد شرعت تتوزع جنوبا قبل عدة أيام ، ولم يبق غير الغواصات لتنازع العدو السيادة على البحر . وفي الحادي والعشرين من ديسمبر نزلت قوة الغزو اليابانية الرئيسية في خليج لينجابن لتهديد مانيلا نفسها ، وبدأت الاحداث منذ هذا التاريخ تتتابع على نحو ما يجري في الملايو ، ولكن الدفاع بدأ يمتد، وهكذا تفجرت خطط اليابان المرسومة منذ وقت بعيد في شعلة من الانتصارات .

وبهت هتلر وأركان حربه ، وحكى يودل في محاكمة كيف حضر هتلر الى حجرة خرائطي في بروسيا الشرقية عند منتصف الليل ليحمل هذه الاخبار الى والى الماريشال كاتيل . وكان مذهولا منها فعلا . ولكنه على أي حال أصدر أوامره صباح الثامن من ديسمبر الى الاسطول الالماني بمهاجمة السفن الامريكية أينما كانت . وسبق هذا بثلاث أيام اعلان المانيا الحرب على أمريكا بصورة رسمية .

ودعوت الى اجتماع في الساعة العاشرة من ليلة التاسع من ديسمبر في حجرة الحرب الوزاريه ، لاستعراض الموقف البحري ، وكان أغلب الحاضرين من رجال الامبرالية . كنا اثنى عشر شخصا تقريبا . والتمسنا تقويم ما نتج عن هذا التغير الاساسي في موقفنا الحربي ضد اليابان فقد فقدنا السيادة على كل بحر ما عدا الاطلنطي . وأصبحت استراليا ونيوزيلنده وكل الجزر الهامة الاخرى في منطقتها متصدية للهجوم . ولم يبق لدينا غير سلاح واحد مهم . فقد بلغت البارجة « الامبر ويلز » والبارجة « ريبالس » سنغافورة وقد أرسلنا هاتين البارجتين الى هذه المياه لتباشر بوساطتهما ذلك التهديد الخفي ، الذي يصاحب البوارج الكبرى ذات القدرة الحربية العالية حينما تعلن تحركاتها . ولكن كيف نستطيع أن نستخدمها الان ؟ لا شك في أنه يلزمهما الذهاب الى البحر والاختفاء بين الجزر التي لا تعد ولا تحد . واتفق على هذا بالاجماع وتراءى لي أن أحسن طريق لهما هو اجتيازهما المحيط الهادي وانضمامهما الى ما بقي من الاسطول الامريكي . ولا شك في أن حركة كهذه ستكون ذات دلالة كريمة في مثل هذا الوقت ، وتدعم الروابط بين دولتي العالم الناطقتين بالانجليزية وكنا قد قبلنا عن طيب خاطر ، طلب وزارة البحرية الامريكية عودة بوارجها الكبرى من الاطلنطي .

وهكذا يستطاع في خلال أشهر قليلة خلق أسطول على ساحل أمريكا الغربي يمكنه أن يخوض معركة حامية حاسمة اذا دعت الضرورة. وسيكون وجود مثل هذا الاسطول ، ومثل هذه الحقيقة أفضل درع مستطاع بحفظ أصدقاءنا في استراليا . وقد استهوتنا كلنا هذه الفكرة ولكننا قررنا ارجاء البت تلك الليلة وفي الصباح تقرر ما سنعمله بالامير ويلز وريبالس .

ولم تمر ساعتان حتى أصبحت البارجتان في قاع البحر . وفي الصباح العاشر كنت أفتح عيني حينما رن جرس التليفون على كتب من سريري وكان المتكلم لورد البحر الاول ، وظهر صوته غريبا لي ، وتنحنح أولا ولم أتمكن في بادىء الامر أن أسمع قوله جليا . قال : « يا رئيس الوزراء يحزنني أن أحمل اليك اغراق اليابانيين الامير ويلز وريبالس ، بوساطة الطائرات كما نعتقد . لقد غرق توم فيليب . فقلت صائحا « هل أنت متيقن مما تقول ؟ » فأجاب « نعم يا سيدي ، تمام اليقين » . ووضعت سماعة التليفون ، وشكرت الله على انني كنت وحدي . فلم أتلق قبل طوال الحرب كلها خبرا صاعقا مثل هذا الخبر . ولا مرية في أن القارىء رأى ما علقناه على هاتين البارجتين من أمان وخطط وجهد . وحينما تقلبت في فراشي على الجانب الآخر هيمن على فكري ما تحتويه هذه الكارثة الجديدة من مخاوف ، فليس ثمة في المحيطين الهندي أو الهادي أية بوارج بريطانية أو أمريكية كبيرة غير تلك التي نجت من ميناء الدر ، والتي بدأت تبادر بالهرب الآن الى كاليفورنيا وغدت اليابان المهيمنة على هذه الارجاء الشاسعة من البحار ، وغدونا نحن أذلة وعراة في كل مكان .

وعند انعقاد مجلس العموم في الحادية عشرة من ذلك الصباح ، نزلت اليه لاحمل الى الاعضاء شخصيا أنباء ما وقع ، وفي اليوم اللاحق قدمت اليهم توضيحا وافيا عن الموقف الجديد . وسيطر على احساس شامل من الحيرة ، كما عمنا احساس من الغضب على هذه المعركة الطويلة الجارية في ليبيا ، والتي كانت نهايتها في يد القدر . ولم أحجب عن الاعضاء امكان تعرضنا لالوان متعددة من النكبات على أيدي اليابانيين . وفي الوقت نفسه كشفت انتصارات روسيا الحجاب عن زلة هتلر المميتة في حملته الشرقية والشتاء على الابواب . وفي ذلك الحين سيطرنا على حرب الغواصات ، ونزلت نسبة اضرارنا الى حد كبير . وفي النهاية يحارب معنا الان أربعة أخماس العالم فالفوز الاخير مكفول . وهذه هي خلاصة ما ذكرته ذلك اليوم . وقد استعملت أبعد ما في فن القصص الواقعي من برود متفاديا الوعد بالنصر القريب . وساد المجلس الوجوم ، وظهر لي أنه يرجىء قراره انتظارا للاحداث ، وكان هذا كل ما رغبت فيه وكل ما ارتقبته .

رحلة فى معمعة الحرب العالمية

اقتضت عوامل خطيرة جمة أن أكون فى لندن فى هـذا الوقت الذى حدث فيه الكثير . ولم يكن عندى أقل ريب فى سيادة التفاهم بين بريطانيا وأمريكا ، لكن كان على أن أمضى الى واشنطن على الفور مع أقوى نخبة يستطاع تكوينها من المستشارين الخبراء . وكان الرأى الغالب أن سفرنا بالجو فى هـذا الفصل من العام بالغ الخطورة . ولهذا رحلنا الى الكلايد فى الثانى عشر ، ولم يكن « الامير ويلز » هناك . وكان « الملك جورج الخامس » يرقب البارجة الالمانية تيربيتز . وكانت طاقة البارجة الحديثة « الدوق أوف يورك » أن تقلنا ، وان تنتهز فرصة رحلتها لتتمرن تمرينا وافيا فى الوقت نفسه . وكانت النخبة التى صحبتنى تتكون من اللورد بيفربروك ممثلا لوزارة الحربية والاميرال باوند ، لورد الاميرالية الاول ، وماريشال الجو بورتال رئيس أركان حرب الطيران ، والفيلد مارشال ديل الذى أعقبه الان الجنرال بروك فى رياسة أركان حـرب الامبراطورية . وكنت أود أن يبقى بروك فى لندن ليحل المشكلات المفزعة التى تنتظره وطلبت بدلا منه ديل الذى يعيش فى صميم مشكلاتنا وهو محل ثقة الكل وتقديرهم ، وقد اتسع له فى واشنطن أفق جديد .

وصاحبنى كذلك اللورد موران الذى غدا مستشارى الطبى الدائم سنة ١٩٤١ وكانت هذه أول رحلة يصاحبنى فيها ، ولكنه منذ ذلك أصبح يرافقنى فى كل رحلاتى ، ولا مرية فى اننى أدين بحياتى لاهتمامه الطبى الزائد . وبالرغم من أننى كنت لا أنجح فى اقناعه بالاصغاء الى نصائحى حين يمرض ، وبالرغم من أنه لم يكن يعتمد أبدا على طاعتى المطلقة لكل توجيهاته ، غدونا صاحبين حميمين . على أى حال لقد انتصرنا على كل الاسقام والامراض .

وكنا نود أن نقطع المسافة فى سبعة أيام بسرعة عشرين عقدة فى الساعة ، بعد أن وضعنا فى حسابنا أن نسير فى خطوط غير مستقيمة لنفادى الغواصات . وقد طلبت منا الاميرالية أن نتوجه من المضيق الايرلندى الى خليج بسكاى . وكان الجو سيئا كل السوء ، فقد كان البحر ثائرا ، والزوابع عنيفة ، وامتلأت السماء بسحب كثيفة . وكان علينا أن نقطع خط غدو الغواصات ورواحها الممتد بين موانى فرنسا الغربية وأماكن الصيد فى الاطلنطى . وكان تعدادها كبيرا لدرجة أرغمت الاميرالية على أن تأمر قبطاننا بأن يستمر فى السير مع مدمرات الحراسة ولا يدعها تسير خلفه . ولكن المدمرات لا يمكنها أن تقطع فى البحار الهائجة أكثر من ست عقد فى الساعة .

وهكذا قطعنا الدورة حول ساحل جنوب ايرلندة فى أكثر من ثمان

وأربعين ساعة ، وسرنا على مدى أربعمائة ميل مـــن بريست وما برح خاطرى فى هذه الفترة التفكير الملح فى كيف اســـتطاعت الطائرات التى تحمل الطوربيد والتى تعمل فى القواعد الساحلية أن تحطم «الامبرويلز» و « ويبالس » قبل أسبوع ؟ وقد حالت السحب بين طائرات الحراســـة وبين مصاحبتنا فيما عدا طائرة واحدة ، وحينما ذهبت الى الجسر شاهدت الكثير من زرقة السماء التى لا تحتفى بها • لكن لم يحدث شىء عـــلى أى حال ، وسار كل شىء على ما يرام • واســـتمرت السفينة الكبيرة ، مع مدمراتها الحارسة تشق أمواج المحيط ، وأوشك صبرنا أن ينفذ من بطء السير • ودنونا فى الليلة اللاحقة من نهر الغواصات • وقال الامير باوند الذى أصدر القرار بنفسه : ان تحطيم غواصة معادية خـــير لنا من أن تنسفنا هى بطوربيداتها كانت الليلة حالكة للغاية • وهكذا نجونا بمدمراتنا وعبرنا الطريق وحدنا بسرعة فائقة فى ذلك الجو السىء • وشكا اللورد بيفربول من أنه كان يفضل سفرنا نحن فى غواصة •

وكان فى استطاعة موظفى « رموزنا » أن يستـقبلوا بوســـاطة اللاسلكى عددا من الرسائل • وكان فى طاقتنا أن نجيب عن بعضهـا الى حد معين • وحينما انحازت الينا وحدات حراســـة أخـرى من جزر الازورو ، كان يمكنها أن تستقبل منا رسالات بالرموز باشارات مورس الواضحة ثم تتخلف عنا مائة ميل أو ما يقرب من ذلك ، ونرجـــع فننشر رسائلنا من غير أن تكشف مركزنا ، ومع ذلك فقد كنا فى معمعة الحرب ، وكان هناك كثير من مغرمى اللاسلكى •

كانت الحرب دائرة فى كل الجهات • فاليابان هاجمت هونج كونج فى الوقت الذى هاجمت فيه ميناء الدر • ولم يـــكن عندى ريب فى عاقبتها تحت ضغط القوات اليابانية الضخمة • وقبل اثنى عشر شـهرا عارضت فى تقوية حاميتها ، لان فقدها شىء مؤكد ، وكنت أرى انقاص الحامية الى عدد رمزى ، ولكنى أذنت للآخرين بالانتصار على فى هـــذا الرأى ، وفى سرعة أرسلنا معونات الى الجزيرة • هاهى ذى الحامية تواجه الآن قوات تفوقها وقد صمدت أسبوعا كاملا ، واشـترك فى أعمـــال المقاومة اليائسة كل من يقدر على حمل السلاح • وقد فاق تحمل المدنيين البريطانيين بأس الحامية العسكرية • ولكن القوة نفذ صبرها يوم عيد الميلاد ، وغدا الاستسلام أمرا لا مناص منه • وفى سرعة أشرفت علينا قوة أخرى من المظليين فى الملايو ، اذ صحبت هبوط اليابانيين على شـــبه الجزيرة غارات محطمة على مطاراتنـــا ، عطلت قوتنا الجوية الضعيفة ، وجعلت المطارات الشمالية لا تصلح مطلقا لاستخدامها ولم يدن آخـــر الشهر حتى كانت قواتنا التى اقتحمت بعض معارك وحشية قـد غدت الان على مدى مائة وخمسين ميلا من المراكز الاساسية التى كانت فيهـا حين بدأت الهجوم • وقد أنزل اليابانيون ثلاث فرق كاملة عـلى الاقل ضمنها فرقة الحرس الامبراطورى •

وفاقت فاعلية طائرات العـــدو التى انتشرت بسرعة فوق كـل

المطارات التي تم احتلالها · كل ما كان مرتقبا ، وقد أرغمنا على الدفاع. وكانت أضرارنا بالغة ·

وكان كل عضو من أعضاء فريقنا يواصل العمل ، في حين تستمر البارجة « الدوق أوف يورك » في السير غربا ، وتجمعت كل أفكارنا حول المشكلات الواسعة الجديدة التي فرض علينا مواجهتها وحلها · وبدأنا نرقب في شوق ممزوج بشيء من الحيرة أول اتصال يتم بيننا كحلفاء وبين الرئيس ومستشاريه السياسيين والعسكريين وكنا قبل أن نغادر بلادنا نعلم أن هجوم ميناء « الدر » الخاتل ، قد أثار الشعب الامريكي من أعماقه · وبدا لنا من التقارير الرسمية ومن موجز الصحف الامريكية ، ان غضب الشعب الامريكي كله سينصب على اليابان · وكنا نخشى ألا تعرف النسبة الصحيحة للحرب على حقيقتها ، وكنا نشعر بخطر قائم من مواصلة أمريكا الحرب ضد اليابان في المحيط الهادي ، وتركنا نحارب ألمانيا وايطاليا في أوروبا وافريقية والشرق الاوسط ·

وانقلبت معركة الاطلنطي الاولى بصورة واضحة الى مصلحتنا · ولم يعد في امكاننا الاحتفاظ بسبلنا البحرية مفتوحة · وكنا على يقين من قهر هتلر اذا أراد غزونا في جزيرتنا · وحفزتنا قوة المناضلة الروسية وكان تيمننا بالغا وفي مكانه من الحملة الليبية ، لكن كل خططنا القادمة متعلقة باستمرار وصول سيل الامدادات الامريكية المختلفة الانواع الينا، مثل تلك التي تشق الان أمواج الاطلنطي · وكنا أولا وقبل كل شيء نستند الى الطيارات والدبابات والى ما تشتيده لنا أحواض السفن الامريكية من سفن تجارية · وكان الرئيس حتى الآن باعتباره شخصا غير محارب مستعدا لتحويل كميات كبيرة من عتاد القوات الامريكية المسلحة الينا ، لان جيوشه لم تكن مشتبكة في الحرب · ولكن هذه العملية ستتقيد الان بعد أن غدت أمريكا في حالة حرب مع ألمانيا وايطاليا ثم مع اليابان · وستمنح الاولوية الان طبقا لما تفتقر اليه بلاده وقد ضحينا بعد الهجوم على روسيا بالعديد من الزاد والعتاد الذى أخذت مصانعنا تنتجه لمعاونة القوات الروسية في نضالها ·

وقد حولت أمريكا الى روسيا أكبر مقادير من الامدادات التي كانت تنوى ارسالها الينا · وقد قبلنا كل هذا لما أظهره الروس من مقاومة فائقة للغزاة الالمان ·

ولكن كان من الصعب علينا تأخير امداد جيوشنا بما تحتاج اليه من عتاد ، وخاصة منع ما يفتقر اليه جيشنا الذى يقتحم معارك وحشية في ليبيا ، من أسلحته الضرورية · وعلينا أن نتوقع أن مبدأ « أمريكا أولا » سيسيطر على حليفتنا ، ونخاف أن يمضى زمن قبل أن تبدأ القوات الامريكية العمل على مجال فسيح · وان نتصدى نحن في هذا الوقت العسير من التأهب للمحنة والشدة · وسيحدث هذا في فترة يلزمنا فيها أن نواجه عدوا جديدا شنيعا في الملايو والمحيط الهندى وبورما والهند · ومن الجلي أن توزيع المعونات يحتاج الى اهتمام بالغ ، وخاصة

انه سيقابل الكثير من الصعاب والنواحي الدقيقة · وقد تلقينا تنبيهـا يقول ان برامج المعدات الممنوحة بمقتضى الاعارة والتأجير ستقف الى أن يكمل اصلاحها ومن حسن طالعنا ان انتاج الذخائر والطائرات فى مصانعنا قد كثر وبلغ درجة رفيعة وسيصبح فى القريب بالغ الضخامة ولكن فى اللحظة التى كانت بارجتنا فيها تشق أمواج المحيط بين الزوابع المتتابعة ، كنا نشاهد أمام أبصارنا سلسلة طويلة من المحن والشدائد ، ومنع بعض ما نفتقر اليه حتما مما يؤثر على انتاجنا كله · وكان بيفر بروك متفائلا كسجين فى فترات المحن · فأعلن أن موارد امريكا لم تصب حتى الآن . — وانها ضخمة ولا تعد ولا تحد ، وأن قوة الشعب الامريكى حينما تحول الى النضال ستحقق نتائج أكثر مما يتخيله أى انسان · وهو يوقن أن الامريكيين لم يعرفوا حتى الآن ماهية قوتهم فى مجال الانتاج · وسيفوق الجهد الامريكى كل الارقام الحالية ويسبقها ، ويكفى الجميع . ولا مرية فى أنه كان مسددا فى حكمه وتقديره .

ولكن كل هذه الاعتبارات صغرت أمام المشكلة الاستراتيجية الرئيسية فهل فى طاقتنا أن نقنع الرئيس روزفلت ورؤساء أركان القوات المسلحة بأن قهر اليابان لا يؤدى الى قهر هتلر ، وانما قهر هتلر يؤدى الى قهر اليابان ، وجعل الخلاص منهما امرا يقرر فى خلال زمن قليل ؟

وقد امضينا ساعات طوالا ونحن نبحث هذه المشكلة الخطيرة ، وجهز رئيسا الاركان والجنرال ديل وهوليس وضباطه عددا من المذكرات التى تتصل بالموضوع كله ، وجزموا بأن الحرب فى نظرهم كل لا يتجزأ ، وسيظهر لنا فى القريب أن كل مخاوفنا ومشقاتنا لا يوجد ما يدعو لها .

وتمكنت بما أوجبته على رحلة الايام الثمانية من تخفيف أثقال الاعمال العادية حيث لا نقيم اجتماعات وزارية ولا نستقبل أشخاصا من استعراض الحرب بصورة وافية كما اشاهدها وأشعر بها على هدى امتدادها المباغت . وتذكرت كلام نابليون عن استطاعته أن يركز التفكير على المسائل وقتا طويلا من غير احساس بنصيب أو شعور باجهاد . وأردت أن افعل هذا المتبع عن طريق بسط أفكارى كتابة بطريقة املائها . ولارادتى تهيئة نفسى للقاء الرئيس ، وللتباحث مع الامريكيين ، وللتيقن من وجود رئيسى الاركان باوند وبورتال معى الى جانب الجنرال ديل ، ومن امكان التيقن من الحقائق فى الظرف المناسب بوساطة الجنرال هوليس وموظفى السكرتارية جهزت ثلاث مذكرات عن سير الحرب مستقبلا ، كما أرى . وقد استغرق العمل فى كل مذكرة أربع ساعات أو خمسا ، طوال ثلاثة أيام على التوالى . ولما كانت الصورة كلها حاضرة فى بالى . فقد كمل تجهيز هذه المذكرات بكل يسر وان كان بطيئا . وحين اتمامى كل وثيقة بعد مراجعتها فى دقة كنت أرسلها الى رفاقى الفنيين كافصاح عن آرائى الخاصة · وكانوا هم الآخرون يجهزون مذكرات من ناحيتهم لمؤتمرات الاركان المشتركة .

وفرحت كثيرا لاتفاق الآراء بين المذكرات التي جهزتها وبين مذكرات القادة العسكريين ، على الرغم من أن آرائي تناولت النواحي العامة وتناولت آراؤهم النواحي الفنية البحتة . ولم تحدث أية خلافات تدعو الى اثارة مناقشات . ولم تحتج الا الى بعض الحقائق تصويبا لها . وهكذا على الرغم من أن أحدا منا لم يرتبط بصورة جامدة او دقيقة ، فقد وصلنا جميعا نحمل بعض العقائد ذات الصفة الانشائية ، وكنا متفقين جميعا بشأنها . وقد تضمنت المذكرة الاولى الدوافع التي تدفعنا الى أن نجعل غرض حملاتنا في سنة ١٩٤٢ في المسرح الاوربي الاستيلاء على كل سواحل افريقية في الشرق الادنى من داكار الى حدود تركيا بجيوش بريطانية وامريكية . وتناولت المذكرة الثانية ما يجب اتخاذه من اجراءات لارجاء الهيمنة على المحيط الهادى ، وحددت مايو سنة ١٩٤٢ كشهر يستطاع فيه تحقيق هذا الهدف . وأطنبت في الكلام بصورة خاصة عن وجوب مضاعفة عدد حاملات الطائرات ، والمبادرة بانتاجها بمجموعات وافية . وحددت المذكرة الثالثة كفرض أخير تحرير أوربا بانزال قوات بريطانية وأمريكية كبيرة في أي مكان يرى انه أفضل مكان لمثل هذا الانزال في المناطق التي تستولى عليها ألمانيا — وحددت سنة ١٩٤٣ كميقات لتسديد هذه الضربة الرابعة .

وقد حكيت قصص متعددة في أسفار ومقالات عن بغضي العميق لعمليات فسيحة المجال في القارة . حتى بات من الضروري أن أذكر الحقيقة واقويها . فقد كنت ارى باستمرار ان الهجوم المركز على البلاد التي تستولى عليها ألمانيا في أوربا وعلى مجال واسع هو الطريق الوحيد لكسب الحرب وكنت أرى اختيار صيف سنة ١٩٤٣ موعدا للقيام بهذا الهجوم . وكنت منذ آخر سنة ١٩٤١ أحسب أن هذه العملية المنتظرة تفتقر الى أربعين فرقة مدرعة ، والى ما يقرب من مليون جندى من الجيوش الاخرى ، وذلك في المرحلة الاولى وحينما ارى عدد الكتب التي صدرت والتي يتحتم بصورة خاطئة أنني لم اعضد غزو القارة ، ارى أن أوجه نظر القارىء الى هذه الوثائق الصحيحة الرسمية . التي كتبتها في هذا الظرف والتي سنرجع الى الحديث عنها فيما بعد .

وقد أعطيت الرئيس هذه المذكرات الثلاثة قبل عيد الميلاد وابنت له انها بالرغم من افصاحها عن أفكاري الشخصية ، لا تتجاوز مجال الاتصالات الرسمية التي دارت بين ضباط اركاننا . وكنت قد صغتها في صورة وثائق مقدمة الى لجنة رؤساء أركان الحرب البريطانيين . وقلت له كذلك . انني لم أرد اطلاعه عليها فقط ، بل رأيت أن من الضروري أن يعلم شيئا مما يتحرك في رأسي ، ومما أرغب في عمله ، ومما ستريد بريطانيا العظمى أن تفعله من جهتها . وقد قراها الرئيس بمجرد استلامه لها وسألني في اليوم التالي عن امكان حصوله على نسخ منها . وقبلت ذلك طبعا وأنا مغتبط كل الاغتباط .

وأحسست أن الرئيس كان يفكر في الاتجاه الذي كنت أفكر فيه فيما يتصل بشمال افريقية الفرنسي . وها نحن أولاء قد غدونا

الآن أصدقاء . ويلزم أن نعمل معا وفى مجال فسيح وأصبحت متيقنا أنى والرئيس سنجد مجالا واسعا للاتفاق ـ وأن الارض مهيأة تمام التهيؤ لذلك . وهكذا غدوت مستبشرا ونلت كما سيرى القارىء موافقة الرئيس النهائية على القيام بحملة أسميناها « عملية المشعل » فى افريقية الشمالية ، وقد قضى لها أن تكون أول هجوم برمائى رائع نقوم به معا .

وقد كان من المهم جدا رسم خطط للمستقبل فقد نتكهن بالنتائج من بعض النواحى الا أنه يصعب تحديد الظروف المعينة لمثل هذه الاحداث الكبيرة التى قد تتوقف أو تتخلف بسبب عمل العدو أو ضرباته المواجهة. ولقد نفذنا كل الاغراض التى وضعتها فى المذكرات الثلاث بوساطة القوات البريطانية والامريكية . فكان رجائى أن يستطيع الجنرال أوكنلك تطهير ليبيا قبل فبراير سنة ١٩٤٢ ولكن هذه الرجاء منى بالخيبة . فقد مر بسلسلة من التدهور المؤلم سأوضحها فيما بعد ـ وحفز هذا الفوز هتلر فقرر أن يقوم بمجهود واسع النطاق للاستيلاء على تونس وفى سرعة أرسل ما يقرب من مائة ألف جندى من جنوده الجدد مجتازين ايطاليا والبحر المتوسط . وهكذا فرض على الجيوش البريطانية والامريكية أن تقتحم فى افريقية الشمالية حملات أطول وأكبر مما تخيلت من قبل . وهكذا فرض على الخطة المرسومة تخلف لا يقل عن أربعة أشهر ، ولم تستطع جيوشنا الحليفة أن تحقق الهيمنة على كل سواحل افريقية الشمالية من تونس الى مصر ، حتى شهر مايو سنة ١٩٤٣ ولهذا لم يكن من المستطاع تنفيذ المشروع الأكبر لاجتياز قناة المانش . وتحرير فرنسا . وهو المشروع الذى كنت أعمل ملحقا لتنفيذه ، فى ذلك الصيف. وتقرر ارجاؤه تبعا لذلك سنة كاملة ، أى حتى صيف سنة ١٩٤٤ .

وقد أقنعنى ما وقفت عليه بعد الحرب من معلومات ، وتفكير طويل فيها بأننا كنا ميمونى الحظ جدا ، لما أدركنا من خيبة الرجاء فيما يختص بتوقيت خططنا . فقد نجانا أرجاء شامل تام فى وقت الغزو مما كنا سنتصدى له من مهالك مفزعة . ومن نازلة متوقعة ترج العالم كله باصدائها . ولو كان هتلر يتقن الامور لوفر على نفسه مامنى به من أضرار فى شمال افريقية ، ولقابلنا فى فرنسا سنة ١٩٤٣ بضعف ما قابلنا به من قوات فى سنة ١٩٤٤ ، وقبل أن تبلغ الجيوش الامريكية التى تم تجهيزها .

حديثا ما بلغته من نضج وتقدم ، وقبل أن يتم صنع تلك الاساطيل الكبيرة من سفن الانزال والموانى العائمة . وانا موقن الآن ان عملية « المشعل » لو انتهت كما رسمتلها أن تنتهى فى سنة ١٩٤٢ . أو حتى لو لم نردها مطلقا وأردنا اجتياز المانش فى سنة ١٩٤٣ لمنينا بفشل مميت من الطراز الاول كان فى استطاعته أن يخلف أثرا لا يقدر على نتيجة الحرب كلها .

وقد زاد فهمى لهذه الحقيقة طوال سنة ١٩٤٣ . وقبلت كأمر لا مفر منه أرجاء عملية « السيد الاكبر على الرغم من ادراكى كل الادراك لما كان يشعر به حلفاؤنا الروس من غضب وسخط وكان من المقرر أن نشق أمواج البوتوماك ونبلغ البيت الابيض ، ولكن صبرنا

فرغ بعد عشرة أيام فى البحر ، وكنا فى شوق بالغ الى انهاء رحلتنا ، ولهذا تأهبنا للطيران من « هامبتون رودز » ونزلنا بعد حلول الظلام فى الثـاني والعشرين من ديسمبر فى مطار واشـــنطن • كان الرئيس ـ ينتظرنا ثمة في سيارته • وأمسكت يده القوية أحركها في راحة وفرح • وبلغنا بسرعة البيت الابيض الذى غدا بيتنا فى كل جهة من الجهـــات طوال الاسابيع الثلاثة اللاحقة • وهنا احتفت بنا السيدة روزفلت التى لم تدع طريقة الا اتبعتها لتكفل لنا الراحة •

وعلى أن أقر هنا بأن لبى كان فى شـــغل فى هـــذا الحين بدوامة الاحداث وبالمهام الشخصية التى كلفت تأديتها ، حتى أن مخيلتى لم تحفظ بالرغم من تنبيهها غير ذكريات خافته عن تلك الايام • لقـــد كان المظهر الواضح من غير شك اتصالاتى بالرئيس • فقـد كان كل منا يرى الآخر بضع ساعات كل يوم ، وكان هارى هوبكنز ثالثنا فى تناول الغذاء ، ولم تتجاوز أحاديثنا حدود العمل ، وتوصلنا الى اتفاقات كثيرة على عدة نقاط صغيرة وكبيرة • وكانت فرصة العشاء مناســـبة اجتماعية ، ظريفة وان كانت محدودة بجمع قليـــــل من الناس • كان الرئيس يجهز كئوس الكوكتيل الاولى بنفسه وكنت أقوده بكرسيه من حجرة الاســـتقبال الى المصعد كبرهان على التقدير ، وأتخيل السير وولتر رالى وهـــو يبسط عباءته أمام الملكة اليزابيث ، وتولد فى نفسى حب قوى جارف كبير مـــع أعوام الرفقة الطويلة لهذا السياسى القوى ، الذى أملى رغبته على المسرح الامريكى أكثر من عشر سنوات ، والذى كان قلبه يلبى كثيرا من الدوافع التى كانت تستفزنى • ولمـــا كنا نحن الاثنين بحكم الطبيعة أو الحاجة مضطرين الى أن نقوم بأكثر أعمالنا ونحن فى الفراش فقد كان يجىء الى حجرتى لزيارتى حينما يحس بالميـــل الى ذلك ويحفزنى على زيارته فى حجرته • وكانت حجرة هوبكنز أمام حجرتى التى أرقد فيهـا وبجوارها حجرة الخرائط التى جهزت لى بسرعة • وقد اعتنى الرئيس كل العناية بهـــذه الحجرة التى أحكم الكتبة تجهيزها • وكان مجيئـه مفروضـــا ليدرس باهتمام الخرائط الكبـــيرة لكل ميادين الحرب التى أصـــبحت تكسو كل الحوائط فى سرعة ، والتى تظهر عليها كل تحركات الجيوش والاساطيل بجلاء ودقة ووضوح ، ولم يمر زمن طويل حتى كان الرئيس قد جهز لنفسه حجرة خرائط من النموذج الأول •

ومضت أيام كنا نعدها بالساعات • وفى سرعة فهمت أن على أن أخطب بعد عيد الميلاد مباشرة فى الكونجرس الامريكى ، وبعد أيام أخرى فى برلمان كندا فى أوتاوا • وتوجب مثل هذه المناسبات أعبـاء كثيرة على حياتى وطاقاتى ، الى جانب مساوراتنا اليومية ، والأعباء التى أقوم بها ، ولا أعلم كيف مررت بكل هذه الأشياء •

واكتفينا فى عيد ميلادنا بحفلات صغيرة ، فقد نصبت شجرة عيد الميـــلاد التقليـــدية فى حديقة البيت الابيض ، وألقيت أنا والرئيس فى الجماهير الغفيرة التى تجمعت فى الظلام خطبتين قصيرتين من الشرفة •

وسرت مع الرئيس الى الكنيسة يوم الميلاد ، وأحسست بالسكون

الروحي في الصـــلاة البسيطة • وتمتعت باشتراكي في انشاء الاهازيج العادية •

ألقيت خطابي في الكونجرس الامريكي بوافر الحماســـة القلبية • وكانت المناســـبة ضرورية فيما يتعلق بما اعتقدت انه التحالف الغالب للشعوب التي تتكلم الانجليزية • ولم يسبق لي قبل ذلك اليوم أن ألقيت خطابا في برلمان أجنبي • ولكن بالنسبة الى والى ادعائي سريان دم أمريكي في شراييني بوساطة الجد الخامس لوالدتي الذي كان ملازما في جيش جورج واشـــنطن ، أحسست بشيء من الحق في تحـــدثي الى ممثلي الجمهورية العظيمة حول فكرة قضيتنا المشتركة ولا مرية في انه كان من العجيب أن تمشي الامور في هذا الاتجاه ، وشعرت مرة أخرى بأنني قد أعذر في استخدامي خطة مقررة بالرغم من عدم كفايتي •

وأمضيت يوم عيد الميلاد كله في اعداد خطابي • وأمل الرئيس لي حظا سـعيدا حينما سرت في السادس والعشرين من ديسمبر في كنف رئيسي مجلسي الشيوخ والنواب من البيت الابيض الى دار الكابيتول • وظهر لي أن ثمة جمـــوعا كثـــيرة من الناس على حافتي الطريق ولكن احتياطات الامن في أمريكا التي تبز في دقتها ما عرفناه في بريطانيـــا ، أبعدت أولئك الناس عن السبيل في حين كانت تحف سيارتي سيارتان أو ثلاث مملوءة برجال الشرطة المسلحين أقوى تسليح وهم في ملابسهم العادية • وحينما خرجتمن السيارة رغبت في السير الى الجماهير الهاتفة لأحييهم تحية الاخوة ، ولكن حرسي أبي أن يســـمح لي بذلك • وحينما دخلنا الى القاعة كانت الصـــورة رائعة ، مؤثرة ، وكانت القاعة التي أبصرها نصف دائرية عبر عدد من مكبرات الصوت ، مزدحمة بالناس •

وينبغي أن أقر بأنني لم أحس بأي اضطراب ، وكنت هـــذه المرة مطمئنا الى نفسي أكثر من مرات متعددة ، ظهرت فيها أمام مجلس العموم، وواجه الحاضرون قولي بكثير من الاهتـــمام وتلقيت من المنصتين ماكنت أترقبه تماما من صياح وضحك في نقاط كنت أرغب فيها هـــذا الصياح وهذا الضحك ، وكان أقصى رد فعل منهم حينما كنت أتكلم عن الهجوم الياباني فقلت : « أي صنف من الناس يؤمنون باننا منه ؟ » وانبجست من كل جهات الجمعية العظيمة كل احساسات القوة والارادة المتمثلة في الامة الامريكية • فهل هناك من يرتاب في أن كل شيء سيسير ســـيرا مرضيا ؟

وحينما انتهيت خـرج معي رئيســـا المجلسين الى حيث كانت تقف الجماهير حافة بالمبنى ، لأحييها من القلب تحية حارة ، وفي سرعة قـــدم رجال دائرة المباحث في سياراتهم وحاصروني ورجعـــوا بي الى البيت الابيض ، عند الرئيس ، وقد انصت الى خطابي كله ، فهنأني على فوزي•

وفي ليلة ٢٨ ــ ٢٩ من ديسمبر ســـافرت بالقطار الى أوتاوا لأنزل ضيفا على الحاكم العام اللورد اثلون • وفي التاســـع والعشرين حضرت اجتماعا لوزارة الدفاع الكندية • وبعد قليل قدمني رئيس الوزراء المستر مكنزي كينج الى زعماء المعارضة من حزب المحـــافظين وتركني معهم •

وشاهدت هؤلاء السادة يتقدون طاعة ومضـــاء ، ولكنهم يحسون ببعض الألم ، لأن الحظ لم يرد أن يشرفهم بأن يشنوا هم الحرب ، وأراد أن يدفعهم الى الانصات الى العواطف الزاخرة التى يفصح عنها الآن خصومهم الاحرار بعد رفعهم لواءها طوال حياتهم •

وفى الثلاثين من ديسمبر تكلمت فى البرلمان الكندى • وكان تجهيز الخطابين اللذين القيتهما عبر الاطلنطى ، واللذين أذيعا على العالم كله • فى غمرة الاحداث وانقاذ العمل الملـــح الذى يتطلب سرعة الحسم ، أمرا متعبا كل التعب • وليست الخطابة حملا ثقيلا على السياسى المخضرم ، ولكن الصعوبة تنشأ من تحرى ما يقال ، ما عسى أن يذكر وما ينبغى الا يذكر فى مثل هذا الجو المتوتر ، وقد عملت ما أمكننى ، ولعـــل النقطة التى صادفت نجاحا كبيرا فى خطابى الكندى هى المرتبطة بحكومة فيشى التى كانت كندا ولا تبرح تحتفظ معها بعلاقات دبلوماسية ، فقد قلت :

« لقد كان من المفروض عليهم فى ســـنة ١٩٤٠ وكان هـــذا فى مصلحتهم ، أن يمضوا الى شـــمالى أفريقية ، حيث يستمرون على رأس الامبراطورية الفرنسية وكان فى وسعهم الاحتفاظ فى افريقية بمعاونتنا بقـــوة بحرية متفوقة وكان يمكنهم أن يحصلوا على اعتراف أمريكا وأن يستعملوا كل الذهب الذى كان مودعا لهم فيما وراء البحار • ولو عملوا هذا حينذاك ، لكان من المتوقع اخراج ايطاليا من الحرب قبل آخر سنة ١٩٤٠ ، ولكان فى امكان فرنسا أن تأخذ مكانها فى مجالس الحلفاء وفى مؤتمر الصلح بين المنتصرين • ولكن قادتهم العســـكريين ضيعوهم • وحينما نبهتهم الى أن بريطانيا ستحارب وحدها على الرغم من كل ما قد يعملونه قال ، قادتهم العســـكريون لرئيس وزرائهم ولمجلس وزرائهم المنشق على نفسه : « ستكسر رقبة انجلترا بعد ثلاثة أسابيع وكأنهـــا دجاجة » ولكن أية دجاجة كسر رأسها وأية رقبة » •

كان هـــذا عجيبا ، ولأرجع الى الماضى لأترنم بالاغنية التى ألفهـــا السير هارى لودر عن الحرب السابقة والتى يستهلها :

« لو نظرنا كلنا الى تاريخ الماضى

لاستطعنا أن نقرر فى أى مكان نقف »

وكنت قد كتبت فى صحائفى حين أشرت اليه هذه العبارة « ذلك الكاتب الساخر الكبير » وهنا واتتنى فكرة « الشاعر الموسيقار » وكانت فكرة عجيبة ولا شك فى انه يسمعنى وسيفرح بهذا التعبير ، وافرحنى كثيرا اننى لقيت الكلمة المناسبة حقا لهذا الشاعر الذى تمكن بأناشيده المستوحاة وحياته الباسلة أن يقدم مساعدات لا تحد ولا تقـــدر لشعبه الاسكتلاندى والامبراطورية البريطانية •

وكان لى حظ فى توقيت خطبتى فى واشنطن وأتاوا ، فقد أتينـــا فى ظرف كان فى وسعنا كلنـــا أن نحتفى فيه باقامة الحلف الاكبر ، بكل ما عنده من توقعات القوة الرائعة ، وقبل أن ينحدر علينا ذلك الصخر المنضخم من الهلاك على أيدى الهجوم اليابانى الذى أحكم أحكاما عجيبا منذ

وقت طويل . وبينما كنت أتكلم بلهجة الموقن المطمئن كنت أوشك أن أشعر بالسياط المحتلة تقترب ـ لتلهب أجسامنا العارية . وكان يلزمنا كلنا ، بريطانيا وهولنده ، وأمريكا . أن نؤدى جزية هائلة فى المحيط الهندى والهادى ، وفى كل الجزر والشواطىء فأمامنا وقت غير محدود من الكوارث العسكرية ـ ويلزمنا أن نصبر شـــهورا طويلة نعانى فيها من الظلام والجهد والفشل ، قبل أن يبزغ علينا النور من جديد .

وحينما رجعت بالقطار الى واشنطن مساء رأس السنة طلب الى أن أذهب الى العربة المملوءة بكبار رجال الصـــحافة فى أمريكا . ولم أكن غارقا فى الخيال حينما وددت لهم عاما جديدا مجيدا وأنا أقول : «لنشرب نخب عام ١٩٤٢ ، عام الجهد والمشقة والنضال والخطر ، والسير البعيد فى ســـبيل الفوز ، فليأخذ الله فيه بيدنا كلنا ، لنخرج منه بشرفنــا وسلامتنا » .

الاتفاقات الإنجليزية الامريكية

كان أول مشروع قدمه الى الرئيس روزفلت عقب قدومي من انجلترا ، وضع بيان عظيم الشأن ، توقعه كل الدول التى تحارب ألمانيا وايطاليا أو اليابان وقد راجعت مع الرئيس التعبيرات التي استخدمناها في صياغة ميثاق الاطلنطي وجهزنا مسودات البيان ، ثم أكملنا صياغته معا ، وقد كنا متفقين تماما من جهة المبدأ والشعور حتى في الاسلوب كذلك • وسرعان ما فوضت وزارة الحرب ، وتحيرت من السرعة التى عقدنا فيها الحلف الأكبر • ثم تبودلت الرسائل ، وأثيرت نقاط ومتاعب بشأن الحكومات والسلطات التى يلزم أن توقع هذا البيان ، وتسلسلها وقد تنازلنا عن طيب خاطر لأمريكا عن مكان الصدارة ، وحينما رجعت الى البيت الابيض من كندا ، كان كل شيء قد أعد لتوقيع ميثاق الامم المتحدة • وتبودلت البرقيات بين لندن وموسكو ، وكان كل شيء قد تقرر الآن • وقد أذاع الرئيس كل ما عنده من مجهود لاقناع لتفينوف السفير الروسي الذى عاود الظهور بعد تغير الاحداث ، فتقبل عبارة « الحرية الدينية » وقد دعي لتناول الغذاء معنا في حجرة الرئيس خاصة لهذا الهدف • ولكن كان على هذا الشخص بعد مروره باختبارات متعبة في بلاده ، أن يكون يقظا كل اليقظة ، وجرى كلام طويل بينه وبين الرئيس عن الروح وعن عذاب جهنم • ولعل ما قرأه علينا الرئيس في مناسبات متعددة عن وصف لما جرى بينه وبين السفير الروسي كان مؤثرا حقا • وفي احدى هذه المناسبات وعدت الرئيس روزفلت بأني سأوصي بتعيينه رئيسا لاساقفة كنتربرى اذا فشل في انتخابات الرياسة القادمة • لكنني على أية حال لم أقدم مثل هذه التوصية الى الملك أو مجلس الوزراء لأن الرئيس فاز في معركة الانتخابات في سنة ١٩٤٤ ، ونقل لتفينوف وهو يرتجف خوفا مشكلة « الحرية الدينية » الى ستالين فارتضاها كأمر واقع ، وأضافت وزارة الحرب البريطانية عبارة التكافل الاجتماعي • وقد وافقت عليها باعتباري واضع أول قانون ضد البطالة • وبعد أسبوع من تبادله البرقيات مع كل جهات العالم تم الاتفاق على «الحلف الأكبر» •

وقد اقترح الرئيس تغيير اسم « الدول المتماسكة » باسم « الامم المتحدة » واقتنعت بجمال هذه التسمية ، وبسطت على صاحبي الابيات الشعرية التى أتت على لسان اللورد بيرون في قصيدته «شايلد هارولد» •

« هنا حيث سل سيف الامم المتحدة

كان مواطنونا يقاتلون في ذلك اليوم

وهذا عظيم ، لأن الأمر لن يمضى رخاء »

وفي صباح الاول من يناير حمل الى الرئيس في مقعده المتحرك ،

وخرجت من الحمام ووافقت على المسودة . وليس فى طاقة البيان وحده أن يربح المعارك ولكنه ابان من نحن ، ولماذا نقاتل ؟ ووقع روزفلت وأنا ولتفينوف وسونج ممثلا الصين هذه الوثيقة العظيمة في ساعة متأخرة من ذلك اليوم فى مكتبة الرئيس وأوصيت وزارة الخارجية الامريكية بجمع توقيعات الدول الاثنتين والعشرين الباقية ، وأرى أن نسجل هنا الصورة الاخيرة للوثيقة :

« بيان مشترك من أمريكا وبريطانيا العظمى وشمال ايرلنده ، واتحاد الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية ، والصين ، واستراليا ، وبلجيكا ، وكندا ، وكوستاريكا ، وكوبا ، وتشيكوسلوفاكيا ، وجمهورية الدومنيكان ، والسلفادور ، واليونان ، وجواتيمالا ، وهايتى ، وهندوراس ، والهند ، ولكسمبورج ، وهولندا ، ونيوزيلنده ، ونيكاراجوا ، والنرويج ، وبنـاما ، وبولنده ، وجنوب افريقية ، ويوغوسلافيا ، وتعلن الحكومات الموقعة أدناه والمذكورة أعلاه .

انها باشتراكها فى برنامج موحد الاهداف والمبادىء التى احتواها البيان المشترك الصادر عن الرئيس الامريكى ، ورئيس وزراء بريطانيا العظمى وشمال ايرلنده ، والمؤرخ فى الرابع عشر من أغسطس سنة ١٩٤١ والمعروف بميثاق الاطلنطى ، ولاقتناعها بأن النصر الاخير ، على أعدائها ضرورى للدفاع عن الحياة والحرية والاستقلال والحرية الدينية ، وصيانة حقوق الانسان والعدالة فى بلادها وفى غيرها من البلدان ، ولما ترتب على اشتراكها الآن فى صراع مشترك ضد قوى الوحشية التى تريد أن تستعبد العالم ، تعلن :

(أولا) تتعهد كل حكومة باستغلال كل مواردها العسكرية والاقتصادية ضد أعضاء المحور الثلاثى ، والدول المنضمة اليه ، والتى تشتبك هذه الحكومة فى حرب معها .

(ثانيا) تتعهد كل حكومة بالتعاون مع الدول الموقعة على هذه الوثيقة ، وبعدم عقد هدنة منفردة أو صلح منفرد مع العدو .

« تستطيع الدول الاخرى أن تنضم الى هذا البيان بشرط أن تكون هذه الدول مشاركة مشاركة مادية فى النضال للتغلب على الهتلرية » .

قد يرى مؤرخو المستقبل ان أهم نتيجة وصل اليها مؤتمرنا الأول فى واشنطن الذى أطلق عليه اسم « اركاديا » وأبقاها أثرا ، هى انشاء لجنة اشتهر اسمها بلجنة رؤساء أركان الحرب المشتركة . وقد تقرر أن يكون مكانها فى واشنطن .

ولما كان من الضرورى وجود رؤساء أركان حرب بريطانيا على كثب من حكومتهم ، فقد رئي أن يمثلهم فى واشنطن بعض كبار الضباط ويتخذوا من العاصمة الامريكية مقرا لهم . وكان هؤلاء الممثلون يتصلون يوميا ، بل بين كل ساعة وأخرى ، بلندن ، وكان فى طاقتهم أن يفحصوا عن آراء رؤساء أركان حرب بريطانيا ويجلوها لرفاقهم الامريكان ، حول أية مشكلة تتعلق بالحرب فى كل وقت من أوقات النهار أو الليل . وقد

جمعت المؤتمرات المعروفة التى عقدت فى أماكن مختلفة من العالم كالدار البيضاء وواشنطن وكويبك وطهران والقـــاهرة ومالطة والقرم ، بين الرؤساء أنفسهم أوقات تمتد أحيانا الى أسبوعين • وقد اجتمع خلال هذه المؤتمرات ما يقرب من تسع وثمانين جلسة من مجمـــوع مائتى الجلسة الرسمية التى عقدتها لجنة رؤساء أركان الحرب المشتركة طوال الحرب • وفى هذه الجلسات اتخذت أغلب القرارات الهامة •

وكان الاجراء الطبيعى أن تجتمع كل لجنة من لجان رؤساء أركان الحرب للدولتين منفردة فى الصباح • ثم يجتمع الفريقان خلال النهار ، ويكونان لجنة واحدة ، وقد يرجعان الى الاجتماع معا فى المساء • ويبحث المجتمعون سير الحرب قاطبة • ويقدمون الى الرئيس والى توصيات متفقا عليها • وفى خلال ذلك استمرت اتصالاتنا المبـــاشرة نحن الاثنين عادة بوساطة التليفون أو اللاسلكى ، وكنا نحن نتصل مباشرة بأركان حربنا• وفى جلسات تمهيدية كانت تبـــحث اقتراحات المستشارين المحترفين ، وعلى هدى ذلك تصدر الاوامر الى قادة الميـدان • وأيا كان النزاع حاميا فى وجهات النظر فى لجنة رؤســـاء أركان الحرب المشتركة ، وأيا كان النقاش واضحا وحادا ، فان الولاء الصادق للقضية المشتركة • كان ينتصر على المصالح الذاتية حتى القومية • وحينما تبلـــغ القرارات الى رئيسى الحكومتين ويوافقان عليها ، يمضى الجميع فى تنفيذها بصـــدق مطلق وخاصة أولئك الذين كانت القرارات معارضة لوجهـات نظرهم الاولى • ولم تفشل قط فى الوصول الى اتفاق ايجـــابى للعمـــل • أو الى بعث توجيهات بينه الى القادة فى كل ميدان • وكان كل قائد منفذ يعـلم أن هذه التعليمات التى يتلقاها تحمل معها آراء الحكومتين المشتركة وتوجيه خبرائهما • ولم يقم قط جهاز حربى عملى كجهازنا بين أى من الحلفاء ، وانى ليبهجنى استمرار هذا الجهاز فعـــلا ان لم يكن صورة حتى يومنا هـــذا •

ولم يمثل الروس فى لجنة رؤساء أركان الحرب المشتركة • لقـــد كانت جبهتهم قضية وحيـــدة مستقلة ، ولم تكن ثمة حاجة ولا طريق للانضمام الى أركان الحرب • وكان يكفى أن نعلم الاتجاه العام لحركاتهم وميقاتها ، وأن يعلموا هم اتجاه حركاتنا وميقاتها • ومن هـــذه الجهة حافظنا على أكبر قدر من الاتصال المتين بهم مثل ما ســـمحوا لنا به • وسأبحث فى الظرف السانح فى زياراتى الشخصية لموسكو وكان رؤساء أركان حرب الدول الثلاث ، يجتمعون حـول مائدة واحدة فى المؤتمرات المشتركة التى أقمناها فى طهران ويالتا وبوتسدام •

فيما سلف ذكرت أن الفيلد مارشال ديل ، بالرغم من أنه لم يعـد رئيســا لاركان حرب الامبراطورية ، أتى معنا على متن البارجة « الدوق اوف يورك » وقد أدى المارشـــال دوره كاملا فى كل المباحثات التى جرت على ظهر البارجة ، بعد اجتماعنا بالزعماء الامريكيين • وفى سرعة تبينت أنه يتبوأ منزلة بارزة فى رأيهم ويؤثر عليهم تأثيرا كبيرا ، ولم يسبق ان نال أى ضابط بريطانى أرسلناه عبر الاطلنطى خلال الحرب مثل هـــذا التقـــدير وتلك الثقة من ناحية الامريكيين ، وقد تمكن من أن يحظى

بشخصيته وقوة ادراكه وحذقه ، ثقة الرئيس روزفلت وتمكن فى الوقت نفسه من انشاء رفقة خالصة ، وصحبة شخصية مع الجنرال مارسال ٠

وصدر الأمر بالتوسع الهائل فى حقل الانتاج ٠ وكان بيفربروك فى كل ذلك دافعا قويا ٠ ويشـــــهد تاريخ أمريكا الرســـمى عن التخطيط الصناعى للحرب ٠ على هذه الحقيقة شهادة كريمة ٠ وقد وضع دونالد نيلسون المدير التنفيذى للانتاج الحربى الامريكى خططا رائعة ٠ وهنـــا يتحدث التـــاريخ الامريكى « ولكن الافتقار الى الاقدام كان أمرا أوحى به اللورد بيفربروك الى نيلسون بصورة مسرحية » ولعل الصـــورة التى رسمها نيلسون نفسه أحسن وصف للحقيقة التى وقعت ٠

أثبت اللورد بيفر بروك الحقيقة القائمة بأنه يلزمنا أن ننـــظر فى برامج انتاجنا الى أقصى من مدى سنة ١٩٤٢ لنستطيـــع مواجهة عدو عنيد ، جم الموارد وأومأ الى أننا ما برحنا نحتاج الى التجارب بالنسبة الى ما طرأ من خسائر فى المواد فى حرب من النـــوع الذى نخوضه الآن ، وكانت الفكرة التى يوحى بهـا اللورد بيفربروك الى لبنيلسون ، ينشرها فى الوقت نفسه فى رأس الرئيس ٠ وفى مذكرة قدمها اللورد بيفربروك الى الرئيس وضع الأرقام المحتملة لانتاج سنة ١٩٤٢ فى أمريكا وبريطانيا وكندا ، بالنسبة الى ما تفتقر اليه بريطانيـا وروسـيا وأمريكا ٠ وقد أبانت المقارنة عجزا كبيرا فى برنامج الانتاج المقترح لسنة ١٩٤٢ وكان العجز فى الدبابات (١٠ر٥٠٠) وفى الطائرات (٢٦ر٧٣١) وفى المـدافع (٢٢ر٦٠٠) وفى البنادق (مليونا وستمائة ألف) وكتب اللورد بيفربروك أن أرقام الأغراض الانتاجية يتحتم زيادتها ٠ وركز اعتقاده فى تنفيذها على « امكانيات الصناعة الأمريكية الرائعة » وكانت النتيجة تفوق عدد من الأغراض الانتاجية فى ضخامتها على ما اقترحه نيلسون من أرقام ، وقد سلم الرئيس بوجوب التوسع الكلى فى مضامين قوتنـــا الصناعية ٠٠ وأصدر توجيهه بضرورة تنفيذ برنامج يدعو الى انتـــاج خمس وأربعين ألف طائرة مقاتلة وخمس وأربعين ألف دبابة وعشرين ألف مدفع مضاد للطائرات وأربعة عشر ألف وتسعمائة مدفـــع مضاد للدبابات ونصف المليون مدفع رشاش سنة ١٩٤٢ ٠

وفى آخر سنة ١٩٤٣ تحققت هذه الأرقام ، وتفوق بعضها ٠ ففى الملاحة مثلا شيدت أمريكا فى سنة ١٩٤٢ بواخر حمولتها (٥ر٣٣٩ر٠٠٠) طن فى حين شيدت فى سنة ١٩٤٣ ما حمولتها (١٢ر٣٨٤ر٠٠٠) طن ٠

ودفع تركيز الفكر المستمر على الحرب ككل ، ومشاوراتى المتواصلة مع الرئيس ومـــع كبار مستشاريه ومستشارى ، وخطبتى فى واشنطن وأوتاوا — ورحلتى الى كندا ، وتدفق العمـــل المتواصل الذى يستدعى سرعة البت ، وكثرة البرقيات المتبادلة مع رفاقى فى الوطن ، الى أن أصبح الوقت الذى أمضيته فى واشنطن ليس مجهدا فقـــط بل منهكا كذلك ٠ وتراءى لاصحابى الامريكيين اننى أبدو مجهدا وأنه يلزمنى أن أستجم ، ووضع المستر ستيتينيوس دار يملكها فى مكان بعيد على الساحل بالقرب من «بالم بيتش» تحت تصرفى ، وفى الرابع من يناير طرت الى هناك ٠

ولقيت الوقت الكافى لعلاج بعض القضايا الصعبة التى أدركتنى هناك . وقد سبق لى أن فسرت الطوربيد البشرى الايطالى والغارة التى شنها على الاسكندرية والتى عطلت «الملكة اليزابيث» و «فاليانت» وقد أتت هـــذه الكارثة بعد كل الخسائر البحرية التى أصبنا بها فى هذه الفترة ، مقلقة للنهـــاية وفى ظرف غير منـاسب وان وقفت على خطورتها فورا . وغدا أسطول البحر المتوسط فى الظرف الحالى غير موجود ، كما غدت طاقتنا البحرية للدفاع عن مصر ضد الغزو البحرى المبـاشر محفوفة بالخطر . وظهر لى أن من المحتم فى مثل هذه الحالة العارضة أن نرســـل الى مصر ما يتوافر عندنا فى ســـواحل انجلترا الجنوبية من الطائرات وقاذفات الطوربيد . وقد كانت نهاية هذا العمل وبيلة .

وأقلقنى جدا ما حمله المســـتر ايدن حين رجوعه من موسكو من تقارير عن مطامـــع الروس الاقليمية وخاصة فى دول البلطيق . وكان بطرس الأكبر قد استولى على هذه الدول التى بقيت تحت حكم القياصرة أكثر من مائتى عام . وغدت هذه الدول منذ الثورة الروسية حصن أوربا الأمامى فى وجه البلشفية . وهى من الصـــنف الذى يســـمى الآن « بالديمقراطيات الاشتراكية » ولكنها تنبض بالحيوية وســـوء الخلق ، وقد رمى بها هتلر أمام الروس فى بداية الحرب ، كالطعم ، فحدثت فيها عمليات تطهير شيوعية وروسية شديدة ، وتمت تصفية كل من فيها من عناصر وشخصيات ظاهرة . وانتقلت حياة هذه الشعوب القـــوية الى الأعمال البوليسية . وفى سرعة قام هتلر كما سترى بعملية تطهير نازية مقابلة . وعاد الروس الى الهيمنة عليها فى النهاية حين الفوز الأخير .

وهكذا مضى الصراع الفتاك باستونيا ولاتفيا وليتوانيا غدوا ورواحا ولا يوجد أدنى ريب على أى حال فى أين يكون الحق ، فالدول البلطيقية يتحتم أن تكون مستقلة . وصاحبة سيادة .

وفى ليلة التاسع من يناير عدت بالقطار الى واشنطن وبلغت البيت الأبيض فى الحادى عشر منه ، وهناك لقيت لجنة رؤساء أركان الحرب المشتركة قد حققت فوزا عظيما فى أعمالها . وأتى ما حققته مؤتلفا مـــع آرائى . وفى الثانى عشر من ينـــاير دعا الرئيس الى اجتماع عام ، وتم الاتفاق على الأسس العريضة للحرب وأغراضها ، واقتصر الاختلاف على التأكيد والتفضيل . وقد سيطر عليهـــا عامل باغ جبار هو الملاحة . ويتحدث السجل البريطانى ركز الرئيس جهـــوده الجليلة على ترتيب حملة أمريكية بريطانية مشتركة توجه الى شمال افريقية . وتم وضـــع برنامج لاعداد حملة قوامها تسعون الف أمريكى وتسعون الف بريطانى تؤيدهم قوة من الطائرات فى حملة الى شـمال افريقية .. وبالنسبة الى الاســـتراتيجية الكبرى اتفق رؤساء الاركان على ألا ينقـــل من مسرح العمليات ضد ألمانيا الا أقـــل ما يستطاع من القوات اللازمة للدفاع عن المصالح الهامة فى مسارح الحرب الأخرى . وكان الجنرال مارشـــال له الفضل الأكبر فى الوصول الى هذا القرار الرئيسى ..

وفى الرابع عشر من يناير استأذنت من الرئيس روزفلت فى السفر وأظهر لى ما يساوره من مخاوف حول الرحلة ، فقد علم العالم كله منذ عشرة

أيام بوجودنا في واشـــنطن ، وأبرزت الخرائط وجود أكثر من عشرين غواصة معادية فى سبيل رجوعنا الى الوطن • وفى جو جميل طرنا من نورفولك الى برمودا ، حيث كانت الدوق أوف يورك ومدمرات الحراسة ترتقبنا على شواطئها المرجانية ـ وطرت فى سفينة طائرة كبيرة من طراز بوينج ، خلفت أثرا عميقا فى نفسى • وفى خلال الرحلة التى استوعبت ثلاث ساعات أصبحت صاحبا للطيار كيلى روجرز الذى ظهر لى رجلا قوى الشخصية كثير الحنكة ، وتقلدت القيـــادة بعض الوقت لاختبر هـــذه الآلة الضخمة التى تزن ثلاثين طنا وأكثر ؛ وانتى ترتفع فى الجو وأصبحت أكثر تعلقا بهذه السفينة الطائرة • وسألت القائد : ما رأيك فى طيراننا من برمودا الى انجلترا ؟ وظهر لى شيء من الشـــجاعة خلف مظهـــرة الوادع وقال : « فى طاقتنا طبعـــا أن نفعل ذلك • ان قراءة حالة الجو الحالية تومىء الى أن سرعة سير الريح معنا أربعون ميلا فى الســـاعة • وفى طاقتنا أن نتم الرحلة فى عشرين ساعة وسألته عن المسافة فقـــال : انها ثلاثة آلاف وخمسمائة ميل تقريبا • وهنا بدأت أفكر •

وحينما نزلنا ، درست الموضوع مع بورتال وباوند • فثمة أحـداث كبيرة تحدث فى الملايو ، ويجب أن نرجع فى أسرع وقت مستطاع وقال رئيس أركان حرب الطيران فورا : ليس ثمة ما يدعو الى هذه المجازفة كلها وأنه لا يمكنه أن يتحمل مسئوليتها • وعضـــد لورد البحر الاول رأى رفيقه • فثمة « الدوق أوف يورك » بمدمراتها الحارســـة وبما فيها من أمن واستجمام ، تترقبنا وقلت : « ولكن ما رأيكما فى الغواصـــات التى أومانا اليها » فأومأ الاميرال باحتقار مما يشير الى حقيقة رأيه فى هـــذا الخطر بالنسبة الى بارجة سريعة محروسة خير حراسة • وتراءى لى أن القائدين يوقنان أنى سأطير وحدى وأدعهما يرجعان فى البارجة ولهـــذا قلت « سيكون المكان بالطبع فسيحا لنا كلنا » وهنا تبدل وجهاهما • وبعد تفكير قصير قال بورتال : ان القضية خليقة بالبحث وأنه سيبحث الموضوع تفصيلا مع قائد السفينة الطائرة • وســـيدرس حالة الجو مع سلطات الأرصاد الجوية • وعند هذا الحد تركت الموضوع •

وبعد ســـاعتين رجع القـــائدان ، وقال بورتال : انه يوقن أن فى وســـعنا بأن نقوم بالرحلة ففى امكان الطـــائرة أن تقوم بهـــا فى أوقات مناسبة • ويظهر أن حالة الجو سانحة تماما ، بمساعدة الريح • ولا مرية فى أن من المهم الاسراع فى الوصول الى أرض الوطن • وقـــال باوند : انه كون لنفسه فكرة جميلة عن الطائرة وقائدها الذى يظهـــر له متمتعا بحنكة لا تبارى • ولا شـــك أن ثمة مغـامرة ، ولكن فى الرحـلة البحرية مغامرة كذلك لوجود الغواصات • وهكذا قررنا السفر بالطائرة الا اذا ساء الجو • وتقرر أن نشرع فى الرحلة فى الثانيـــة بعد ظهر يوم غد • ورئى أن من اللازم تخفيف المتـاع الذى نحمله ، والاكتفـــاء ببعض صناديق من الاوراق اللازمة التى لا غنى عنها ، وقد تقرر أن يظل « دبل » فى واشنطن كممثل عسكرى شخصى لى لدى الرئيس • ولهـــذا انحصر فريقنا فى وفى باوند وبورتال ، وماكس بيفربروك وشـــارل موران وهوليس أما الباقون فسيعودون فى « الدوق أوف يورك »

وفي ساعة مبكرة من صـــباح الغد صحوت دون وعي ، وقد هيمن على اعتقاد بأنه يجب ألا أرقد • ويتحتم أن أقر بأنني أحسست بشيء من الرعب وتخيلت هذه المسافات الواسعة من الماء وأننـــا سنبعد عن البر بمقدار ألف ميل حتى نقترب من الجزر البريطانيـــة ، وتراءى لى انني اقترفت عملا طائشا وأننا وضعنا عددا أكثر من اللازم من البيض في سلة واحدة • وكنت أرنو الى رحلة جوية عبر الاطلنطي بعين الخوف • ولكن السهم قد نفذ • ومع ذلك فانني أعترف بأنهم لو قدموا الى عند الفطور أو قبل الغذاء ، وأخبروني أن الجو تبدل وأنه يلزمنا الســـفر بالبحر فانني كنت أوافق قطعا على المضى فى السفينة الرائعة التى قطعت كل هذه المسافات البعيدة لنقلنا • وكان الامر كما ترقب قائد الطائرة وهـــو ان المشقة فى الارتفاع فوق الماء ، وفكرت فى أن يلزمنا أن ندفع التـــلال المنخفضة التي تقفل سبيل الميناء ، ولم يكن ثمة خطر فعلا • فقد كنـــا فى أيد أمينةوطارت الطائرة الجبارة على علو ربع ميل فوق الجرف ، وكان قدامنا مسافة أخرى يمكننا توفيرها فى العلو • وليس هناك ريب فيمـــا يحس به المسافر من راحة فى هذه السفن الطائرة • وسارت الحـــركة بسهولة ، وقضى على التردد فى يسر ، وأمضينا فترة بعد الظهر فى حال رائعة ، ثم تناولنا عشاء مرحا • وتتكون هـــذه الطائرات من طبقتين ، ويصعد الشخص سلما ليصل الى حجرة القيادة ، وحل الظلام ، وكانت كل التقادير طيبة ؛ فقد كنا نطير على علو سبعة آلاف قدم تقريبا بـــين ضباب كثيف • وكان فى طاقتنا أن نرى الطرق الامامى للاجنحة وقـــد تتابعت فوقها الشرارات النارية من تفريغ الزيت المحترق • وفى هـــذه الطائرات أنبوبة كبيرة من المطاط تتمدد وتنكمش أحيانا لمنع التجمد •وقد أوضح لى قائد الطائرة طريقة عمل هذا الجهاز ، وكنت أبصر من حين الى آخر الجليد وهو يتحلل وذهبت الى النوم حيث نمت نوما عميقا عدةساعات وتنبهت قبل الفجر ، وذهبت فورا الى حجرة القيادة ، وبدأ نور النهار ينداح شيئا فشيئا ؛ وأبصرت من تحتنا أرضا غير خالية من السحب ، وبعد أن أمضيت ساعة تقريبا وأنا قاعد فى مقعد مساعد الطيار ، شعرت بإحساس من الانزعاج حولنا ، وكان مفروضا أننا ندنو من انجلترا من الجنوب الغربى ، وكان مفروضا أن تكون قد عبرنا جزر شيلى ؛ ولكننا لم نتمكن من مشاهدتها خلال الفتحات التى بين السحب ، ولما كنـــا قد طرنا أكثر من عشر ساعات فى سحاب كثيف لا نبصر فيه غير نجـــم واحـــد فمن المتوقع أن تكون قد ملنا عن سبيلنا • وكانت الاتصـــالات اللاسلكية مرتبطة طبعا بقواعد الحرب العادية • وبان من المناقشـــات الجارية أننـــا لم نكن نعلم أين نحن بالضبط • وفورا تكلم بورتال الذى كان يشرح الوضع لقائد الطائرة وقال لى : سنتجه فورا الى الشـــمال وفعلا تم هذا ، وبعد نصف ساعة تقريبا خرجنا من السحب لنبصر انجلترا أمامنـــا وفى سرعة بلغنا سماء بلايموث ، حيث نزلنا بعد أن تفادينـــا المناطيد المنيرة ، بهدوء وراحة •

وحينما غادرت الطائرة قال لى قائدها « لم أحس قط يا ســـيدى بالراحة فى حياتى كما أحسست بها وأنا أنزل بك فى الميـــناء بســـلام

ولم أدرك أهمية ملاحظته حينئذ ولكنني عرفت فيما بعد أننا لواستمررنا في السير خمس دقائق أو ستا أخرى قبل اتجاهنا شمالا ، لصرنا فوق بطاريات الالمان المضادة في بريست • فقد ملنا أكثر من اللازم جهة الجنوب خلال الليل • والأدهى من هذا أن التعديل المضبوط الذى تم فى سيرنا قد بلغ بنا انجلترا لا من الجهة الجنوبية الغربية التى كانوا يترقبون قدومنا منها بل من الجهة الجنوبية الشرقية التى تجيء منها طائرات العدو عادة ، وقد أسفر هذا عن وصول الخبر بأن طائرتنا هى قاذفة قنابل معادية آتية من بريست ، وصدر الامر الى ست طائرات هاريكين من القيادة المحاربة بأن توقعنا • ولكنها لم تفلح فى ايقاعنا •

وأرسلت برقية الى الرئيس روزفلت أقول « لقد وصلنا من برمودا الى هنا بوثبة واحدة تدفعنا ريح مواتية سرعتها ثلاثون ميلا •

سقوط سنغافورة

كان من المرتقب ان ألقى خطابا مطولا فى البرلمان عن مهمتى فى واشنطن ، وعن كل ما حدث فى الاسابيع الخمسة التى امضيتها بعيدا عن الوطن ، وحضرت فى ذاكرتى حقيقتان ، الاولى : ان الحلف الاكبر سيكسب الحرب فى النهاية وان يكن على مدى بعيد • والاخرى ان سلسلة غير محدودة وغير محصورة من الكوارث ترتقبنا فى هجوم اليابان الساحق وكان فى طاقة كل شخص أن يشعر شعور الاطمئنان بأن حياتنا كشعب وكامبراطورية ، لم تعد فى خطر • ولكن الاحساس بانتهاء خطر الحرب من الجهة الاخرى ، قد دفع كل ناقد حسن النية أو سيئها ، الى التخصص من الايماء الى ما اقترف من اخطار جمة • والى جانب هذا شعر كثيرون بأن واجبهم يدعوهم الى تحسين طرقنا فى ادارة دفة الحرب • وباختصار مداها • وقد قلقت أشد القلق من الهزائم التى نزلت بنا • ولم يكن أحد يدرى أكثر منى ان هذه الهزائم ليست الا أول الطوفان ، ودفع تصرف الحكومة الاسترالية ، وانتقادات الصحف الواسعة الانتشار غير المتحيزة وطعن ما يقرب من عشرين أو ثلاثين نائبا من أكثر النواب كفاية دائما ، والمناورات البرلمانية الى وجود احساس من الضيق والقلق فى نفسى متخيلا وجود رأى عام شقى غافل ، يتظاهر ضدى مرتفعا من كل صوب •

ولكننى كنت من الجهة الاخرى واثقا من صلابة موقفى ، فقد كنت أستطيع أن أعتمد على حسن نية الشعب فيما قمت به من مشاركة فى المحافظة على بقائه فى سنة ١٩٤٠ • ولم أبخس من قوة الصفاء العميق الفسيح الذى يزج بى الى الامام • وقد أظهرت لى وزارة الحرب ورؤساء الاركان كل مظاهر الطاعة والاخلاص • وكنت واثقا من نفسى • وقد أبنت لمن حولى اننى حين تحتم الضرورة لن اقبل انقاص أى شىء من سلطتى أو مسئوليتى • وكانت الصحافة مفعمة بالاقتراحات التى تقول باستمرارى رئيسا للوزارة ألقى الخطب فى البرلمان على أن أنزل عن الاشراف الفعلى على توجيه دفة الحرب لآخرين • وأصررت على الا أنزل عن شىء لاية ناحية وان أحمل شخصا المسئولية الذاتية الرئيسية المباشرة ، وان أطلب الاقتراع على الثقة بى فى مجلس العموم • وتذكرت القول الفرنسى المأثور :

« الصمت أفضل طريق للهيمنة على النفوس »

وكان من الواجب أن أحذر المجلس والبلاد من الكوارث المحتملة • وليس هناك خطأ فى القيادة العامة أفحش من التلويح بآمال كاذبة سرعان ما تنهدم ففى امكان الشعب البريطانى أن يقابل الاخطار والمحن

بجلد وأناة ونشـــاط ولـكنه يأبى بمرارة ان يختل • أو أن يدع هؤلاء المسئولين عن اموره يحيون في جنة الحمقى ، واحسست بأن من الواجب لا بالنسبة الى مركزى فقط بل الى اتجاه الحرب قاطبة ، أن نخفف من كوارث الغد بتوضيح الوضع الحالى فى أكثر التعبيرات ســوادا وظلاما وكان من المستطاع أن ينجز هذا فى هذه المرحلة من غير أن يؤثر على الموقف العسكرى أو يقلل من الايمان والنصر الاخير الذى يعمر الآن كل قلب • وعلى الرغم مما كنا نطالع به كل يوم يشرق علينا من الهزات والمتاعب فانني لم آسف على الاثنتى عشرة ساعة أو الاربع عشرة ســاعة التى تستغرق فى تدبيج خطاب من عشرة آلاف كلمة • يتناول جهات متعددة وبينما كانت السنة النار من حرب الصحراء غير المواتية تلسع قدمى ، استطعت أن أجهز خطابى وتقديرى للموقف كله •

وقد انهارت آمالى فى نصر يقضى به على رومل قبـل أن أودع البيت الابيض فلم تكن النتائج التى حققتها انتصارات أو كتلك فى ســيدى رزق والغزالة جاسمة ، ودفع عودة نشاط قوة العدو الجوية فى البحـر المتوسط فى شهرى ديسمبر ويناير • واختفاء هيمنتنا الى حد ما على البحر عدة أشهر • الى حرمان أوكنلك من ثمار الفوز الذى كافح كثيرا لتحقيقه والذى ترقبه طويلا • وكان التفاؤل الذى حالف رسم خططنا لعملية انزال جيش انجليزى امريكى فى افريقية الشمالية الفرنســية قد تلاشى اذ أرجئت هذه العملية ، كما هو معروف عدة أشهر •

ومن الصعب أن ينزل بنا الآن ما هو اسوا • ويحول طول الشــقة بينى وبين الاحاطة الكاملة بالكارثة العسكرية التى حلت بنا للمرة الثانية فى هذه الناحية نفسها ، وبعد سنة من محنتنا الاولى ، والتى كتب لهـا أن تدمر الحملة البريطانية كلها فى الصحراء سنة ١٩٤٢ ويكفى أن أذكر انه فى الحادى والعشرين من يناير قام رومل بهجوم اســـتكشافى قوى من مواقعــه فى العقيلة ، نهض له ثلاث فرق تتكون الواحدة منهـــا من الف من المشاه المنقولين بالسيارات تؤيدهم الدبابات وفى سرعة شقت هذه الفرق سبيلها مجتازة الفجوات الموجودة بين قواتنـــا الامامية التى تحتاج الى المدرعات فصدر اليها الامر بأن تتراجع • ورجع رومل فبرهن من جديد على تفوقه فى الحروب الصحراوية • اذ استطاع بوساطة التفوق على قادتنا فى اصالة الرأى ان يســـترد الجزء الاكبر من برقة • وتم الانسحاب مســافة ثلثمائة ميل ، مما أجهـــز على كل آمالنا « وأفقدنا بنغازى » ، وكل المخازن التى كان الجنرال أوكنلك يجهزها للهجوم الذى يأمل أن يقوم به فى منتصف شـــهر فبراير وارجع الجنرال ريتشى كل قواته المدمرة فى المنطقة المجاورة للغزالة وطبرق • وظلت عمليات المطاردة والهجمات المضادة هنا حتى آخر مايو ، حينما استطاع رومل أن يســدد ضربته من جديد •

وفى السابع والعشرين من يناير بدأت المناقشة فى مجلس العموم ، وكان فى وسعى أن ألمح روح انشـــقاق تهيمن على المجلس ، اذ أثيرت اعتراضات متفرقة على أسس متعددة لا تمت بصلة الى مستلزمات الساعة وقد كنت طلبت تسجيل خطابى ليمكن اذاعته على الامبراطورية وأمريكا

ولهذا فقد سحبت طلبي مع ان مثله لا يرفضه اى برلمان آخر في العالم وهكذا أقدمت على الخطابة في مثل هذا الطقس ٠

وبسطت على الاعضاء وصفا لمعركة الصحراء ، ولكن المجلس لم يتمكن من تقدير الاهمية التى تحتوى عليها حركة رومل المضادة الناجحة لان المجلس كان على جهل بالخطط العريضة التىكنا نجهزها للبدء فىهجوم بريطانى سريع يدفع الى الاستيلاء على طرابلس ٠ وظهرت خسارة بنغازى وأجدابية التى نشرت ، جزءا من عمليات الجزر والمباغتة فى حرب الصحراء ٠ والى جانب هذا عدم توافر المعلومات الدقيقة لدى عما وقع ، وكيف وقع ٠

وانتقلت فى سرعة الى الموضوع الاكبر ، وهو موضوع مانشكو منه من عراء في الشرق الاقصى فقلت :

ولم تمض مدة ولن تمضى ، كان فى وسع بريطانيا العظمى وحدها ٠ أو الامبراطورية البريطانية وحدها أن تحارب ألمانيا وايطاليا ، وأن تقتحم معارك بريطانيا والاطلنطى والشرق الأوسط ٠ وأن تكون متأهبه فى الوقت نفسه فى بورما وشبه جزيرة الملايو والشرق الأقصى قاطبة ، لمواجهة ضغط امبراطورية عسكريةقوية كاليابان ، تملك ما لايقل عن سبعين فرقة متنقلة ، وثالث أسطول فى العالم ، وقوة جوية كبيرة ٠ وزحفا يقوم به ما يقرب من ثمانين الى تسعين مليونا من الآسيويين المحاربين القساة ٠ ولو شرعنا فى توزيع قواتنا على هذه الاماكن الواسعة من الشرق الاقصى ٠ لأدركنا الهلاك ٠ ولو نقلنا جيوشا هائلة نفتقر اليها أشد الافتقار فى جبهات القتال الى أماكن لم تنشب الحرب فيها بعد ، وربما لا تنشب أبدا ، فاننا نكون مخطئين جدا ، ونكون قد رمينا بالفرصة ، التى غدت الآن أكثر من مجرد فرصة ، لنجاتنا كلنا من الحالة الرهيبة التى غرقنا فيها ٠

« وكنا قد اتخذنا قرارا لنشارك فى معونة روسيا ولنحاول الانتصار على رومل ٠ ولنكون جبهة أقوى تمتد من الشرق الادنى الى بحر قزوين ٠ ودفع هذا القرار الى انه ليس فى طاقتنا الا أن نرسل بعض قوات معتدلة الى الشرق الاقصى لمقابلة خطر الهجوم اليابانى المحتوم ٠ وقد جمعنا فعلا ما يقرب من ستين ألف رجل فى سنغافورة ، ولكنا منحنا وادى النيل الأولوية فى الطائرات الحديثة والدبابات والمدافع المضادة للطائرات ٠

وأمضيت ما يقرب من ساعتين ألقى على المجلس حملا فوق قدرته ٠ وقد ارتضى المجلس كل ما قلته له من غير حماسة ، ولكن وجد عندى انطباع بأن المجلس قد آمن بما قلته ٠ ونظرا لما كنت أترقبه من أمور سيئة ٠ رأيت اختتام كلامى بوضع الأمور فى مكانها الصحيح مهما يكن سيئا ، وبعدم التقدم بأى وعود من غير أن أحرم الاعضاء لذة الامل ٠

وظلت المناقشة ثلاثة أيام ٠ ولكن لهجة الاعضاء فيما يختص بى كانت ودية ولم يكن عندى اقل ريب فيما سيفعله المجلس ، ودافع أعضاء

وزارة الحرب وفى مقدمتهم المستر اتلى عن قضية الحكومة بشجاعة وجرأة ، وكان على أن أنهى المناقشة فى التاسع والعشرين . وخفت فى هذه الفترة الا يحدث اقتراع على الثقة وأرادت بوسيلة الاستثارة أن أدفع ناقدينا الى الاقتراع ضدنا من غير أن أسيء الى المجلس الذى ظهر كله الآن مؤتلفا معنا . ولكن لم يكن فيما رددته ما يخص الشخصيات التى كانت مناهضة لنا من المحافظين والعمال والاحرار على الاقتراع ضدنا . وحين دار الاقتراع على الثقة صوت ضدنا نواب ثلاثة من حزب العمال المستقل وكان صوتان منهم يؤخذان طبعا للتزكية ، ولهذا كانت النتيجة اربعمائة وأربعة وستين ضد صوت واحد . وقد شكرت لجيمس ماكستون زعيم الاقلية سيره بالموضوع الى الامام . وكانت الصحافة قد أحدثت جلبة كبيرة الى حد أدى الى انصباب برقيات التهنئة على من كل نواحى العالم الحليف . وكان أكثر هذه البرقيات حرارة من حلفائنا الامريكيين فى البيت الابيض . وكنت قد أرسلت الى الرئيس روزفلت أهنئه بعيد ميلاده الستين . فأبرق الى يقول « لعل مما يضحك انني معك فى السنة نفسها» أما الصحفيون الذين يزداد نقيقهم فلم يكفوا ولم يمتنعوا عن نقيقهم . وفى سرعة استداروا بما عرف عن الغربان من خفة فى الحركة يقولون : هل كان من الواجب طرح الثقة بالوزارة ؟ فمن الذى يقدم على التفكير فى أن يسقط حكومة قومية ؟ .. لكن هذه الاصوات العاوية كما كنت أسميها ، لم تكن الا نذر الكارثة الغربية غير المتوقعة .

وقررت استحالة التحقيق بوساطة لجنة ملكية فى العلل والظروف التى أحدقت بسقوط سنغافورة وما فتئت الحرب جارية . فليس فى امكاننا أن نستغنى عن الرجال أو عن القوى الكامنة .

وقد ارتضى البرلمان هذه النظرية ، ولكننى رأيت اتمام هذا التحقيق عقب انتهاء الحرب انصافا لكل الضباط والجنود . لكن هذا التحقيق لم يتم على ايدى الحكومة القائمة . فقد مضت السنون وفنى الكثيرون من الشهود . ولعلنا سنعجز أبدا عن اصدار حكم قاطع ، على أفدح نازية وأكبر استسلام فى التاريخ البريطانى ، عن طريق محكمة لها صلاحية . ولن أبغى فى هذه الصفحات وضع نفسى مكان محكمة كهذه ، أو اصدار حكم على سير الاشخاص . وفى موضع آخر سجلت الحقائق كما ايقنتها . وعلى القارىء ان يؤلف من هذه الحقائق ومن الوثائق التى سجلت فى ذلك الظرف الفكرة التى يشاؤها .

ومما هو خليق بالاستقصاء على الاقل ، هو أليس من الافضل تركيز قوانا على الدفاع عن جزيرة سنغافورة . ومجاولتنا صد الهجوم اليابانى المنحدر من شبه جزيرة الملايو بقوات متنقلة خفيفة . وقد قبلت ماقررة القادة فى المنطقة من اقتحام معركة سنغافورة فى جوهور ، مع محاولة اعاقة العدو عن بلوغها الى أبعد حد مستطاع . ويكون الدفاع عن البر الماليزى من انسحاب دائم ، مع شن حرب عصابات فى المؤخرة .

وكانت كل الميزات فى جانب العدو ، فقد مسح قبل الحرب مسحا

دقيقا طبيعة الأرض ودرس الاحوال فيها • وجهز خططا فى غاية الاحكام كما أرسل مندوبين سريين يتسللون الى المنطقة • واشتملت التجهيزات على مجموعات كبيرة من احتيــــاطى الدراجات ليستعملها راكبو الدراجات اليابانيون ، وجمع العدو قوات فائقة واحتياطيا كبيرا • لم يفتقر الى بعضه فى المعركة • وكانت كل الفرق اليابانية قد تدربت على حرب الادغال ، الى جانب سيطرة اليابان فى الجو ، وهو ما أوضحته ، والذى يبدو منه افتقارنا الشديد الى الطائرات فى أماكن اخرى ، عاملا فتاكا آخر ، لاصلة لقادتنا هناك به وليسوا مسئولين عنه • وهكذا فان القوة الأساســـية المحاربة للجيش الذى أوصيناه بالدفاع عن ســنغافورة ، وكل الامدادات التى ارسلناها بعد اعلان اليابان الحرب ، استغلت فى القتال الباســــل الذى جرى فى شبه الجزيرة ، وحينما اجتاز هؤلاء الممر المائى الى المكان الذى كان يتحتم ان تجرى فيه معركتهم الاساسية ، كانت قوتهم قــــد نفقت • وهنا انحازوا الى الحامية المحلية ، والى جماهير المدافعين عن القاعدة الذين ضاعفوا عددنا من غير ان يزيدوا شيئا فى قوتنا •

وهكذا تبدد الجيش الذى كان فى وسعه أن يقتحم معركة سنغافورة الحاسمة والذى جهز لهذا الغرض الرئيسى فى هذا المسرح ، قبــــل بدء الهجوم اليابانى وقد يكون عدد رجاله مائة ألف رجــل ، ولكنه لا يعتبر جيشا مطلقا •

وبدا الآن أن الجنرال « ويفل » الذى غدا قائدا أعلى للحلفاء فى هذه المناطق الشرقية كان يرتاب فى استطاعتنا أن ندافع طويلا عن سنغافورة ، وكنت أستند الى مقاومة الجزيرة والقلعة لحصار يابانى طويل يســتدعى انزال المدافع الثقيلة ونقلها واقامتها • وقبل ان اتــــرك واشنطن كنت اترقب ان تمتد المقاومة شهرين على الاقل • وكنت اتوقـــع « بشىء من التشاؤم » استنزاف قوى جيشنا خلال تقهقره فى شبه جزيرة الملايو ، من غير أن أعمل عملا قاطعا للتدخل ، وكان ثمة من الجهة الاخرى عامل كسب الوقت •

وفى السادس عشر من يناير أبرق « ويفل » الينا يقول :

« كانت كل الخطط حتى زمن قريب تقوم على صد الهجمات الموجهة من البحر الى سنغافورة ، والمقاومة على ارض جوهور ، أو فى الشمـــال منها ولم نعمل شيئا لتكوين خطوط الدفاع من الناحية الشمــــالية من الجزيرة لنمنع العدو من اجتيــاز مضيق جوهور ، مع أن الخطط رسمت لنسف طريق الجسر • وتصلح مدافع القلعة الثقيلة العيار لاطلاق النار فى كل اتجاه ، ولكن اتجاه سير المقذوفات يجعلها غير صـــالحة لمقــــابلة الاسلحة المضادة للمدفعية • وليس فى طاقتنا فعلا ان نكفل الهيمنه على مدفعية العدو أن فرض الحصار عليها » •

وشعرت بحيرة ممزوجة بالالم حينما قرأت هذه الرســـالة صبـــاح التاسع عشر من الشهر • اذن ليس هناك حصون دفاعية مستمرة تدافع عن الجزيرة من جهة البر ، وعن المدينة والقـــاعدة البحرية • والى جانب

هذا ، وهو ما اذهلني لم يقم واحد من القادة منذ قيام الحرب ، وحتى منذ ثبت اليابانيون أقدامهم فى الهند الصينية باقامة حصون دفاعية ميدانية تستحق الذكر • ولم يقم أحد من هؤلاء القادة حتى بمجرد التنبيه بأن مثل هذه الحصون غير قائمة فعلا •

وقد تأكد لدى ، بفضل ماشهدت من الحرب وقرأت عنها ، وخاصة بالنسبه الى قوة النار الحديثه ، اعتقاد راسخ بان عدة أسابيع تكفى لايجاد دفاع ميـــدان قوى ، واحاطة جبهة العدو وحصرها بحقول الالغـــام وغيرها من الموانع • ولكن لم يدر ببالى قط أنه ليس هناك دائرة من الحصون المتفرعة ذات الطبيعة الدائمة ، تقوم بالدفاع عن مؤخرة القلعة المشهورة • ولم يكن فى طاقتى أن أدرك مطلقا كيف حدث هـذا • ولكن يظهر انه لم يفهم هذه الضرورة المهمة أحد القادة فى المنطقة او من خبرائى المهـنيين فى الوطن ، واذا كان احدهم قد فهمها ، فانه على الاقل لم يومىء بأهميتها لى ، حتى اولئك الذين اطلعوا على برقياتى المركزة على الاحتمال المخطىء بضرورة التأهب لحصار طويل متسق • وكنت قد قرأت عن معركة بليفنا فى سنة ١٨٧٧ ولم تكن المدافع الرشاشة قد عرفت بعد ، فقـــد اخترع الاتراك طرقا حديثة فى الوسائل الدفاعية لمقابلة خطر الهجوم الروسى ، وبحثت كذلك معركة فردان فى سنة ١٩١٧ ، حيث استطاع جيش ميدان يجثم فى قلاع محصنة موزعة أن يسجل فوزا باهرا على جيش مهاجم • وقد ركزت اعتقادى على اجبار العدو على استعمال مدفعية على مدى واسع لدق مراكزنا الحصينة فى سنغافورة ، ومن المشقات المثبطة ، والتخـــلف الطويل الذى سيعوق تركيز مثل هذه القوة المدفعية وجمع الذخـــيرة الضرورية لها عبر المواصلات الماليزية ، وها هى ذى كل أحـــلامى تنحرف بغته ، فابصر أمامى المنظر المريع • منظر الجزيرة العارية والجنود المتعبين ان لم نقل المنهوكين ، ينسحبون اليها •

أنا لا أكتب هذا دفاعا عن نفسى • لقد كان من واجبى أن أعلم • ولقد كان من واجب مستشارى ان يعلموا ، وان يخبرونى بالحقيقة ، وكان على انا ان اسألهم • ولعل السبب فى عدم سؤالى هذا السؤال الوحيد بين آلاف الأسئلة ، التى كنت أوجهها ، اننى لم أتخيل ان سنغافورة ليس لديها وسائل دفاعية ضد البر ، كما لم أتخيل مطلقــا نزول بارجة الى البحر من غير أن يكون لها عمق ، وقد اطلعت على كل الاسباب التى قدمت لتسويغ هذا العيب المكشوف ، ومنها اشتغال القوات فى التدريب ،وانشاء الخطوط الدفاعية فى شمال الملايو ، وقلة الايدى العـــاملة من المدنيين ، ورواسب ماقبل الحرب ؛ واشراف وزارة الحرب المركزى ، والقول بأن دور الجيش كان الدفاع عن القاعدة البحرية الموجودة على الساحل الشمالى من الجزيرة ، ولهـــذا فان واجبه أن يقاتل أمام الساحل لاعليه ، وأنا لا أعد كل هذه المسوغات صحيحة ؛ سليمة ؛ لقد كان من الضرورى ان تنشـــأ الخطوط الدفاعية •

وكان أول رد فعل على ماحدث اعتزامى اصلاح هذا الاهمال بقـــدر مايسمح عامل الوقت ، ولكنى حينما استيقظت صباح الحادى والعشرين

من الشهر ، — وجدت هذه البرقية المتشائمة التالية من الجنرال ويفل ، تأخذ مكان الصدارة فوق أوراقي :

« عاد الآن الضابط الذي أرسلته الى سنغافورة لتجهيز خطط الدفاع عن الجزيرة . تتخذ الآن التأهبات للدفاع عن الجزء الشمالي من الجزيرة . ويفتقر الدفاع عنها الى قوات معادلة ان لم تكن متفوقة في العدد على القوات الضرورية للدفاع عن جوهور ، أمرت برسيفال (القائد العام) بأن يقتحم المعركة في جوهور ، وان يرسم الخطط لمد المقاومة عن الجزيرة الى ابعد غاية مستطاعة اذا خسرنا معركة جوهور . ولكن يلزمني أن أنذرك بصعوبة المحافظة على الجزيرة طويلا اذا أسقطت جوهور . فمدافع القلعة مقامة للدفاع عنها من جهة البحر ، وذخيرتها من الصنف الذي ينفع لهذه الغاية فقط . ولا يمكن أكثر هذه المدافع اطلاق نيرانه الا جهة البحر . وقد أرسل بعض الحامية الى جوهور ، وأرتاب في القيمة الحربية لمن تبقى منها . آسف لمنحك صورة معتمة ، ولكنني لا أشاء أن أمنحك صورة خاطئة عن قلعة الجزيرة لقد أنشئت حصون سنغافورة للدفاع عنها من جهة البحر ، وما فتئت أرجو أن تقاوم جوهور حتى تصل القافلة القادمة » .

واستمررت أفكر في هذه الرسالة وقتا طويلا . فكل ماركزت عليه رجائي حتى الآن . هو اجبار دفاع الجزيرة ، بقلعتها ومدينتها على المقاومة، وكان هذا هو الموقف الذي يتحتم أن نحافظ عليه ، الى أن يحدث تغيير في سياستنا هناك . أما الآن فقد أخذت أفكر أكثر وأكثر في بورما ، وفي هذه المساعدات التي تسير الآن في سبيلها الى سنغافورة فمآل هذه المساعدات الى التحطيم أو الى التحول . وما فتئت الفرصة سانحة لتتجه القوافل شمالا الى رانجون . ولهذا فقد جهزت المذكرة التالية لرؤساء أركان الحرب ، وناولتها للجنرال ايسماي في الظرف المناسب ليقدمها اليهم حين يجتمعون في الساعة الحادية عشرة ونصف الساعة من صباح الحادي والعشرين . وانني لأقر مع ذلك بأن عقلي لم يقرر شيئا . واتجهت الى أصحابي ومستشاري ، ولكننا كلنا كنا نقاسي الآن الحالة نفسها :

نظرا لهذه البرقية السيئة التي وصلتنا من الجنرال ويفل ، أرى انه يجب علينا أن نبحث الموقف كله في اجتماع تعقده الليلة لجنة الدفاع .

لقد اقترفنا الخطأ الذي كنت أخاف أن نقترفه . فقد انقسمت القوات التي كان يمكنها انشاء جبهة حصينة في جوهور ، أو على الاقل على حاجز سنغافورة المائي أقساما صغيرة . ولم يقم أي خط دفاعي على الجزيرة جهة البر . ولم يقم الاسطول باقامة خطوط دفاعية تجاه حركات التطويق العادية من الساحل الغربي من شبه الجزيرة . وقد أبان الجنرال ويفل أن الدفاع عن سنغافورة يستدعي قوات أكثر من تلك التي يتطلبها النصر في معركة جوهور . وقد انتهت معركة جوهور تقريبا بالخسارة .

ولا تومىء رسالته بالامل في دفاع مديد . ومن الجلي ان مثل هذا

الدفاع سيكون المساعدات التي هي في الطريق الآن . واذا كان الجنرال ويفل يرتاب في القدرة على المقاومة عدة أسابيع أخرى ، فان السؤال الذى يثار الآن هو : أليس من الاحسن أن ننسف الارصفة وبطاريات المدفعية والمصانع وننسحب من سنغافورة ، ونركز كل شيء على الدفاع عن بورما ، وعلى ابقاء سبيل بورما مفتوحا .

أومن بأن هذا الموضوع يتحتم أن يقابل على هذا النحومقابلة صريحة وأن يبسط بهذه الصورة على الجنرال ويفل . وما قيمة سنغافورة عند العدو بالنسبة الى بقية الموانى فى جنوب غرب الباسفيك ، اذا قمنا بعمل التخريبات البحرية والعسكرية بشكل دقيق ؟ .

وستكون خسارة بورما من الجهة الاخرى ضربة كاسرة انها ستفصلنا عن الصين . التى برهن جندها حتى الآن على انهم أكفى من غيرهم فى قتال اليابانيين . وقد نخسر كلا من سنغافورة وسبيل بورما حين تضطرب الامور ونتردد فى اتخاذ قرار حازم مهما يكن كريها . وكل شيء يتوقف طبعا على الغاية التى سيستطاع فيها الاحتفاظ بالدفاع عن الجزيرة، واذا كان هذا الدفاع سيقتصر على عدة أسابيع،فاننى أرى أنه ليس جديرا بأن نضيع عليه كل معوناتنا وطائراتنا .

ويلزم الانسان مع ذلك أن يدرك أن سقوط سنغافورة مع سقوط كوريجيدور سيهز الهند هزة قوية ، لا ينجيها منها الا قوات كبيرة تصل الى جبهة بورما وتقوم بعمل مظفر فيها .

« آمل أن تبحثوا كل هذه النقاط ، فى هذا الصباح »

ولم يتوصل رؤساء أركان الحرب الى نتيجة قاطعة ، وحينما اجتمعت لجنة الدفاع فى المساء ، هيمن علينا تردد متشابه نحو الاقدام على اتخاذ مثل هذه الخطوة الحاسمة . واستمرت المسئولية المباشرة الاولى متوقفة على الجنرال ويفل باعتباره القائد الاعلى للحلفاء . وقد وجدت شخصيا أن القضيه صعبة الى حد بالغ ، حتى اننى لم ألح فى ضرورة تنفيذ خطتى الحديثة ، وهو ماكنت أفعله قطعا لوكنت قد حزمت أمرى . ولم يكن فى طاقة أحد منا أن يترقب تدهور الدفاع وهو ما حدث فعلاً فى ثلاثة أسابيع . على أى وضع كان فى امكاننا أن نمضى يوما أو يومين آخرين فى تدبر أكثر .

ولم يشهد السير ايرل بيج ممثل استراليا طبعا اجتماع رؤساء أركان الحرب ، كما اننى لم أدعه لحضور اجتماع لجنة الدفاع . بيد أنه حصل بطريق أو بآخر على نسخة من المذكرة التى أرسلتها الى رؤساء أركان الحرب . وقد أبرق الى حكومته فى الحال . وفى الرابع والعشرين من يناير تلقينا رسالة من المستر كيرتن رئيس وزراء استراليا اقتطف منها الفقرات التالية :

حمل الينا بيج أن لجنة الدفاع تبحث الآن توقع الجلاء عن الملايو وسنغافورة . وفى طاقتى أن أجزم بانه فيما يختص بالتأكيدات السالفة

التى تلقيناها منكم سيعتبر الجلاء عن سنغافورة هنا وفى مواطن أخــرى غدرا ليس فى الوسع التساهل فيه على الاطلاق ... لقــــد أدركنا ان سنغافورة ستكون قلعة لايستطاع الوصول اليها ، وهى على أى وضــع تستطيع أن تصمد وقتا طويلا الى أن يصل الاسطول الرئيسى .

ومن المفروض حتى لو وقع طارىء ، توجيه المساعدات الى جزر الهند الهولندية لا الى بورما ... وقد يسبب أى عمل مخالف غضبا ونقمة وقد يؤدى بالهند الهولندية الىعقد صلح منفرد وقد أدينا دورنا فى الصفقة بكل اخلاص وأمانة تحقيقا لوعودنا ببعث سيل لاينقطع من المساعدات . ونحن نرجو ألا تقضوا على الهدف كله بهذا الجلاء .

ويلزمنا أن نجد المبرر الكافى لهذه الحال النفسيةالتى وجدتأستراليا نفسها فيها بسبب الفاعلية المرعبة لجهاز الحرب اليابانى . فقــــد زالت قيادة المحيط الهادى ، وكان فى مصر ثلاث من أحســـن فرق الاستراليين العسكرية وكانت الرابعة فى سنغافورة . وقد فهموا أن سنغـــافورة يهددها خطر عاجل وخشوا أن تغزى استراليا نفسها فعــلا وتســـقط كل مدنهم الكبرى التى تشمل أكثر من نصف سكان القارة على شــاطىء المحيط . وبدءوا الآن يقابلون توقع هجرة جماعة الى الداخل ، وترتيب حرب عصابات من غير أن تكون عندهم مخازن أو مؤن كافية ، ومعـــاونة الوطن الأب . قضية غير متوقعة ، وليس فى الوسع ارجاع فرض القوة الامريكية فى المياه الاسترالية الا بعد وقت وبشكل تدريجى . ولم أعتقد أن اليابانيين سيغزون استراليا بعد أن يقطعوا ثلاثة آلاف ميل من مياه المحيطات ، فى الظرف الذى تكون فيه فى متناول أيديهم فريسة سهلة فى جزر الهند الهولندية . والملايو . بيد أن الحكومة الاسترالية كانت تنظر الى الموضوع من ناحية مختلفة ، وكانت ثمة عوامل كثيرة تضغط عليها . واستمرت ــ الخلافات الحزبية فى استراليا قائمة حتىبشأن هذه المشكلات الشائكة المعقدة.ولم تتجاوز أكثرية الحكومة العمالية فى البرلمان عضوين. وكانت الحكومة تعارض مشروع الخدمة الاجبارية حتى للدفاع الداخلى . ولم تنشأ فى البلاد حكومة قومية مع أن المعارضـــة قد مثلت فى مجلس الحرب .

ومع ذلك كانت برقية المستر كيرتن خطيرة ، غير مألوفة . فاستخدام عبارة « الغدر الذى لايستطاع التساهل فيه » لم يكن متفقا مع الحقيقة أو مع الوقائع العسكرية . فثمة كارثة مرعبة تدنو منا شيئا فشيئا . فهل فى طاقتنا أن نتفاداها ؟ وكيف يقوم ميزان المكاسب والخسائر ؟ وحتى هذا الحين كان تقسيم المهمة لا يزال تحت اشرافنـــا . ولم يكن فى طاقة لجنة الحرب الاسترالية أن تقدر الموقف كله . والا ماحض كيرتن علىضرورة ترك بورما ، وهى التى أثبتت الوقائع أنهــــا المكان الوحيد الذى لدينا وسائل نجدته .

وليس من العدل أن يقـــال أن رسالة المستر كيرتن هى التى قررت القضية . ولو اتفقنا كلنـــا على السياسة التى يتحتم الاتفاق عليها كمـــا اقترحت لكان فى وسعنا أن نتقدم الى ويفل بقرارنا الذى اتفقنا عليــــه . ولكننىرأيت شيئا من التشدد فى الرأى فى معارضة ترك هذا الموقع الهام

المشهور فى الشرق الاقصى • وكان من العسير أن يتخيل الانسان ما يمكن أن يظهر من أثر لمثل هذا « القرار » البريطانى فى كل جهات العالم وخاصة فى أمريكا ، فى الظرف الذى يحارب الامريكيون فيه بعناد واصرار فى كوريجيدور • ولم يكن ثمة ريب مطلقا فى طبيعة القرار الذى كان من المفروض أن يتخذ على هدى الاعتبارات العسكرية المجردة • وهكذا تقرر باتفاق الجميع أن تبذل كل الالتماسات لتعزيز سنغافورة وتقوية دفاعها • وذهبت الفرقة البريطانية الثامنة عشرة ، التى أنزل جزء منها • تتم انزالها •

وعلى أية حال كان وزن هذه المساعدات وغيرها ، أقل مما تومىء به أعدادها فقد كانت تفتقر الى بعض الوقت لتجهيزها من جهة تكتيكية ، ولكن كان واجبها أن تلقى بنفسها فى أتون المعركة الفاشلة عقب نزولها • وتركزت على طائراتناالمحاربة من طراز « الهاريكين » التى أرسلنا أعدادا منها الى الميدان ، آمال كبيرة • لأن فى وسع هذه الطائرات من جهة كيفها أن تكون ندا للطائرات اليابانية • وقد جمعت بسرعة فائقة ، وألقى بها من الجو • واستطاعت فىالايام الاولى أن تنزل أضرارا جسيمة • ولكن غرابة الاوضاع العامة على من وصل من الطيارين حديثا ، وكثرة عدد اليابانيين، جعلا خسائرنا باهظة • وبدأت قوتنا الجوية تضعف بسرعة • وكانت عند اليابانيين خمس فرق تامة • وبدأ جنودهم ينزلون الى الساحل بطريقة مذهلة ، وفى السابع والعشرين من يناير قرر الجنرال برسينال الانسحاب الى جزيرة سنغافورة بسرعة ، وكان لا بد أن يمر كل رجل وكل سيارة بطريق الجسر فى المرحلة الاخيرة ،وقد خسرنا الجزء الاكبر من لواء واحد فى المراحل الاولى ، ولكن أكثر القوات مرت بالجزيرة فى صباح الحادى والثلاثين من يناير مجتازة طريق الجسر الذى قامت قواتنا بنسفه • ولم نكن فى الوطن نعلق آمالا كاذبة على توقع امتداد الدفاع ولكن السؤال الوحيد الذى كان يدور فى أذهاننا هو الى متى سيمتد الدفاع ؟ ولم تكن المدافع الكبيرة فى التحصينات الدفاعية التى يمكنها أن تطلق نيرانها جهة الشمال ،لها جدوى وفائدة عظيمة ، لذخيرتها المحدودة ، وانطلاقها تجاه أرض تكسوها الادغال ، ويجمع فيها العدو قواته • ولم يبق فى الجزيرة غير سرب واحد من الطائرات المحاربة ، وليس بها الا مطار واحد يصلح للاستعمال • وقد أثرت الخسائر والضياع فى خفض عدد أفراد الحامية من مائة وستة آلاف كما قدرتهم وزارة الحربية الى ما يقرب من خمسة وثمانين ألفا منهمرجال الوحدات الادارية والجنود غير المقاتلين • وكان مايقرب من سبعين ألفا من هؤلاء مسلحين ولم يتفق اعداد أجهزة الميدان الدفاعية والمواقع ، بالرغم مما بذل فيها من جهود محلية ضخمة ، مع ضرورتها الملحة التى بدت الآن • ولم تكن ثمة خطوط دفاعية راسخة على الجبهة المتصدية الآن للهجوم • وقد وهنت روح الجيش المعنوية بسبب تقهقر الجيش الممتد ، والقتال المرهق فىشبه الجزيرة • وخلف الجميع تقوممدينة سنغافورة التى كانت تضم حينئذ ما لا يقل عن مليون شخص يمثلون عدة جنسيات من بينهم جمع زاخر من اللاجئين •

وفى صباح الثامن من فبراير ذكرت الدوريات أن العدو يجمع قوات كبيرة فى الحقول الواقعة شمال غربى الجزيرة • وتصدت مراكزنا لقصف

المدفعية الشديد . وفي الساعة العاشرة والدقيقة الخامسة والاربعين مساء بدأت طلائع موجات الهجوم تجتاز مضيق جوهور في قوارب انزال مدرعة، أتى بها نتيجة تخطيط طويل دقيق، الى مواقع الهجوم بطريق البر . وجرى قتال وحشي . وأغرقت بعض قطع الانزال ، ولكن قوات استراليا البرية كانت ضعيفة واستطاعت فرق من العدو أن تنزل في عدة أماكن . وفي الليلة التالية حدث هجوم جديد مشابه حول طريق الجسر . ونجح العدو من جديد في ايجاد مكان له . وامتاز الحادي عشر من فبراير بقتال مضطرب على امتداد الجبهة كلها . وكان طريق الجسر قد دمر من الجهة المقابلة للعدو، وأمكن اصلاحه بسرعة بعد تراجع قوات تغطينا وتقدم الحرس الامبراطوري الياباني على امتداد الجسر تلك الليلة . وفي الثالث عشر من فبراير نفذت الخطة المعدة لاجلاء ما يقرب من ثلاثة آلاف شخص معروفين عن طريق البحر الى جزيرة جاوه وأكثرهم من القادة المهمين وضباط الاركان والممرضات وآخرين تعد خدماتهم لازمة لمواصلة الحرب .

وقد بلغت الاوضاع في الجزيرة الآن درجة مخيفة ، فقد توقف العمل الاداري وتدهور ، وأصبح خطر توقف مشروع المياه ماثلا ، وقل ما عند الجنود من احتياطي المؤن والذخيرة ،بسبب وقوع بعض المستودعات في قبضة العدو ، وشرع في تنفيذ برنامج التدمير المنظم على قدم وساق ، وحطمت مدافع التحصينات الدفاعية الراسخة وكل مدافع الميدان والمدافع المضادة للطائرات ، والاجهزة وأحرقت الوثائق السرية أيضا ، وفجرت كل مخازن الوقود ومستودعات قنابل الطائرات وحدث بعض الاضطراب من جراء عمليات التدمير في القاعدة البحرية . ولكن الاوامر صدرت فأغرق الحوض العائم . وحطمت الطلمبات وروافع البواخر . ولكن معظم تفاصيل خطة التحطيم لم ينفذ بدقة .

وفي الرابع عشر من فبراير أرسل ويفل الى الرسالة التالية التي ظهرت لي أخيرا وقاطعه :

« تناولت رسالة من بيرسيفال تقول ان العدو دنا من المدينة وأن قواته لم تعد تستطيع شن أية هجمات مضادة . أمرته بالاستمرار في انزال أقصى ما يستطيع من الاضرار بالعدو وبالقتال في المنازل والشوارع اذا اقتضى الامر . لكنني أخاف على أي حال ألا تمتد المقاومة » .

وعسى القارىء يذكر الآن المذكرة التي أرسلتها الى رؤساء أركان الحرب في الحادي والعشرين من يناير حول ترك الدفاع عن سنغافورة وتوجيه المساعدات الى بورما . وكيف أنني لم أتمسك بهذه النقطة . وحينما تصلبت أفئدتنا جميعا حول قرارنا بالدفاع عن سنغافورة ، كان الأمل الوحيد في الفوز وفي كسب الزمن ، وهو كل ما كان في طاقتنا أن نأمله ، أن نصدر الاوامر القاطعة بالسير في القتال اليائس حتى النهاية . وقد ارتضى الجنرال ويفل هذه الاوامر واحتضنها وضغط على الجنرال بيرسيفال لتنفيذها . ومن الصواب أبدا ألا يعلم القائد في الميدان بمايجري من ريب في ذروة الجهاز المشرف على ادارة الحرب ، وأن يتلقى توجيهاته سهلة وجلية . أما الآن وقد بان لي أن كل شيء قد انتهى في سنغافورة

فقد رأيت أن من الخطأ مواصلة مذبحة لا داعى لها ، وليس عندنا أمل فى الظفر ، باجبار المدينة الشاسعة على اقتحام أهوال معركة شوارع ،يذهب ضحيتها السكان الخائفون والقانطون والذين هيمن عليهم الذعر٠وأخبرت الجنرال بروك رأيى فلقيته متفقا معى ، على ألا نفرض ضغطا من ناحيتنا على الجنرال ويفل وأن نمكنه من اصـــــدار القرار الذى لا مناص منه ، والذى نتقاسم فيه المسئولية ٠

وفى يوم الأحد الخامس عشر من فبراير عام ١٩٤٢ حـــــل وقت الاستسلام وليس ثمة فى الجزيرة من احتياطى الغذاء للعسكريين أكثر من مقدار يكفى عدة أيام ، كما نفد عتاد المدافع ولم يبق وقود للسيارات ٠ والأدهى من هذا كله أن تموين الماء لم يكف أكثر من أربع وعشرين ساعة أخرى ٠ ونصح كبار ضباط الحامية قائدهم الجنرال برســيفال ، بأن الاستسلام هو الطريق الوحيد لأن القوات المجهدة لم يعد فى طاقتها أن تقوم بهجوم مضاد وقرر برسيفال الاستسلام وطلب اليابانيون أن يكون مجردا بلا قيد أو شرط ، فقبل طلبهم ٠ وفى الثامنة والنصف مســـاء توقفت العمليات الحربية ٠

جنة الغواصات

بالرغم مما حدث من تعديل فى حكومتى ، لم يتأثر مركزى طوال هذه المدة من الاضطراب السياسى ، والتغيرات فى الوطن ، والكوارث فى الخارج ، وكانت المشكلات التى تحدث من ساعة الى أخرى تشغلنى كثيرا ، حتى انه لم يكن عندى وقت كاف للتفكير فيها. وبان أن سلطاتى الشخصية قد قواها ماحام حول بعض رفاقى الوزراء أو الأشخاص الذين يصحبونهم من ريب ، ولم أقاس من الرغبة فى التخلى عن بعض مسئولياتى . وكان ما أرغب فيه هو الموافقة على ما أريده بعد نقاش معقول . وقد قربت الكوارث بينى وبين رؤساء أركان الحرب ، وقد شعرت كل دوائر الحكومة بهذه الوحدة . ولم تكن هناك همسات عن دسائس أو شقاق فى وزارة الحرب ، أو فى صفوف مجلس الوزراء الأكبر حجما ، ومع ذلك كان ثمة ضغط متواصل من الخارج لتغيير أساليبى فى توجيه دفة الحـــرب . للحصول على نتائج أفضل من النتائج الحالية . وكانت النظرية المسيطرة تقول . كلنا مع رئيس الوزراء ، ولكنه مجهد بالعمل ، ويجب أن نرفع عن عاتقه بعض الاثقـــال . وكانت ثمة نظريات أخرى . لكننى كنت مصرا اصرارا تاما على الاحتفاظ بكل سلطاتى فى توجيه دفة الحـــرب . ولا يستطاع تحقيق هذا الا بالجمع بين منصبى رئيس الوزراء ووزارة الدفاع ، وفى العادة تكون المشقة والجهد فى الانتصار على المعارضة وتسوية الآراء المتعارضة والمتضاربة ، لا فى اصدار القرارات نفسها ، ومن المهم جدا أن يكون ثم فى القمة عقل واحد يهيمن على كل الميادين . ويعالج بصدق وتصوب أخطاؤه باخلاص . بشرط ألا يكون هـذا العقل مقسما . ولن أظل طبعا فى منصب رياسة الوزارة ساعة واحدة اذا حرمت منصب وزارة الدفاع . وكان ادراك الجميع لهذه الحقيقة سببا فى ابعاد أى تحـد لى . حتى فى أشد الأوقات وأقساها . وهكذا تدهورت أكثر الاقتراحات الصادرة عن نية حسنة ، أو المتضمنة انشاء لجان أو أجهزة عامة . ويلزمنى أن أسجل هنا شكرى العميق لكل هؤلاء الذين أعانونى على التغلب على هذه المشقة .

وكتب علينا أن توافينا سنة ١٩٤٢ برجات فى غاية القســـوة . ففى الأشهر الستة الأولى منها ، تعثرت الأمور تعثرا مخيفا ، وكانت معركة الأطلنطى أقسى الجبهات ـ فقد زاد أسطول الغواصات الى ما يقرب من مائتين وخمسين غواصة . وكان فى طـــاقة الأميرال دونتس أن يبلغ الفوهرر أن مائة منها على الأقل تعمل مع خمس عشرة غواصة أخـــرى تخرج الى عرض البحر كل شهر . وبدأت هذه الغواصات تشق المياه الامريكية متحدية أية رقابة أو هيمنة . ووصلت خسائر شهر ينــاير الى احـــدى وثلاثين باخرة . حمولتها مائتا ألف طن ، غرقت على كثب من الساحلين الأمريكى والكندى . وامتد الهجوم بسرعة جنوبا الى هامبتون

رودز وراسى هايتراس ومن ثمة الى ساحل فلوريدا • وقد حدث هجوم على الممر المائى الكبير فى ظرف كانت البواخر الامريكية والحليفة ليس فيها سلاح للمقاومة • وعلى امتداد هذا السبيل يسير أسطول ناقلات البترول الثمين سيرا متواصلا من موانى النفط الى فنزويلا وخليج المكسيك ثم اليها • وقد وجدت الغواصات لها هنا فى البحر الكاريبى فرائس ثمينة من الناقلات •

وهوجمت بواخر الدول المحايدة دون تمييز ، واتسعت دائرة المذبحة اسبوعا بعد أسبوع • وفى شهر فبراير حطمت الغواصات احدى وسبعين باخرة حمولتها (٣٨٤) ألف طن فى الاطلنطى ، غرقت كلها ماعدا باخرتين فى المنطقة الأمريكية وكان هذا أقصى رقم قياسى فيما تحملناه من خسائر حتى الآن ، ولكن هذا الرقم تحطم بسرعة أيضا •

وقد تم كل هذا التحطيم الذى بز كل ما عرفناه فى هذه الحرب ، وان لم يبلغ أرقام النوازل التى منينا بها فى أسوأ أيام سنة ١٩١٧ على أيدى مالا يربو على اثنتى عشرة أو خمس عشرة غواصة تعمل فى المنطقة فى وقت واحد • واستمرت الحماية التى يقدمها الاسطول الامريكى بضعة أشهر ، غير كافية بصورة تدعو الى اليأس • ومن المحير أنه ابان عامين من دنو الحرب الجماعية من القارة الأمريكية لم تتخذ وسائل وقائية أكبر ضد هذا السلاح الفتاك • وكانت أمريكا قد قدمت لنا كل شىء بمقتضى سياسة الرئيس القائلة بتقديم كل معونة الى بريطانيا ماعدا ــ الحرب • وكنا قد نلنا خمسين مدمرة أمريكية قديمة وعشر بواخر من مكافحات التهريب ، مقابل القواعد النفيسة فى جزر الهند الغربية • ولكن هاهى ذى حليفتنا تفتقد هذه القطع الآن • فقد أخذ المحيط الهادى بعد معركة ميناء الدر يضغط بشدة على أسطول أمريكا ، ومن العجيب حقا أنهم بالرغم من كل ما حصلوا عليه من بيانات عن اجراءاتنا الدفاعية خوضهم الصراع وبعده ، لم يضعوا خططا للقوافل الساحلية أو حراسة سفنهم الصغيرة الكثيرة • ولم يطوروا سلاحهم الجوى الدفاعى الساحلى كذلك • ولم يجتز السلاح الجوى الأمريكى الذى يشرف على كل الطائرات الحربية العاملة فى قواعد ساحلية ، أى تمرين على حرب مكافحة الغواصات فى حين كان الأسطول وهو المعد بالطائرات العائمة والطائرات البرمائية، يحتاج الى الوسائل لمكافحة هذه الغواصات • وليس ممكنا فى هذه الأشهر الصعبة ايجاد جهاز دفاعى أمريكى فعال ، الا بخطى عسيرة تتوقف بين وقت وآخر •

ولو دفع الألمان ببوارجهم العائمة الضخمة فى معركة الأطلنطى فى هذه المرحلة لكانت خسائرنا أثقل وأضخم ، ولكن هتلر كانت تهيمن عليه الفكرة التى تقول اننا ننوى غزو شمال النرويج فى وقت مبكر وهكذا ضحى بفرصة وضاءة تصميما منه على خطته التى تستهدف القتال فى جبهة واحدة فى آن واحد ، اذ جمع كل ما استطاع من قطع بحرية ومن غواصات نفيسة فى المياه النرويجية • وكان يقول : ان النرويج هى مكان الغدر فى هذه الحرب • وبالطبع كانت النرويج مهمة للغاية ولكن فرصة الألمان كانت فى الاطلنطى اذ ذاك • وأراد أمراء البحرية أن

يستدرجوه الى شن هجوم بحرى ، ولــــكن فوهررهم استمر جامدا كالصخرة ، وقد فوت ندرة الوقود قراره الاستراتيجى وقد أرسل فى شهر يناير بارجته الوحيدة « تيربيتز » وهى أقوى بارجة فى العالم ، الى تروند هايم ، وفى الثـانى عشر قــرر أن يستدعى الى موانى الوطــن الطرادين ، البترجتين شارنهورست وجنتزناو اللذين أجهــز عليهمـــا بالحصار فى بريست منذ سنة تقريبا • وقد دفع هذا الى حادث سبب كثيرا من التوتر والثورة فى انجلترا مما يستدعى البيان والتوضيح •

كان مامنينا به من خسائر بالغة فى البحر المتوسط ، والشلل المؤقت الذى أحدق بأسطولنا الشرقى كله ، من الدوافع التى أجبرتنا على أن نرسل كل ما لدينا من الطائرات حاملات الطوربيد الى مصر للدفاع عنها ضد ما يتوقع من غزو بحرى • ولكنا اتخذنا فى الوقت نفسه كل التأهبات المستطاعة لمراقبة بريست ومهاجمة أية محاولة للخروج قــد تقوم بها البارجتان بالقنابل وبالطوربيدات فى الجو والبحر • وبثثنـا الألغام على امتداد الطريق الذى يتوقع مرور البارجتين به مجتازة بحــر المانش والساحل الهولندى • وارتقبت الأميرالية أن تجرى المحــاولة لاجتياز مضايق دوفر فى الليل ، ولكن الأميرال الألمانى فضل استغلال الظلام لتفادى دورياتنا حين تركه بريست ، والمخاطرة بالمرور أمام مدافع دوفر فى وضح النهار وهكذا أبحر من تريست فى الحادى عشر من فبراير قبيل منتصف الليل • وكان صباح الثانى عشر كثيف الضباب • وحينما أبصرت بارجتنا العدو ، عجز رادار طائرات دورياتنا عن تحديد موقعهما ، وعجز رادارنا الساحلى أيضا عن هذا التحديد • وتراءى لنـــا حينئذ أن الأمر ناتج عن حادث طارىء بسبب سوء الحظ • ولكننا عرفنا بعــد انتهاء الحرب أن الجنرال مارتينى رئيس الرادار الألمانى قد وضع خطة متقنة وكانت التأثيرات الألمانية المضادة على أجهزتنا حتى هذا الوقت غير مفيدة • ولكنها تضاعفت بفضل ادخال أجهزة حديثة • ولكن خوفا من اثارة شبهات قواتنا الجوية شرعت هذه الأجهزة فى عملها بصورة تدريجية، بحيث لا تبدو التأثيرات المضادة بصورة جلية الا يوما بعد آخر ولهذا لم يرتب عمال اللاسلكى لدينا فى أى شىء ، ولم تخــالط الريب أى انسان فى وجود شىء غير عادى • ولكن التأثيرات المضـــادة كانت يوم الثانى عشر قوية ، لدرجة أضحت معه أجهزة الرقابة الرادارية غير مفيدة • ولم تتلق الأميرالية الأخبار الا فى الســـاعة الحادية عشرة والدقيقة الخامسة والعشرين وقد وصلت البارجتان مع القوات الحارسة لها جوا وبحرا • الى مدى عشرين ميلا من بولون • وقذفت مدافع دوفر بعد الظهر نيرانها الحامية ، وقامت خمسة زوارق من قاذفات الطوربيد فورا بهجوم فى البحر ومن قاعدة مانستون فى « كنت » قامت ســت طائرات من حاملات الطوربيد بقيادة الكوماندور ايزموند بهجوم دون ارتقاب، معاونة عشر طائرات من قاذفات اللهب كانت فى سبيلها لمعـــاونتها • وهاجمت مقاتلات العدو طائراتنا بقوة ولكن هذه استطاعت أن ترمى طوربيداتها بعد أن منيت بخسائر شديدة ، فقد خسرت الطائرات الست • ولم ينج غير خمسة من رجالها • ومنح ايزموند وسام صليب فكتوريا بعد وفاته •

واستمرت موجات متتالية من القاذفات وحاملات الطوربيد تهاجم العدو حتى نزول الظلام · وكان ثمة قتال شديد مضطرب مع المقاتلات الألمانية منينا خلاله بخسائر شديدة تفوق خسائر العدو ، وذلك لتفوقه فى العدد علينا · وحينما دنت بارجتا العدو من الساحل الهولندى فى الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر هاجمتها خمس مدمرات قامت من قاعدة « هارويش » وأطلقت عليها الطوربيدات من مسافة ثلاثة آلاف ياردة تحت ضغط نيران مرعبة · وذهب السرب الألمانى دون أن يصاب من نيران البطاريات الساحلية أو من الطوربيدات ، وفى صباح الثالث عشر وصلت كل قطعة سالمة الى أرض الوطن · وقد حيرت هذه الاخبار الرأى العام البريطانى الذى لم يمكنه أن يفهم ما قرأه « الا على أساس أنه برهان على سيادة ألمانيا على بحر المانش » · وفى سرعة استبان جهاز مخابراتنا السرية ، أن البارجتين ، الطرادتين شارنهورست وجينزناو قد أصيبتا بالغامنا التى ألقيناها من الجو ، وقد مضت ستة أشهر قبل أن يتمكن جينزناو من استئنافه العمل ، أما شارنهورست فلم يرجع قط الى الظهور فى البحر ، ولكننا لم يمكننا اذاعة ذلك · واستمر غضب الشعب مهيمنا وقويا ·

ورغبة منا فى محو الريب قررنا عمل تحقيق رسمى قام بنشر ما سردته من حقائق واذا تطلعنا الى الحقائق على هدى ما تبيناه فيما بعد وعلى هدى الجهات العامة · فان سير القصة كان لمصلحتنا تماما · وأبرق الرئيس يقول : وحينما أتحدث الى الشعب فى الاذاعة مساء الاثنين القادم · سأومىء الى أولئك الناس الذين يتكلمون عن قصة القناة الانجليزية وكأنها هزيمة · وأنا أكثر يقينا الآن بأن حصر كل البواخر الالمانية فى ألمانيا سيجعل مشكلاتنا البحرية فى شمال الاطلنطى أقل صعوبة وأكثر سهولة ولكن الصورة ظهرت سيئة لكل شخص فى دول الحلف الأكبر خارج دائرة حلقاتنا السرية ·

وفى خلال ذلك كان التوتر مهيمنا على ساحل أمريكا المشرف على الاطلنطى وأرسل قائد احدى الغواصات تقريرا الى الاميرال دونتس يقول فيه : انه لو زاد عدد الغواصات الى عشرة أضعاف فانها تجد أهدافا يسيرة المنال وكانت الغواصات تستجم فى قاع البحر طوال النهار ، وحينما يحل المساء تبادر الى افتراس أثمن صيد لها · وكان كل طوربيد تحمله يلقى فريسة له · وحينما ينتهى ما تحمله من طوربيدات ، تستخدم مدافعها وتحقق بها النتائج التى ترغب فيها · وكانت المدن الواقعة على ساحل الاطلنطى ، والتى تستمر واجهاتها المائية مضاءة طول الليل كله ، تسمع كل ليلة أصوات المعركة ، وتبصر الحرائق الناتجة عما يغرق من بواخر قرب الساحل ، فتبادر الى انقاذ الناجين والغرقى · وقد احتدم الغضب واحتدمت المرارة من الادارة الامريكية التى غدت حائرة · ولكن يظل من الأيسر استثارة — الامريكيين لارهابهم وازعاجهم ·

وكنا فى لندن ننظر الى هذه الكوارث بعيون يملؤها الأسى والقلق وفى العاشر من شهر فبراير قدمنا أربعا وعشرين سفينة من أحسن السفن المقاومة للغواصات لدينا والمعدة أحسن اعداد ، وعشر سفن أخرى

من ذات المدفع الواحـــد مع بحارتها الى الاسطول الامريكى • واحتفت حليفتنا بهذه الهدية النفيسة التى وصلت أولى قطعها الى نيويورك فى اليوم الأول من مارس • وكانت هذه المعونة يسيرة الا أنها كانت أقصى ماوسعنا تقديمه ولم يكن فى الوسع تجهيز قوافل ساحلية الى أن يتم اقامة تنظيم خاص به تسنده وحدات الحراسة • وأسند أولا الى الطائرات والسفن الحربية المتيسرة الدفاع عن المناطق المهـددة فبدأت غواصـــات العدو تتفادى هذه المناطق وتفتش عن صيد فى منـــاطق أخرى وانصب الضغط الشديد الآن على المنطقة الواقعة بين شارلستون ونيويورك ، فى حين كانت الغواصات الفردية تسير خلال مياه الكاريبى وخليج المكسيك ، بحرية وانطلاق كان من العسير توقفهما ووصلت حمولة السفن الغرقى الى ما يقرب من نصف المليون طن ، وقد غرق أكثرها على مدى ثلاثمائة ميل من الساحل الامريكى ونصفها من ناقلات النفط • ولم تنجـــح الطائرات الأمريكية فى اغراق أكثر من غواصتين فى المياه الأمريكية ، ولم تتمكن البوارج العائمة من اغراق أية غواصة حتى الرابع عشر من ابريل ، حينما أغرقت المدمرة الأمريكية « روبر » غواصة ألمانية •

وفى أوربا انقضى شهر مارس بمغامرة سان نازير البطولية الهائلة وكان هذا هو الميناء الوحيد على ساحل الاطلنطى ، الذى يمكن تيربيتز أن تقصد اليه لاصلاح ما يلحق بها من دمار اذا أصيبت • فاذا أمكن تحطيم أحواض السفن فيها ، وهى من أكبر الاحواض فى العالم • فان خروج تيربيتز من تروند هايم الى الاطلنطى يصبح فى غاية الخطورة ولا يستوجب المغامرة وكان فدائيونا تواقين لاقتحام المعركة ، وهنا يظهر العمل المجيد ، ويتعلق بأعظم ما فى الحرب من خطط استراتيجية • وبعد ظهر السادس والعشرين من مارس تحركت من ميناء فالماوث حملة من المدمرات والسفن الساحلية الخفيفة بقيادة الكوماندور رايدر من الأسطول الملكى ، والعقيد نيومان من كتيبة ايسكس ، تقل ما يقرب من مائتين وخمسين فدائيا ، وكان عليهم أن يجوبوا أربعمائة ميل من البحر الذى تسير فيه دائمـــا دوريات معادية • ثم يصعدوا خمسة أميال فى مصب نهر اللوار •

وكان الغرض هو تدمير أبواب القفل الكبير . وتقدمت كامبلتاون ، وهى احدى المدمرات الأمريكية الخمسين القديمة ، تحمل ثلاثة أطنان من المتفجرات الشديدة الى مداخل القفل ، تحت بأس نار شديدة قوية، وهنا أخرقت المدمرة تمهيدا لاغراقها ، وجهزت الفتائل والكبســـــولات لتفجير ما تحمله من متفجرات تحت اشراف مساعد الكوماندور بيتى • ووثب من فوقها الرائد كوبلاند مع جماعة معدة للنزول لتحطيم أجهزة الأحواض . وواجههم الألمان بقوة رائعة ، وبدأ قتال وحشى ، وقتل كل الذين أنزلوا أو أسروا ما عدا خمسة فقط . واستمرت سفن الكوماندور رايدر عائمة بمعجزة بالرغم من اطلاق النار عليها من كل النواحى ، الى أن أمكن الافلات الى البحر بمن بقى على متنهـــا ورجعوا ســـالمين الى الوطن • لكن انفجارا كبيرا ســـيقع فيما بعد ، بسبب حـدوث خطأ فى الكبسـولات ، وفى اليوم التالى ، وكان عدد كبير من الضـــباط الألمـــان والفنيين يقـــومون بتفتيش حطام المدمرة كامبلتاون التى أخرقت ونفذت المياه اليها فى بوابات القفـــل • قضى على مئات من الالمان حينما انفجرت

المدمرة بصورة مفزعة ، واهتزت جوانب القفل الكبير المدة الباقية من الحرب . وعامل الألمان الأسرى باحترام بالغ ، وكان قد أنعم على أربعة منهم بوسام صليب فكتوريا ، في حين أنزلت عقوبة شديدة بالفرنسيين البسلاء الذين بادروا حين وقوع الحادث من كل مكان لمعاونة البريطانيين في تنفيذ ما تصوروه بداية معركة التحرير .

وفي الاول من ابريل استطاع أسطول أمريكا في النهاية أن يبدأ في ترتيب قوافل جزئية . ولم يتجاوز هذا التنسيق في بداية الأمر القيام بوثبات نهارية مسافة الواحدة منها مائة وعشرون ميلا تقطعها القوافل كل نهار بين الموانى التى تحرسها حراسة قوية ، وفى الليل تتوقف حركة الملاحة جميعها . وكان ثمة ما يقرب من مائة وعشرين باخرة تفتقر الى الحماية كل يوم بين فلوريدا ونيويورك ، وكان هذا التأخر فى التنقل كارثة ولكن بصورة أخرى . وفى الرابع عشر من مايو أقلعت القافلة الأولى المنسقة تنسيقا دقيقا من هامبتون رودز الى كى ويست ، وفى سرعة امتد التنظيم شمالا الى نيويورك ، وهاليفاكس ، ولم يات آخر الشهر حتى كانت الدائرة قد تمت على امتداد الساحل الشرقى من كى ويست الى الشمال . وهكذا كان الابلال فوريا ، وسرعان ما وقعت الخسائر .

وفى سرعة انتقل الأميرال دونتس بمراكز هجومه الى البحر الكاريبى وخليج المكسيك ، حيث ان نظام القوافل لم يكن قد أتبع بعد . وانفسحت نواحي نشاط الغواصات فبدأت تظهر أمام ساحل البرازيل وفى نهر سنت لورنس ، ولم يكن فى الوسع اتمام نظام القوافل ليغطى كل هذه البحار والمحيطات الواسعة قبل آخر العام . ولكن شهر يونية شهد تقدما جليا ، وفى الوسع اعتبار الأيام الأخيرة من شهر يوليه نهاية المجزرة الشنيعة التى نزلت بالبواخر على الساحل الأمريكي . ووصلت خسائر الحلفاء فى الاطلنطى من الغواصات فى سبعة أشهر الى أكثر من ثلاثة ملايين طن ، شملت (١٨١) باخرة بريطانية حمولتها (١ر١٣٠ر٠٠٠) طن ، أدنى من عشرها كان مع القوافل . وحتى شهر يوليه لم يخسر العدو أكثر من اربع عشرة غواصة غرقت فى الاطلنطى والمحيط المتجمد الشمالى ، غرق منها ست فقط فى مياه أمريكا الشمالية .

واستردنا زمام المبادرة بعد هذا التاريخ . فأغرقنا فى شهر يوليه وحده خمس غواصات على ساحل الاطلنطى الى جانب ست غواصات ألمانية أخرى وثلاث ايطالية أغرقت فى مناطق نائية . ودفع هذا الرقم القياسي الذى وصل فى شهر واحد الى اربع عشرة غواصة نصفها بالبوارج الحارسة للقوافل ، الى بعث الشجاعة والرجاء فى نفوسنا ، لقد كانت احسن نتيجة حققناها حتى الآن ، لكن عدد الغواصات التى كانت تنزل الى البحر كل شهر ما برح متفوقا على ما نغرقه منها وكان الأميرال دونتس* الى جانب هذا يغير أماكن غواصاته فى الوقت الذى كنا نبدأ انتصاراتنا ، فانفساح آفاق المحيطات يضمن باستمرار وقتا قصيرا من الحصانة فى منطقة جديدة . وفى شهر مايو فقدت قافلة من عابرات الاطلنطى سبع بواخر على مدى سبعمائة ميل الى الغرب من ايرلنده . وسرعان ما أدركتنا كارثة أخرى قرب جبل

طارق ، وعادت الفواصات من جديد تظهر حول فريتاون . وقدم هتلر مرة أخرى لنجدتها بتصميمه على ابقاء عدد من الغواصات متأهبة لاحباط محاولة الحلفاء القيام بالاستيلاء على جزر الآزور أو جزر ماديرا ، ولم تكن فكرته فى هذه الناحية فى غير مكانها ، ولكن طلبه أتى متسقا مع انقضاء أيام الهدوء على الساحل الأمريكي كان أسوأ ما ينزل بنا هو هجمات الفواصات ، وكانت الحكمة تقضي على الألمان بالمقامرة بكل شيء على هذا النحو ، وانى لأذكر ما كان يقوله أبى : يجب أن تتمسك فى دنيا السياسة بما تضع يدك عليه »

ولا مرية فى أن هذه الحكمة تنطبق على الأسس الاستراتيجية كذلك وكما كان جورنج ينقل دائما اهدافه الجوية فى معركة بريطانيا سنة ١٩٤٠ ، كذلك وهنت الآن حرب الفواصات من جراء عوامل الجذب المنافسة ، قد يكون من الأفضل هنا أن ننتقل الى سرد الأحداث فى أماكن أخرى وأن نسجل فى ايجاز تطور معركة الاطلنطى حتى آخر سنة ١٩٤٢ .

ففى شهر أغسطس حولت الفواصات عنايتها الى المنطقة المحدقة بترينيداد والساحل الشمالى للبرازيل ، وجهات أهدافها البواخر التى تحمل مسحوق الالومنيوم اللازم لصناعة الطائرات الى أمريكا ، والبواخر التى تنقل المؤن الى الشرق الاوسط ، وكان بعضها يعمل على كثب من فريتاون ، فى حين نزل بعضها الآخر جنوبا قرب رأس الرجاء الصالح ، وتوغل عدد قليل فى المحيط الهندى . واصبح جنوب الاطلنطى مبعث ازعاج لنا فترة من الزمن ، وفى شهرى سبتمبر وأكتوبر غرقت خمس بواخر كبيرة للركاب كانت تبحر منفردة ، فى حين استطاعت كل سفننا الحاملة للجنود والمتجهة الى الشرق الأوسط فى قوافل ، أن تمر بسلام دون أن تصاب وكانت لاكونيا التى تحمل عشرين ألف طن ضمن البواخر التى غرقت وعلى متنها ألفان من الأسرى الايطاليين كانوا فى سبيلهم الى انجلترا ، وقد غرق عدد كبير منهم

واستؤنفت المعركة الآن فى طرق القوافل الرئيسية فى شمال الاطلنطى وكانت الفواصات قد اخذت تقدر قوة الهواء . ولهذا فقد حصرت جهودها فى هجماتها الجديدة فى وسط الاطلنطى بعيدة عن الطائرات العاملة من ايسلنده ونيوفوندلند . وفى شهر اغسطس أصيبت قافلتان بخسائر شديدة ، فقد غرق من احداهما احدى عشرة باخرة ، وافلحت الفواصات فى هذا الشهر فى اغراق مائة وثمانى بواخر تربو حمولتها على نصف المليون طن . وفى شهرى سبتمبر وأكتوبر رجع الألمان الى اجرائهم السالف فى الغارات السطحية فى وضح النهار . ولما استخدموا أعدادا كبيرة فى مجموعات تشبه مجموعات الذئاب للقيام بالهجوم ، ولما كانت مواردنا محدودة ، فانه لم يكن فى طاقتنا أن نتفادى الخسائر الشديدة وخاصة اننا فقدنا العدد الكافى من الطائرات البعيدة المدى جدا فى القيادة الساحلية . وكان الفطاء الجوى يمتد الى مسافة تبعد ستمائة ميل عن قواعدنا الساحلية وأربعمائة ميل عن نيوفوندلند ، مما جعل هناك فجوة كبيرة فى وسط المحيط الاطلنطى تحتاج الى الحراسة ، حيث ان سفن الحراسة البحرية

لا تستطيع ان تلقى مساعدة من الجو . ولكن طيارينا بذلوا المستحيل في هذه الأوقات المرهقة العصيبة .

ولم يكن في امكان سفن الحراسة البحرية ان تحوم بعيدا عن القوافل لتفريق أمر الحشود الهائلة من غواصات العدو على الأجنحة . وهكذا كان في امكان مجموعات الذئاب حين تهاجم قوافلنا أن تستاصل دفاعنا كله ، وكان العلاج الوحيد ان تحاط كل قافلة بعدد كاف من الطائرات للعثور على الغواصات القريبة واجبارها على الغوص في الماء . مما يفتح السبيل أمام قوافلنا . ولم يكن هذا العلاج كافيا لانه كان يجب علينا أن نبحث عن هذه الغواصات ونهاجمها بشدة اينما وجدت سواء في البحر او في الجو . وكانت الطيارات والطيارون المدربون والأسلحة الجوية قليلة ، ولكننا شرعنا في تشكيل وحدات من القوات السطحية ، سميناها « المجموعات المؤازرة »

ومنذ وقت طويل كنا ندعو الى هذه الفكرة ، ولكننا كنا نحتاج الى الوسائط . وكانت أولى هذه المجموعات التي غدت فيما بعد عاملا مهما للغاية في حرب الغواصات ، تتكون من سفينتين من ذوات السرية الواحدة ، واربع «فرقاطات» حديثة من الصنف الذى أخذت احواضنا تنتجه ، وأربع مدمرات ، وعن طريق البحارة المدربين والخبراء ، وبوساطة الأسلحة الحديثة استطاعت هذه المجموعات التي تعمل مستقلة عن وحدات الحراسة مع القوافل ، والتي لاتجهدها المسئوليات الاخرى ، أن تؤدى واجبها ، بالتعاون مع السلاح الجوى ، في التفتيش على الغواصات واصطيادها ، وتحطيمها . وفي سنة ١٩٤٣ غدا الاجراء أن ترشد الطائرة في « المجموعة المؤازرة » الى مكان فريستها وتدفع مطاردة غواصة واحدة الى استبانة رفيقاتها ، مما يعرض « قطيع الذئاب » كله لخطر الاكتشاف .

واستطعنا ايضا أن نؤمن العدد اللازم من الطائرات لمصاحبة القوافل ولم تأت نهاية عام ١٩٤٢ حتى قامت ست حاملات بواجبها . وتم تشييد عدد من الحاملات في أمريكا الى جانب ما يصنع في بريطانيا ، وفي شهر سبتمبر صاحبت احداها وتدعى « المنتقم » قافلة متجهة الى شمال روسيا . واخذت هذه السفن الحديثة تظهر ظهورا مؤثرا مع القوافل المتجهة الى شمالي افريقية في أواخر اكتوبر . وكانت طائرات « السورد فيش » العاملة من متنها تقوم بعمليات الاستكشاف الى مسافات بعيدة . مستقلة عن القواعد الجوية على البر ، وبالتعاون مع سفن الحراسة السطحية . وهكذا استطعنا ان نبدأ في الربح عن طريق الجهد المستمر والاختراع ولكن قوة العدو كانت تتضاعف كذلك ، وكان يجب علينا أن نقابل عددا من النكسات .

وفيما بين يناير وأكتوبر عام ١٩٤٢ تضاعف عدد الغواصات . فقد كانت (١٩٦) غواصة تعمل في عرض البحار ، وتصدت قوافلنا في شمالي الاطلنطي لهجمات من « قطعان الذئاب » بصورة اشد واضخم من أى وقت مر . وكان يجب أن ندخر من قوات حراستنا لافتقارنا اليها في عملياتنا الرئيسية في شمالي افريقية وهكذا وصلت خسائرنا في نوفمبر الى أقصى رقم وصلت اليه في الحرب كلها اذ فقدنا عن طريق

الغواصات وحدها (١١٧) باخرة ، حمولتها أكثر من سبعمائة الف طن ، الى جانب مائة الف فقدناها بفضل عوامل أخرى .

وهكذا غدا الوضع فى المياه الخارجية خطيرا للغاية . مما أجبرنى فى الرابع من نوفمبر على أن أتولى شخصيا الدعـوة الى تكوين لجنة جديدة لمكافحة الغواصات . وقد أدت باصدارها قرارات بعيدة المدى دورا مهما فى الصراع ، ورغبة منـــا فى محاولة اطالة مدى طائراتنا الليبراتور الحاملة للرادار ، قررنا سحبها من العمل الى أن يتم ادخال التعـــديلات الواجبـة ، وتلبية لطلبى ارسل الرئيس كل الطائرات الأمريكية الصالحة ، المعدة بأحدث وسائل الرادار للعمل من بريطانيا ، واستطعنا فورا أن نستأنف العمليات فى خليج بسكاى بقوات أضـــخم وبمعدات أحسن ، وكتب لهذه الجهود أن تؤتى ثمارها فى عام ١٩٤٣ .

انتصارات امريكا البحرية

بحر المرجان وجزيرة ميدواى

حدثت الآن فى المحيط الهادى حوادث مثيرة ، اثرت على سير الحرب كلها .

فلم تأت نهاية شهر مارس حتى كانت المرحلة الاولى من خطة اليابان الحربية قد حققت فوزا تاما ذهل واضعوها انفسهم . فقد هيمنت اليابان على هونج كونج وسيام والملايو وكل منطقة الجزر الرائعة التى تؤلف جزر الهند الشرقية ، وكانت القوات اليابانية تتوغل فى بورما توغلا عميقا . وما فتئت القوات الامريكية تحارب فى كوريجيدور فى الفلبين ، ولكن بغير أمل .

وقد وصلت أمجاد اليابان الى قمتها ، فالاعتزاز بالانتصارات العسكرية والثقة فى القيادة ، عززا الاعتقاد بأن الدول الغربية ليس لديها رغبة فى القتال حتى النهاية . وقد وقفت جيوش الامبراطورية على الحدود التى اختيرت لها فى الخطط التى جهزت قبل الحرب لتكون الذروة النهائية فى التقدم . وكان فى امكان اليابانيين فى هذه المنطقة الرائعة التى تشمل موارد وثروات لا حد لها ولا حصر ، أن يوطدوا اقدامهم ويركزوا فتوحاتهم ، ويطوروا هذه القوة التى نالوها حديثا .

وكانت خطتهم المجهزة منذ وقت طويل ، توجب التوقف فى هذه المرحلة فترة للاستجمام قليلا ، ومقاومة اى هجوم أمريكى مضاد وترتيب زحف جديد . ولكن تراءى للقادة اليابانيين فى هذا النصر المتألق ، أن ساعة تحقيق آمالهم قد قربت ، وعليهم والحالة هذه أن يكونوا ذوى كفاية لها . وقد وجدت هذه الأفكار لا من مجرد اغراء غريزى يتعرض له الناس من الانتصار المذهل فقط ، بل من التفكير العسكرى السليم وبان لهم أن مشكلتهم الاستراتيجية المتعادلة تقوم على اختيار احد أمرين ، ترتيب قطاعهم الحديث ترتيبا كليا ، أو التقدم الى الامام والخوض بعمق لتأمين الدفاع عن هذا القطاع .

وبعد مشاورات طوكيو تقرر اللجوء الى السبيل الأكثر طموحا ، وامتداد قبضتهم لتهيمن على جزر الاليوشان الغربية وجزيرة ميدواى ، وجزيرة ساموا ، وجزر فيجى ، وكاليدونيا الحديثة ، وميناء مورينى فى جنوب غينيا الجديدة . وسيهدد هذا الامتداد ميناء الدر الذى ما فتىء قاعدة أمريكا الرئيسية ، كما انه اذا حوفظ عليه تماما سيدفع الى قطع المواصلات المباشرة بين أمريكا واستراليا ويؤمن لليابان قواعد مناسبة لشن هجمات اخرى فى المستقبل .

وقد ابدت قيادة اليابان العليا غاية الجراة والعبقرية فى وضع

خططها وتنفيذها ، ولكنها بدات على مبادىء لم تقدر فيها القوى الدولية في نسبها السليمة .ولم يمكن هذه القيادة قط ان تدرك القوة الكامنة لامريكا . وكانت حتى هذا الوقت توقن أن المانية هتلر ستنتصر في حرب أوروبا . وشعرت في أعماقها برغبة عارمة في قيادة آسيا الى فتوحات لاحد لها ولا حصر ، وفي تحقيق أمجادها .

وهكذا اندفعت خلف مقامرة ، لو كتب لها النجاح ، ماغيرت من حقيقة الأمر شيئا غير اطالة هيمنتها عاما آخر ، ولكنها لما فشلت أسفرت عن اختصار مدى الهيمنة سنة كاملة . وهكذا دفعت هذه المغامرة في واقعها الى استبدال موقف قوى نسبيا ، وامتيازات أحكمت قبضتها عليها بهيمنة واسعة ، كان من الشاق عليها أن تحتفظ بها ، ولهذا فانها حينما هزمت في هذه المنطقة الخارجية لقيت نفسها في موقف تحتاج فيه الى القوى الكافية لخلق دفاع مترابط عن منطقتها الداخلية الأكثر حيوية واهمية .

وبالرغم من ذلك لم يكن في طاقة أحد في هذه المرحلة من مراحل الصراع العالمي أن يتيقن من أن المانيا لن تستطيع تدمير روسيا أو اجبارها على التراجع الى ماخلف الأورال ، وان تعود أدراجها بعد ذلك فتغزو بريطانيا ، أو تتفرق كحل بديل عبر القوقاز وايران لتلتقي مع طلائع اليابانيين في الهند . ولارجاع الامور الى نصابها الصحيح بالنسبة لدول الحلف الأكبر ، كان من الواجب أن تحصل أمريكا على نصر بحرى حاسم يضمن لها التفوق في المحيط الهادى ، وان كان لايضمن لها الاشراف الكامل المباشر العاجل على هذا المحيط . وكتب لنا أن نحرز هذا النصر . وكنت أوقن باستمرار أن الاسطول الامريكي سيسترد هيمنته على المحيط الهادى في شهر مايو بما يمكننا تقديمه من مساعدات في هذا الشهر . وكنت أبني مثل هذه الآمال على حساب الانشاءات البحرية الامريكية والبريطانية الحديثة التى كادت تبلغ حد النضج ، والتى تشمل البوارج وحاملات الطائرات وغيرها من السفن الحربية الاخرى . وفي طاقتنا الآن أن نشرح صورة موجزة ، كما تقضى الضرورية ، للمعركة البحرية المتالقة المذهلة ، والتى أكدت هذا الواقع العظيم ،في صورة لايتسرب اليها الريب .

في آخر شهر ابريل عام ١٩٤٢ بدأت القيادة العليا اليابانية سياستها التوسعية الجديدة . وقد شملت هذه الخطة احتلال ميناء مورسبى وتولاجى في جزر سليمان الجنوبية ، مقابل جزيرة جواد قنال الكبيرة . وبالاستيلاء على ميناء مورتسبى تتم المرحلة الاولى من هيمنتها على غينيا الحديثة ، ويكفل ضمانة أخرى لقاعدتها البحرية الألمانية في راباول في جزيرة بريطانيا الحديثة .

وفي امكانها ان تبدأ من غينيا الحديثة ومن جزر سليمان محاصرة استراليا .

وفي سرعة علمت المخابرات الامريكية ان جموعا يابانية في هذه المياه ،فقد شوهدت قوات يابانية كبيرة تحتشد في راباول قادمة من القاعدة الرئيسية في ترول في جزر كاولين . وأصبح التقدم صوب

الجنوب امرا واقعيا لا مناص منه . وكان من المستطاع أن يترقب الانسان بدء العمليات العسكرية فى الثالث من مايو ..

وكانت حاملات الطائرات الامريكية متفرقة فى هذا الوقت ، تؤدى أعمالا مختلفة ، من بينها الهجوم الجرىء الرائع الذى شنه الجنرال دوليتل من الجو على مدينة طوكيو نفسها فى الثامن عشر من ابريل . ولا مرية فى أن هذا الحادث كان عاملا مهما فى تقرير السياسة اليابانية الجديدة .

وأحس الاميرال نيمتز بالخطر فى الجنوب ، فبدأ يحشـــد أقوى قوة ممكنة فى بحر المرجـــان (كورال) . وكان الرير امـيرال فليتشر قد قدم الى هناك ومعه حاملة الطائرات يوركتاون وثلاثة طرادات ثقيلة .

وفى الأول من مايو انضمت اليه قوة مكونة من حاملةالطـائرات ليكسينجتون ، وطرادين آخرين بقيادة الرير أميرال فيتش ، وقـد قدمت من ميناء الدر ، وسرب آخر يقوده الرير اميرال البريطانى كربس وهو مكون من الطرادين الاستراليين « اســتراليا وهوبارت » والطراد الأمريكى « شيكاغو » .

وكانت الحاملتان الاخريان المتوافرتان الان ، وهما انتر برايز وهورنيت ، تسهمان فى غزو طوكيو ، وبالرغم من صدور الاوامر اليهما بالتحرك بسرعة جنوبا للانضمام الى الاميرال فليتشر ، لم يمكنهما ادراكه حتى وسط شهر مايو ، وكانت المعركة المرتقبة قد انتهت قـبل هذا الوقت .

وفى الثالث من مايو كان الاميرال فليتشر يتزود بالوقود فىالبحر على مدى أربعمائة ميل تقريبا جنوب جواد قنال ، حينما علم أن العدو نزل الى البر فى تولاجى مستهدفا انشاء قاعدة بحرية هناك فـورا . ليراقب منها المداخل الشرقية لبحر المرجان . وقبل يومين تراجعت الحامية الاسترالية الصغيرة من هذا الموقع الامامى نظرا للخطر القائم وقرر فليتشر أن يتحرك بمجموعته الاساسية الخاصة لمهاجمة الجزيرة لان مجموعة فيتش كانت مافتئت تتزود بالوقود . وفى صباح اليـوم التالى هاجمت الطائرات العاملة من يوركتاون جزيرة تولاجى بقوة . وكانت القوات التى تغطى العدو قد تراجعت ، ولم يبق فى الجـزيرة الا عدد من المدمرات والسفن الصغيرة .

ولهذا أتت النتائج مخيبة للرجاء .

ومضى اليومان التاليان دون حوادث تستحق الذكر ، ولكن كان من الواضح انه سيحدث فى القريب صدام مسلح . وكانت مجمـوعات فليتشر الثلاث قد تزودت بالوقود . واصبحت تؤلف وحدة واحـــدة تقف جهة الشمال الغربى من غينيا الحديثة . وكان فليتشر يعلم أن القوة اليابانية التى تستهدف غزو ميناء مورسبى ، قد غادرت راباول، وانها قد تمر عبر مضيق جومارد فى أرخبيل لوياد فى السابع أو الثامن من الشهر . وكان يعلم أن بالمنطقة ثلاث حاملات معادية ، ولكنه لايدرى

مواقعها وكان من بين القوة اليابانية الضاربة حاملتا طائرات همـا زويكاكو وشوكاكو ، وطراداان ثقيلان ، وقد قدمت الى الجنوب من ترول ، شرقي جزر سليمان وهي بعيدة عن متناول طائرات ـ الاستكشاف ، وفي مساء الخـامس من مايو دخلت بحر المرجـان من جهـة الشرق . وفي السادس منه كانت تدنو من قـوة فليتشر ، وفي غصون الليل غـدت علي مـدى سبعين ميـلا منه ، ولكن كلا من الفريقين لم يعـلم بوجـود الاخر ..

وعاد الفريقان فابتعد كل منهما عن الاخر في الليل ، وفي السابع قدم فليتشر بوحداته الى الجنوب من أرخبيل لويزياد ، حيث قرر أن يعسكر بها ليضرب قوات العدو ، وأصدر أمره الى مجمـوعة كريس بالتقدم لمراقبة المدخل الجنوبي لمضيق جومارد ، حيث ينتظر وصـول العدو في ذلك اليوم . وسرعان ماكتشف العدو موقع كريس ، وأمطره بوابل من قاذفات الطوربيد ، وشن عليه من القواعـد الساحلية هجمـات عنيفة متعاقبة تشبه في ضراوتهـا تلك التي أغرقت « الامـير ويلز » و « ريبالس » . ولم تصب وحدة من وحـداتنا التي واصلت السـير الى ان وصلت ميناء مورسبي ، بفضل القيادة البـارعة ، وحسن الحظ .

ولما علم كريس بتراجع العدو ، انسحب جهة الجنوب .

وفي خلال ذلك ظلت حاملات الطائرات المعادية التي لم يعرف فليتشر عنها معلومات دقيقة ، اهم مايشغله ويزعجه ، وعند الفجـر بدأ حركة بحث واسعة النطاق ، وفي السـاعة الثامنـة والربع لقي جزاءه حينما بلغه نبأ يقول ان هناك حاملتين وأربعة طرادات معـادية الى الشمال من جزر لويزياد ، ولم تكن هذه القوة التي شـوهدت هي قوة العدو الضاربة ، بل قوة الحراسة الضعيفة التي تحـرس سفن الغزو ، وبينها الحاملة الخفيفة « شوهو » .

على اي حال صوب فليتشر ضربته بأقصى مالديه من قوة ، وبعد ثلاث ساعات اغرقت « شوهو » . وقد افتقدت قوة الغزو بسبب هذا الحادث غطاءها الجو وأجبرت على التقهقر .

وهكذا لم يكتب لسفن النقل المجهزة للتحرك الى ميناء مورسبي دخول مضيق جومارد ، وظلت واقفة الى الشمال من جزر لويزياد الى ان صدر اليها الأمر اخيرا بالانسحاب .

وهكذا كشف فليتشر موقعه للعدو ، فاصبح معرضا لاخطـار فادحة ، وكان يجب أن يتوقع هجوما معاديا في كل لحظة ، في وقت لم يكن في طاقته اعادة تسليح قوته الضـاربة وتجهيزها لمعركة أخرى قبل العصر .

ومن حسن طالعه أن الجو كان سيئا ، بل انه أخذ يزداد سوءا . ولم يكن لدى العدو أجهزة رادار . وكانت القوة اليابانية الضـاربة في الواقع قريبة ومواجهة للمدافع شرقا . وبدأت هجومها بعد الظهـر ، ولكن الطائرات لم يمكنها ان تميز أهدافها في هذا الجو السيىء . وفي

طريق عودتها الى حاملاتها دون تحقيق اهدافها ، مرت بالقرب من قوة فليتشر فبدت على لوحات رادارها . وبعثت القاتلات الامريكية لتقطع عليها سبيلها ، وجرت معركة فى الظلام ومر فيها عدد من الطائرات اليابانية ، التى غادرت الحاملات والتى كان مجموعها سبعا وعشرين قاذفة قنابل .

واستطاعت بضع طائرات منها ان تعود سالمة لتشترك فى معركة اليوم التالى .

وتخيل كل من الفريقين ، ادراكا منه لقرب الفريق الاخر ، انه يمكنه أن يشن عليه هجوما فى الليل بقوات سطحيه . ولكنهما قدرا أن مثل هذا الهجوم سيكلفهما كثيرا . فرجعا وابتعد كل عن الآخر ، وحينما طلع صباح الثامن من مايو تغير طالع الطقس ، فغدا اليابانيون فى حماية السحب المنخفضة ، فى حين كانت سفن فليتشر تستحم فى أشعة الشمس المشرقة . وبدأت عملية « الاستخفاء والاستكشاف » من جديد . وأخيرا استطاعت طائرة عاملة من « ليكسينجتون » أن تكتشف موقع العدو فى الساعة الثامنة والدقيقة الثامنة والثلاثين ، وان تلتقط اشارة لاسلكية معادية تنبىء عن اكتشاف العدو مكان الحاملات الامريكية . وهكذا أصبحت المعركة الكبرى محتملة بين قوتين متساويتين ومتكافئتين .

وقبيل الساعة التاسعة بقليل ، انطلقت قوة أمريكية ضاربةمكونة من اثنتين وثمانين طائرة من عقالها ، وفى الوقت نفسه انطلقت تسع وستون طائرة يابانية ، وفى الساعة الحادية عشرة بدأ الهجوم الامريكى، وبعده بعشرين دقيقة بدأ الهجوم اليابانى ، وانتهت المعركة فى الحادية عشرة والدقيقة الاربعين ، وقد صادفت الطائرات الامريكية بعض المصاعب التى سببتها السحب المنخفضة عند الهدف . وبادرت احدى الحاملتين بالاختفاء تحت ستار من المطر الشديد ، على حين انصبت قوة الهجوم كلها على الحاملة الاخرى شوكاكو ، وقد اشتعلت فيها النيران عندما أصابتها ثلاث قنابل ، ولكن الاضرار كانت أقل كما بدت . فى الظاهر ، وعلى الرغم من أنها تعطلت عن العمل فى الوقت الحالى ، الا أنها تمكنت من أن تصل الى قاعدتها لاصلاحها . أما الحاملة الاخرى زويكاكو فلم يمسها أى ضرر .

وفى خلال ذلك جرى الهجوم اليابانى فى جو واضح يستهدف الحاملتين : يوركتاون وليكسنجتون . واستطاعت الاولى بفضل المناورة البارعة أن تتفادى الاصابات الفتاكة تقريبا ، وان كانت قد تلقت بعض الضربات ، فقد أصابتها قنبلة قضت على عدد كبير من رجالها واشعلت فيها النيران ، التى لم تلبث أن حوصرت وأخمدت بسرعة ، واستردت الحاملة قدرتها على القتال بالرغم مما أصابها وأثر فيها قليلا أما « ليكسنجتون » فكانت اقل حظا ، اذ انها تلقت اصابتين بالطوربيد وثلاثا بالقنابل ، ودهمتها النيران عقب انتهاء المعركة ، فأسرعت الى الميناء ، وقد غمرت المياه ثلاثة من مراجلها . وبعد محاولات جبارة أخمدت النيران وسيطر على السفينة ، وراحت تعدو بسرعة خمس وعشرين عقدة .

وقدرت خسائر الطائرات فى هذه المعركة الجوية التى تعد الاولى من نوعها بين حاملات الطائرات ، بثلاث وثلاثين طائرة أمريكية وثلاث وأربعين طائرة يابانية . ولو أن حوادث بحر المرجان انتهت عند هذا الحد لكان ميزان النتائج فى صالح الامريكيين قطعا . فقد أغرقوا حاملة الطائرات شوهو ، وأصابوا الحاملة شوكاكو اصابات بالغة ، وأجبروا قوة الغزو المتجهة الى ميناء مورسبى على التقهقر . أما الحاملتان الامريكيتان فما برحتا فى حالة طيبة ، وكانت خسارتهم الوحيدة حتى هذه اللحظة ناقلة زيت تابعة للاسطول ، ومدمرة مصاحبة لها . وقد أغرقتهما الحاملات اليابانية فى اليوم السابق ،وقد كان من المتوقع أن تحدث كارثة الان ، فبعد ساعة من انتهاء المعركة ، سمع فى ليكسينجتون دوى انفجار عنيف ، شوهدت بعده النيران تشتعل فى كل مكان ، وقد تعذر مكافحتها ، ولم تنجح كل الجهود التى بذلت لانقاذ السفينة ، التى هجرت فى هذه الليلة تفاديا لعدم وقوع خسائر اخرى فى الارواح ، وقد نسفها ــ طوربيد أمريكى ، وانسحب الفريقان من بحر المرجان ، وقد زعم كل منهما أنه انتصر ، وزعمت الدعاية اليابانية اغراق بارجة وطراد الى جانب حاملتى طائرات الاميرال فليتشر ولكن أعمالهم بعد المعركة كانت تتناقض مع هذه الادعاءات فقد أرجأوا زحفهم نحو ميناء مورسبى حتى شهر يوليو على الرغم من انفتاح الطريق لهم الان . وحينما جاء شهر يوليه كان الوضع قد تبدل تماما ، وعدلوا عن خطتهم ، جريا وراء تقدم من جهة البر ، من القواعد التى كانوا قد استولوا عليها فى غينيا الحديثة . وتشير هذه الايام الى الحد الأقصى لتقدم اليابانيين بحرا صوب استراليا .

وكان من أهم الضرورات الاحتفاظ بقوة حاملات الطائرات بالنسبة الى الجانب الامريكى . وادرك الاميرال نيميتس أن ثمة احداثا أكثر اهمية يتوقع حدوثها فى الشمال ، وهى تستدعى منه جمع قوته وقد اقتنع بوقف زحف اليابانيين فى الوقت الحالى جهة بحر المرجان . واستدعى الى ميناء الدركل حاملات طائراته ومن بينها انتر برايز وهورنيت اللتان كانتا تتجهان فى سرعة للانضمام الى فليتشر وكانت الحكمة تقضى بتكتم نبأ اغراق حاملة الطائرات نيكسينجتون الى مابعد المعركة ميدواى ، لان اليابانيين لم يكونوا على علم بحقيقة الوضع ، وكانوا تواقين الى الالمام بالمزيد من المعلومات .

وكانت هذه المعركة من حيث الاهمية التكتيكية التى علقت عليها لها تأثير لا يتناسب مع هذه الاهمية . ومن حيث الاستراتيجية كانت انتصارا أمريكيا مرضيا ، لانه أول انتصار على اليابان ، ولم يشهد التاريخ له مثيلا قبل ذلك ، فهذه هى أول مرة تتقابل فيها قطع بحرية سطحية ولا تتبادل طلقة واحدة . وقد حولت فرص الحرب ومخاطرها الى معركة جديدة . وفى سرعة البرق الخاطف طافت الانباء بكل مكان فى العالم ، باعثة التشجيع والرضا فى استراليا ونيوزيلنده، الى جانب امريكا نفسها . وسرعان ماطبقت الدروس التكتيكية التى تمت دراستها فى هذه المعركة ، والتى تكلفت ثمنا باهظا ، وفى معركة

جزر ميدواى التى احرزت فيها انتصارات عظيمة ، والتى دنت الان من بدايتها .

ولم يكن التقدم صوب بحر المرجان الا المرحلة الاولى فى سياسة اليابان الاكثر طموحا . وفى الوقت الذى كانت تجرى فيه أول معركة كان ــ ياماموتو أميرال اليابان الاكبر ، يتأهب لتحدى قوة أمريكا فى وسط الباسفيك ، بالاستيلاء على جزر ميدواى ومطارها الهائل الذى يمكنه ان يهدد منه ميناء الدر نفسه ، الذى يقع على مسافة ألف ميل شرقا ، وأن يحتله حينما تسنح الفرصة . وفى الوقت نفسه قرر ارسال قوات فرعية للاستيلاء على مواقع ذات أهمية فى جزر اليوشان الغربية وقد بعث التوقيت الدقيق لخطوات ياما موتو لديه الامل فى أن يجتذب الاسطول الامريكى الى الشمال لمواجهة الخطر الذى يتهدد جزر اليوشان ، ويصبح من السهل لديه ارسال قوته الرئيسية الى جزر ميدواى ، وكان يأمل ، قبل أن يغدو الامريكيون قادرين على التدخل هنا بقوة ، ان يكون قد سيطر تماما على الجزيرة واصبح متأهبا لمقابلة أى هجوم معاد بقوات متفوقة .

ولا مرية فى أن ميدواى مهمة بالنسبة لامريكا لانها الموقع الامامى لميناء الدر ، وأهميتها هذه كافية لجعل هذه الحركات تؤدى الى اشتباك رئيسى . وأحس ياماموتو بالثقة فى قدرته على فرض المعركة الحاسمة وفقا للشروط التى يمليها هو ، وانه يمكنه ، بتفوقه الهائل وخاصة فى البوارج السريعة ، أن يهيىء لنفسه الفرصة الممتازة للقضاء على العدو . وهذه هى الخطوط العريضة للخطة التى صرح بها لمساعده أميرال ناجومو . . وكان كل شىء يتوقف على وقوع الاميرال نيميتز فى الفخ ، وألا يكون قد دبر هو الآخر مفاجأة ضد اليابانيين .

ولكن القائد الامريكى كان يقظا ونشيطا . وكان يطلع عن طريق مخابراته على كل شىء حتى على ميقات ماسيوجه اليه من ضربات . وبالرغم من ان خطه غزو ميدواى قد تكون ستارا لاخفاء الضربة الحقيقية التى قد تصوب الى سلسلة جزر اليوشان للتقدم عن طريقها الى القارة الامريكية ، فان ميدواى تمثل بالنسبة اليه الخطر ، الاكبر ولم يتوان فى تركيز قواته فى هذه الناحية . وكان المصدر الرئيسى لقلق القائد الامريكى ، ان حاملات طائراته ، وان كانت فى أحسن حالاتها ، قد تكون أضعف من حاملات ناجومو الاربع المجربة التى أحرزت انتصارات باهرة ــ امتدت من معركة ميناء الدر حتى جزيرة سيلان . وقد أرسلت منها اثنتان الى بحر المرجان ، وأصيبت احداهما اصابة بالغة ، ولكن نيميتز خسر بدوره ليكسينجتون ، وغدت اليوركتاون مشلولة ، ولم تعد ساراتوجا الى الانضمام اليه بعد أن أبلت بلاءحسنا فى المعركة ، ولحقتها أضرار فى حين ما فتئت « الواسب » فى البحر المتوسط حيث بادرت الى هناك لحماية جزيرة مالطة ومساندتها ، ولا يمكنه أن يجهز للمعركة القادمة سوى انتر برايز وهورنيت اللتين تتحفزان الآن للقدوم من جنوب المحيط الهادى ، ويوركتاون ان أمكن اصلاحها فى الوقت المناسب ليمكنها الاسهام فى المعركة . ولم تكن

عنده بوارج أقرب من البوارج الموجودة فى سان فرنسيسكو ، وهى بطيئة فى عملها مع حاملات الطائرات . وكانت لدى ياماموتو احدى عشرة بارجة ، بينها ثلاث من أقوى البوارج وأسرعها فى العالم . وكانت الفرص غير مواتية للامريكيين ، ولكن كان في امكان نيميتز الاعتماد على المساعدة القوية العاملة من مطار ميدواى .

وفى الاسبوع الاخير من شهر مايو بدأت القوة الرئيسية من الاسطول اليابانى تتحرك . وكانت القوة الاولى التى تحركت هى قوة الاليوشان التى قصد بها التمويه والخداع والتى كلفت مهاجمة الميناء الهولندى فى الثالث من يونيه لاجتذاب الاسطول الامريكى الى هذا الاتجاه .

وكان من المقرر أن تنزل القوات بعد ذلك فى جزر آتو وكيسكا واداك الواقعة غربا . وفى اليوم التالى يقوم ناجومو بقوته المكونة من اربع حاملات بضرب جزيرة ميدواى ، وفى الخامس من يونية تجىء قوة من قوى المظلات وتستولى على الجزيرة . ولم يكن من المرتقب أن تلقى القوة اليابانية مقاومة كبيرة . ثم يعود ياماموتو بأسطوله الى الغرب متفاديا مناطق الاكتشاف الجوى ليكون مستعدا لتصويب ضربته حينما يبدأ الامريكيون فى هجومهم المضاد .

لقد كانت اللحظة الثانية الهائلة بعد ميناء الدر . وفى السادس والعشرين من مايو وصلت الحاملتان انتر برايز وهورينت من الجنوب

وفى اليوم التالى قدمت اليوركتاون ، وكانت الاضرار التى لحقتها تستدعى اصلاحات تستغرق ثلاثة أشهر ، ولما كان الموقف حرجا فقد أجريت بعض الاصلاحات العاجلة بها فى خلال ثمان واربعين ساعة وغدت مستعدة للمعركة ، بعد أن زودت بمجموعة جوية حديثة .

وفى الثلاثين من مايو أبحرت لتنضم الى الاميرال سبروانس الذى أبحر قبل يومين مع حاملتين اخريين ، وظلت القيادة التكتيكية للقوة المشتركة بيد الاميرال فليتشر . وامتلأ مطار ميدواى بقاذفات القنابل ، وصدر الامر الى القوات البرية المدافعة عن الجزيرة بأن تكون متحفزة مستعدة . وكان من اللازم التبكير فى الحصول على معلومات عن اقتراب العدو ، ولذلك استمرت عمليات الرقابة الجوية منذ الثلاثين من مايو . واستمرت الغواصات الامريكية تراقب الشمال والغرب من ميدواى ، وانقضت أربعة أيام فى حيرة وقلق . وفى الساعة التاسعة من صباح الثالث من يونية شاهدت « سفينة طائرة » من طراز كاتالينا وهى تقوم بالمراقبة على بعد سبعمائة ميل غرب ميدواى مجموعة مؤلفة من احدى عشرة سفينة حربية معادية . ولم يصب الهدف من هذه القنابل والطوربيدات سوى طوربيد واحد أصاب ناقلة زيت ، وبدأت المعركة ، وبانت حقيقة ما يرمى اليه العدو . واستطاع الاميرال فليتشر ان يعرف عن طريق مخابراته أن حاملات العدو ستدنو من شمال غربى ميدواى ، ولهذا لم يغير ماتلقاه من تقارير أولية عن مشاهدة العدو ، خطته الاصلية ، فقد قدر ، ووفق

فى تقديره ، أن ماشوهد لا يتجاوز مجموعة من سفن النقل . وفى فجر الرابع من يونيه حرك حاملاته الى مكان انتقـــاه على مـــدى مائتى ميل تقريبا شمال ميدواى ، لتكون متأهبة للانقضاض على جناح ناجوموحينما يظهر وحيثما يظهر .

وطلع الرابع من يونية جليا مشرقا ، وفى الساعة الخامسة والدقيقة الرابعة والثلاثين صباحا ، أرسلت دورية من ميـــدواى أخيرا برقيـــة طال انتظارها ، تعلن فيها دنو حاملات الطائرات اليابانية . وأخـــذت التقارير تتدفق وتنهمر . وشوهدت طائرات كثيرة تتجه الى ميدواى وشوهدت البوارج تحمى الحاملات وفى الساعة السادسة والنصـــف صباحا حدث الهجوم اليابانى فى قوة وعنف ، وقوبل بمقاومة عنيفة ، ولم يعد من الطائرات المهاجمة ثلثها تقريبا ، وحدثت أضرار فادحـــة ، رسقط الكثير من الضحايا ولكن المطار بالرغم من هذا كله ظـل صالحـــا للاستعمال .

وكانت هناك فرصة لشن هجوم مقابل على أسطول ناجومو . وقد كلف تفوقه الساحق فى الطائرات المقاتلة الامريكيين ثمنـــا باهظـا ، واتت الغارة الجريئة التى علقت عليها آمال ضخمة مثبطة للهمم ، ولكن الاضطراب الذى أحدثته فى صفوف العدو أدهش القائد اليابانى ، وشتت تفكيره ، وخاصة ان طياريه ألحفوا عليه بضرورة شن غارة أخرى على ميدواى . وكان قد ادخر عددا كافيا من الطائرات للقـــاء أية حاملات أمريكية قد تظهر فجأة ، بعد أن أعياه الحديث عنها .

وقرر أن يقسم التشكيلات التى جهزها لهذه الغاية ، وأن يسلحها لتصوب ضربة أخرى الى ميدواى . على أية حال كان من اللازم أن يخلى سطح حاملاته ليستغرق الطائرات التى ترجع من الهجمة الأولى .

لكن هذا القرار عرضه لخطر قاتل ، وقد علم ناجومو بعد فوات الاوان بوجود قوة أمريكية فى الشرق تضم احـــدى الحاملات . وتحتم عليه أن يواجه ضـــغط الهجـــوم الأمريكي وقد امتلأت ظهـــور حاملاته بقاذفات لا يرجى منها فائدة ، تقوم بعملية التزود بالوقود والذخيرة .

وبوساطة التقدير السليم كان الأميرال فليتشر والأميرال سبتسر فى مركز قوى يمكنهما من التدخل فى هذا الوقت الحاسم الحرج .

وكان قد تنسما الأخبـــار التى تدفقت فى الصـــباح الباكر ، وفى الساعة السابعة صباحا بدأت الانتر برايز والهورينت هجوما استعملتا فيه كل ما هو متوافر لديهما من طائرات ، ما عدا ما قد يحتاجان اليه من الطائرات للدفاع عن نفســـيهما . وقد تأخرت طائرات اليوركتـــاون لأنها كانت تقوم بعمليات الكشف منذ الصباح ، ولكنها استعدت بسرعة وحلقت قوتها الضاربة فى الساعة التاسعة صباحا فى الوقت الذى كانت الطلائع الأولى من طائرات الحـــاملتين الأوليين تدنو من صيدها . وقد تعذر على القاذفات أن تحدد هدفها لان الطقس القريب من العـــدو كان غائما ، ولم تحس طائرات الهورنيت قط باستدارة العدو ، ولذلك لم تظفر مطلقا بحاملاته ، ولم تسهم فى المعركة . ونظرا لسوء الطالع هذا

اقتصر الهجوم الاول على قاذفات الطوربيد من الحاملات الثلاث، وبالرغم مما بذلته من ضغط شديد لم تستطع أن تحرز أى نصر أمام ما لقيتـــه من مقاومة عنيفة . ولم يعد من الطائرات الاحدى والاربعـين من قاذفات الطوربيد سوى ست طائرات فقط ، ما كاد يراها اليابانيون حتى وجهوا اليها كل الطائرات المقاتلة المتوافرة ، ولحسن حظها وصل الى الميـدان فى هذا الوقت سبع وثلاثون قاذفة منقضة من الأنتر برايز واليوركتاون، وصبت قنابلها ، دون أن تلقى مقاومة ، على سفينة ناجومو ــ أكاجى ، وشقيقتها كاجا ، فىحين هاجمت سبع عشرة طائرة أخرى مناليوركتاون، الحاملة سوريو . ولم تمر دقائق حتى تحولت الحـــاملات الثلاث الى حطام تأكله النيران ، وتنفجر عليه الطائرات ، وتلاشت الحاملات الثلاث نهائيا.

ولم يكن فى وســع الاميرال ناجومو الا أن ينقل رايته الى طراد ، وأن يشهد ثلاثة أرباع أسطوله وهى تحترق .

وقد فقد الامريكيون ستين طائرة حينما كانوا يستعيدون طائراتهم وبالرغم من هذا حصلوا على فرصة عظيمة . ولم يبق من حاملات العدو سوى هيريو التى قررت على الفور أن تسـدد ضربة انتقاما لراية « ابن الشمس» وبينماالطيارون الامريكيون يروون حكايتهم علىمتن اليوركتاون بعد عودتهم وصلتهم أنباء بأن هجوما عاجلا سيشن عليهم وقدرت طائرات العدو بأربعين طائرة ، هاجمت بعنف وقوة وعلى الرغـم من مقاومةالمقاتلات والنيران المضادة أصيبت اوليوركتاون بثـــلاث اصابات ، وبالرغم من ذلك أمكن اخماد النـــيران وواصلت السير الى أن عاودت هيريو ضربهـــا بالطوربيدات بعد ساعتين وحطمتها ، ولكنها بالرغم من ذلك ظلت عائمة يومين حتى أغرقتها غواصة يابانية .

وقبل أن تغرق اليوركتاون ثأر لها الامريكيون، ففى الساعة الثانية والدقيقة الخامسة والاربعين حدد موقع الهيريو ، وفى الساعة الخامســة هاجمتها الطائرا تالتى حلقت من الانتربرايز ولم تتركهـا الا حطاما محترقا غرق فى الصباح التالى .

هكذا دمرت الحاملات الأربع لاسطول ناجومو ، وضاع معها كـل طياريها المدربين . ولم يكن فى الوسع الاستعاضة عنهم . وهكذا انتهت معركة الرابع من يونيه ، وهى المعركة التى اعتبرت نقطة التحول فىحرب المحيط الهادى .

وهناك أخطار أخرى يجب على القـــادة الامريكيين المنتصرين أن يواجهوها ، فقد يهاجم أميرالبحر اليابانى بأسطوله الضخمجزيرة ميدواى وقد منيت القوات الجوية الامريكية بخسائر فادحة ولم تكن هناك سفن حربية كبيرة يمكنها أن تشترك فى معركة مع ياماموتو ، اذا أثر مواصلة التقدم . وقرر الأميرال سبروانس الذى كا نيقود مجموعة الحاملات عدم مواصلة مطاردة قوا تالعدو غربا ، لانه يجهل حقيقة قوته ، ولانه يحتاج الى مؤازرة السفن الكبيرة لحاملاته .

ولا مرية فى أن قراره كان سليما . ولكن الشىء الذى يدعـو الى التساؤل هو لماذا لم يحاول الاميرال ياماموتو الثـــأر ، واسترداد طوالعه

فقد قرر فى البداية أن يواصل ضغطه ، وأصدر أمره الى أربعـــة من طرادته القوية بضرب جزيرة ميدواى فى الساعات المبـــكرة من صباح الخامس من يونيه .

وفى الوقت نفسه تقدمت قوة يابانية ضخمة أخرى جهة الشـمال الشرقى ، ولو أراد سبروانس مطاردة ما تبقى من مجموعة ناجومو لسقط فى شرك ليلى ، يدفعه الى كارثة . ولكن الاميرال اليابانى غير رأيه فى الليل فجأة ، وأصدر أمره بالانسحاب الشامل فى الساعة الثانية والدقيقـة الخامسة والخمسين من صباح الخامس من يونيه .

ولم تكن الاسباب التى دفعته الى اصدار هذا القرار واضحة ، ولكن يبدو أنه تأثر من هزيمة حاملاته النفيسة التى لم يكن يتوقعها . ثم كتب عليه أن يواجه نازلة أخرى ، فقد اصطدم طرادان من طراداته الثقيلة ، وهما فى طريقهما الى جزيرة ميدواى لضربها حينما حاولا تفادى هجـوم شنته غواصة أمريكية ، وقد أصيبا اصابات بالغة وتركا وحدهما حـين بدأ التراجع الشامل .

وفى السادس من يونيه هاجمهما طيارو سبروانس وأغرقوا أحدهما وخلفوا الآخر وهو يغرق ولكن هذه السفينة الحربية المـدمرة موجتمى استطاعت أن تصل الى قواعدها .

وقد تراجع اليابانيون فى سكون كما جاءوا، بعد أن احتلوا جزيرتى آتووكيسكا الصغيرتين فى المجموعة الغربية من جزر اليوشان .

ولا شك فى أن دراسة أوضاع القيادة اليابانية فى هـذا الوقت مفيدة للغاية . ففى شهر واحد كلفت القوات البحرية والجوية اليـابانية مرتين بالقتال ، وفقا لخطط متقنة وباصرار وعناد .

وفى المرتين كان اليابانيون يتخلون عن هدفهم حينما تمنى قواتهم الجوية باضرار جسيمة بالرغم من أنه يكاد يسقط فى أيديهم وكان رجال ميدواى ، مثل الاميرالات ياماموتو وناجومو وكوندو وهم الذين رسـموا ونفذوا خطط العمليات الحربية الجريئة والهائلة ، التى دمرت فى خلال أربعة أشهر أساطيل الحلفاء فى الشرق الاقصى . ودحرت أسـطول بريطانيا الشرقى من المحيط الهنـدى . وقد انسحب ياماموتو من جزيرة ميدواى لانه اتضح من سير الحرب أن الاسطول بدون الحمـاية الجوية لايمكنه اذا كان بعيدا عن قاعدته آلاف الاميال ، أن يغامر ببقائه مع قوة ترافقها حاملات طائرات ظلت طائراتها سليمة . وقد أصدر أمره الى سفن النقل بالانسحاب ، لان مواصلة الهجوم عمل انتحارى مالم يعززه السلاح الجوى ، وذلك بالنسبة الى جزيرة تدافع عنها القوات الجوية ، ومساحتها صغيرة الى حد يجعل من الصعب القيام بأية مفاجأة .

ويعزى جمود التخطيط اليابانى وتعنته ، والرغبة فى التخلى عن الهدف حينما تسير العمليات وفق الخطط المرسومة الى طبيعة لغتهـم المفزعة غير الدقيقة ، بحيث يصعب اختراع الخطط الحديثة ، ونقلهـا بوساطة المواصلات اللاسلكية .

وثمة درس آخر • فقد أفلح نظام المخابرا تالامريكية في الوصول الى أعمق اسرار العدو ، قبل وقوع ماحدث بوقت طويل • وهكذا استطاع الأميرال نيمتز بالرغم من ضعفه ، أن يحشد كل مالديه من قوات كافية في الوقت والمكان المناسبين •وعندما حان الوقت أثبتت خطته أنها حاسمة

ولا مرية في أن هاتين المعركتين تلقيان ضوءا على أهمية السرية ، وعلى نتائج تسلل المعلومات في خلال الحرب •

وكان لهذا الظفر الامريكي الخالد أهمية في غاية الخطورة لابالنسبة الى أمريكا وحدها ، بل لقضية الحلفاء كلها • وكان تأثيره المعنوي عظيما وسريعا • فقد انقلب معيار قوة اليابان في المحيط الهادى بضربة واحدة•

وقد قضى الى الأبد على تفوق العدو المدهش الذى أبطل كل محاولاتنا المشتركة فيالشرق الاقصى مدة تربو على ستة أشهر ، ومنذ هذه اللحظةتغير اتجاه كل أفكارنا بثقة راسخة الى الهجوم ، ولم نعد نفكر فيما سيوجهاليه اليابانيون ضربتهم القادمة• بل صرنا نفكر في أى مكانأفضل لنالتصويب الضربة الى العدو لاسترداد المناطق الواسعة التى اكتسحها في هجومه الاول • وبالطبع سيكون الطريق وعرا طويلا ، وخاصة اننا ما برحنا نفتقر الى استعدادات جماعية لاحراز النصر في الشرق ، ولكن النتيجة الاخيرة لاريب فيها ، ولم يبق لمطالب المحيط الهادى هذا الاهتمام الذى يحول بين أمريكا وبين ماتتحفز لبذله من مجهود هائل في أوروبا •

وليس في وسع أية قصة من قصص الحرب البحرية أن تقدم صورا أكثر تأثيرا وهزا للنفوس من صورة هاتين المعركتين اللتين أبدى فيهما الاسطول والسلاح الجوى الامريكيان والشعب الامريكي كله روحا متألقة قوية مجيدة •

ولا مرية في أن التجديد والاوضاع المحتملة التى خلقتها الحربالجوية قد دفعا عجلة العمل والحظ بسرعة فائقة •

ولكن بسالة الطيارين الامريكيين واخلاصهم المتناهي وقوة أعصاب قادتهم وبراعتهم هى أسس كل شيء • وحينما تراجع الاسطول الياباني الى قواعده القصية في الوطن عرف قادته أن القوة التى كانوا يملكونها من حاملات الطائرات قد دمرت تدميرا يتعذر اصلاحه ، وفوق هذا عرفوا أنهم يهاجمون عدوا له من الارادة والاصرار مايوازى أقصى ماعرف عن أسلافهم من الساموراى من ارادة واصرار ، وأن خلف هذا العدو قوة ناهضة ، متطورة في كمها وعلمها الى درجة لايمكن تخيلها •

الجبهة الثانية

وصل كل من هارى هوبكنز والجنرال ماريشال الى لندن فى الثامن من شهر ابريل ، حاملين مذكرة وافيةأعدتها رياسة أركان الحربالامريكية المشتركة وصدق عليها الرئيس روزفلت ولا شك فى أن أهمية هــــذه المذكرة تسوغ نشرها كاملة .

العمليات فى أوروبا الغربية ـ ابريل عام ١٩٤٢

نعتقد أن أفضل مسرح للقيام بأول هجوم رئيسى تشترك فيـــه أمريكا وبريطانيا العظمى هو أوروبا الغربية ففى هذا المسرح وحده يمكن تطوير مواردنا المشتركة فى البر والجو تطويرا تاما وتقـــديم أقصى ما يستطاع من المساعدة لروسيا .

ومن المفروض أن يتخذ قرار يقضى بشن هذا الهجـــوم فورا نظرا للاستعدادات الهائلة اللازمة فى مختلف الاتجاهات والى أن نستطيع شن هذا الهجوم ، يجب أن يكون وضع العدو فى الغرب فى مركز دقيق وأن يعرض باستمرار لحالة من الحيرة والشك بوساطة الغارات والخداع ، فمثل هذه الغارات تمكننا من كسب معلومات قيمة ومن تدريب قواتنا على أحسن وجــه ..

ولا بد أن تتكون قوات الغزو المشتركة من ثمانوأربعين فرقة بينهما تسع فرق مدرعة على أن يكون لبريطانيا فيها ثمانى عشرة فرقة بينهــا ثلاث فرق مدرعة، وتحتاج القوا تالجويةالمساعدة الى ٥٨٠٠ طائرة للقتال بينها ٢٥٥٠ طائرة بريطانية ، والسرعة جزء أساسى فى المشكلة . ولعل أهم العقبات المعرقلة هى قلة السفن اللازمة للانزال والهجوم ، ونسد:ه البواخر الضرورية لنقل القوات من أمريكا الى بريطانيا ونستطيع أن نعد كل شىء دون أن تتأثر التزاماتنا الضرورية الاخرى فى مسارح الحرب الباقية قبل الاول من ابريل عام ١٩٤٣ على أن تكون ستون فى المـــائه من البواخر التى تقوم بالنقل غير أمريكية .

أما اذا اعتمد النقل على البواخر الامريكية وحدها فانه يتحتم تأخير الهجوم حتى أواخر صيف عام ١٩٤٣ .

وسنفتقر الى سبعة آلاف قطعة انزال تقريبا ولذا يتحتم علينـــــا مضاعفة برامج البناء الحالية مضاعفة كبيرة لبلوغ هذا الرقم . وفىالوقت نفسه يجب المبادرة فى الاعمال التمهيدية اللازمة لمواجهة قوات برية وجوية أمريكية واعدادها للعمل .

ويجب أن يحدث الغزو على شواطىء مختارة بين الهـــافروبولون وأن يكون على دفعات تتألف الدفعة الاولى منها من ست فرق على الاقل

تؤازرها فى ذلك القوات الهابطة من الجو ، ويجب تعزيزها بما يوازى مائة ألف رجل فى الاسبوع ، وحينما تثبت رءوس الجسور على الشواطىء تبادر القوات المدرعة الى الاستيلاء على خط «الواز ـ سان كنتان» وبعدذلك تكون «انتويرب نفسها» هى الهدف الثانى ٠

ولما كان من المستحيل أن يتم هذا الغزو فى اطار هذا النطاق قبل الاول من ابريل عام ١٩٤٣ فانه كان يجب اعداد خطة يلاحظ فيهاالتوقيت حتى آخر لحظة للقيام بعمل عاجل من قبل قوات قد تتنافر من وقت الى آخر ، ويجب تنفيذ هذه الخطة كاجراء طارىء فى حالة استغلال حدوث انحلال ألمانى مفاجىء ، أو كتضحية للتفادى من انهيار المقاومة الروسـية العاجل ، والتفوق الجوى فى كلتا هاتين الحالتين أمر بالغ الاهمية ٠

ومن ناحية أخرى ربما لانستطيع فى خريف عام ١٩٤٢ ارسـال أكثر من خمس فرق أمريكية وتزويدها بما يلزمها، وفى هذا الوقتتتحمل بريطانيا العبء الأكبر فمثلا يمكن امريكا أن تجد فى الخـامس عشر من سبتمبر فرقتين ونصف الفرقة من الفرق الخمس اللازمة ، ولا يجـاوز مايمكنها أن ترسله من طائرات سبعمائة طائرة ، وعلى هذا فان اشتراك بريطانيا يكلفها خمسة آلاف طائرة ٠

وقد شعر هوبكنزبارهاق شديد من وعثاء السفر وظلطريح الفراش يومين أو ثلاثة فى حين بدأ مارشال مباحثاته فورا مع رؤساء أركانالحرب البريطانيين ولم يكن من الممكن عقد الاجتماع الرسمى مع لجنة الدفاع قبل يوم الثلاثاء فى الرابع عشر ، وفى خلال ذلك درست الموضوع دراسـة وافية مع رؤساء الأركان والزملاء وقد أبهجنا كثيرا مابدا على أمريكا من عقد العزم على التدخل فى أوروبا ووضع هزيمة هتلر فى الصدارة فى خططها وخاصة أن هذه الهزيمة كانت تتصدر كل خططنـا وتفكيرنا الاستراتيجى ، ولم يكن فى وسع أى منا أو من المستشارين العسكريين وضع خطة عملية لاجتياز المـانش «بجيش بريطانى ـ أمريكى كبير» والنزول فى فرنسا قبل أواخر صيف عام ١٩٤٣ ، وقد بينت فى فصول سابقة ان هذا الغزول وذلك الموعد كانا هدفى بالاضافة الى التوقيتالذى خططته وقد كان بين أيدينا المشروع الامريكى الجديد للنزول بقوات لابأس بها فى حالة الطوارىء فى خريف عام ١٩٤٢ وكنا متأهبين تمام التـأهب لدراسة هذا المشروع أو أى مشروع آخر يستهدف توزيع قوة ألمانيـا لمساعدة روسيا وللتخطيط لشن الحرب بصورة عامة ٠

وفى ليلة الرابع عشر اجتمعت لجنتنا الدفاعية فى داونتج ستريت رقم ١٠ وحضر الاجتماع أصدقاؤنا الامريكيون ، وكان البحث متشعبا ومتأزما لكننا وصلنا الى نتيجة جماعية وقد التقت كلمتنا جميعا على أن القناة يجب أن تجتاز فى عملية أسميناها عملية الطرد فى عام ١٩٤٣

ولم يكن فى مقدورنا التخلى عن بقية واجباتنا عند التخطيط لهـذا المشروع الهائل ، حيث كان علينا واجب امبراطورى أولى فى الدفاع عن الهند ضد الغزو اليابانى ، وهو خطر أضحى الآن ماثلا للعيان ٠

والى جانب هذا كان لواجب الدفاع عن الهند علاقة حاسمة بالحرب

كلها ولم نستطع أن ندع اليابانيين يكتسحون وينهبون اربعمائة مليون من رعايا جلالته فى الهند ، نحس تجاههم بواجب الشرف ، وأن ندعهم فى مواجهة عواصف الطغيان اليابانى العاتية التى تعرضت لها الصين اد أن مثل هذا التخلى من جانبنا يعد عملا معيبا للغاية والسماح للألمان واليابانيين بالتلاقى فى الهند والشرق الأوسط يحمل كارثة خطيرة لقضية الحلفاء كلها لانقل فى نتائجها عن تقهقر الروس الى ماوراء جبال الأورال ، أو عقدهم صلحا منفردا مع ألمانيا ، ولم أكن أحسب أن أى هذه الاحتمالات دافع فى هذه المرحلة فقد كنت أومن بقوة الجيوش الروسية والشعب الروسى واصرارهما على الدفاع عن وطنهما ، أما امبراطوريتنا الهندية فعلى الرغم من كل أمجادها فانها تتعرض للوقوع فريسة سهلة فى قبضة العدو ، وكان لزاما على أن أعرض وجهة نظرى هذه على المبعوثين الامريكيين ، واذا لم تنهض بريطانيا الى مساعدة فعالة ، فقد يستولى عليها اليابانيون فى خلال عدة أشهر ، أما استيلاء هتلر على روسيا فقد يحتاج الى وقت أطول وتضحيات أكثر ، ولا مرية فى أن هيمنة بريطانيا وأمريكا المشتركة على الجو ، سوف تصبح أمرا واقعا قبل أن يتم هذا الاحتلال ، وستصبح هذه الهيمنة عاملا حاسما ولو باءت كل الخطط الاخرى بالفشل ٠

وقد اتفقت مع « هوبكنز » كل الاتفاق على ضرورة مهاجمة العدو وجها لوجه فى شمالى فرنسا عام ١٩٤٣ ، لكن ماذا يجب أن نصنع قبل هذا الهجوم ؟ اذ ليس فى طاقتنا أن ندع جيوشنا الرئيسية فى فترة تأهب لاغير فى هذا الوقت ٠ وهنا حدث تصدع كبير فى الرأى: فقد تقدم الجنرال ماريشال باقتراح لمحاولة الاستيلاء على « بريست وشربورج » أو الأخيرة - على الأقل - فى خريف عام ١٩٤٢ ، وأكد ضرورة كون العملية بريطانية خالصة ، وتأمين الاسطول والقوة الجوية وثلثى الجنود وكل معدات الانزال الكثيرة ، وابان أن أمريكا لا يمكنها تأمين أكثر من فرقتين أو ثلاث ، وكان هذا الاقتراح جديدا علينا لانه كان ينبغى أن ينصرم عامان - على الاقل - وان تبذل جهود ضخمة وتجهيز قيادة فنية قوية من الصباط قبل تأمين قوات من الدرجة الأولى صالحة لمثل هذا الغرض ، لهذا كان مثل هذا المشروع من المشروعات التى يجب أن يرجح فيها رأى رؤساء أركان الحرب البريطانيين ، لانه يحتاج قبل كل شىء الى دراسة فنية كاملة ٠

وفى البداية لم أرفض الفكرة رفضا تاما ، بل أعددت فى ذهنى اقتراحات بديلة للاستعاضة بها عنها ، وقد كان أولاها : أن نقوم بالنزول فى أفريقية الشمالية الفرنسية التى تشمل مراكش وتونس والجزائر وهى عملية سميناها : «لاعب الجمباز» ولم تلبث أن أضحت جزءا من عملية « الشعل الكبرى » وقد حضرتنى «فكرة بديلة أخرى» كانت تحلق دائما فى مخيلتى ، وأيقنت أن فى طاقتنا القيام بها مع حركة غزو افريقية الشمالية فى وقت واحد ، وهى : «حركة المشترى» التى تقصد تحرير شمال النرويج ، وامداد روسيا بالعون المباشر حيث تتاح الفرصة لتعاون عسكرى مشترك مع قوات روسيا وأسطولها وسلاحها الجوى ، كما يمكن تأمين سلامة الطرف الشرقى من أوروبا وفتح طريق للامدادات على

ارحب نطاق الى روسيا ، ومثل هذا المشروع ـ الذى ستجرى معاركه فى منطقة قطبية ـ لا يحتاج الى أعداد ضخمة من الرجال ولا من المؤن والعتاد وقد استطاع الألمان أن يحصلوا على هذه المواقع الاستراتيجية الهامة دون أن تكلفهم الا اليسير ، وقد يمكننا استردادها دون أن تكلفنا الكثير ٠

وهكذا اتجه اختيارى أولا الى عملية المشعل ، وقد أحاول الاتجاه الى « عملية المشترى » أيضا فى عام ١٩٤٢ متى هيىء لى ذلك ٠

وقد بان لى أن محاولة خلق رأس جسر فى شربورج أكثر صعوبة واقل جاذبية وثمرة وعونا ، ومن الخير لنا أن ننشب مخلبنا الأيمن فى شمال افريقية ، وأن ننشب مخلبنا الأيسر فى أقصى بحر الشمال ثم نترقب عاما آخر قبل أن نغامر بنشوب أسناننا فى القلعة الألمانية المنيعة عبر المانش ٠

لقد كانت هذه هى الآراء التى أفصحت عنها حينئذ ، ولم أعض بنان الندم أسفا عليها قط ، ومع ذلك فقد كنت متأهبا لان أمنح عمليـة «شربورج» التى سميناها «المطرقة الكبيرة» ماتتطلبـــه مع الاقتراحات الاخرى أمام لجان التخطيط من دراسة ،وكنت على يقين بأن هذه العملية ستسقط من حساب تفكيرنا اذا درسناها دراسة وافية ، ولو كانت لى الصلاحيات التى تخولنى اصدار الأوامر ، لقررت البـــدء بعمليتى : «المشعل والمشترى» فى الخريف القادم ، ولسمحت بنشر الشائعات عن عملية «المطرقة»وعن التأهب لها كستار يحجب حقيقة أغراضنا ٠

لكن كان على أن استخدم كل نفوذ وأن أسلك كل أسلوب دبلوماسى رقيق للحصول على موافقة حليفتنا العزيزة وتأييدها وانسجامها ، لأن مؤازرتها تحول دون تعريض العالم للدمار ، لهذا لم أقترح أى حل من هذه الحلول البديلة فى الاجتماع الذى عقدناه فى الرابع عشر من الشهر ٠

ولقد صادف الاقتراح الحاسم الذى قدمته الولايات المتحدة للقيام بغزو شامل لألمانيا فى أقرب وقت ممــكن بشرط أن تكون انجلترا هى نقطة الانطلاق من الناحية الاساسية للقضية ترحيبا بالغا منا ، وبعث فى نفوسنا مباهج الفرح والسرور ٠

وكان من المحتمل أن نقابل ـ كما سنرى فيما بعد ـ خطط أمريكا لأسباغ الأولوية على مؤازرة الصين وسحق اليابان ، لكن الرئيس روزفلت والجنرال مارشال قد رأيا منذ بدء تحالفنا ـ بعد هجوم ميناء « الدر » بالرغم من تيارات الرأى العام المعارضة ـ أن هتلر هو العدو الأســاسى الاول ، وكانت لى رغبة شخصية فى مشاهدة الجيوش البريطـانية ـ الامريكية وهى تتقدم فى أوروبا جنبا الى جنب ، ولكننى كنت على يقين مطلق بأن دراسة التفاصيل : كالخطط المتعلقة بالنزول وما ماثلها ٠٠ والتفكير الواضح فى أستراتيجية الحرب الرئيسية ، سيدفعان الى العدول التام عن « عملية المطرقة » واذا حانت ساعة العمل الجاد ، فلن تستطيع أية سلطة عسكرية أو بحرية أو جوية على أى من جانبى الأطلنطى ، اتخاذ الاستعدادات اللازمة لمثل هذه الخطة أو تحمل أعباء مسئولياتها ـحسب

معلوماتي- ولا تستطيع النوايا المشتركة والتمنيات الطيبة الانتصار على مرارة الحقائق قسوتها .

وموجز القول ، أنني تقصيت باستمرار فكرتي التي ضمنتها مذكرتي التي قدمتها الى الرئيس في ديسمبر عام ١٩٤٢ والتي تتلخص في أن على جيوش التحرير البريطانية - الامريكية أولا ، أن تنزل في أوروبا عام ١٩٤٣ ، وأن انزال هذه القوة الهائلة لايمكن اتمامه الا من جنوبي انجلترا ، وأنه يجب أولا ألا يمنع مانع من تحقيق هذه الغاية ، وأخيرا : ليس في طاقتنا أن نقف بمعزل عن الروس الذين يحاربون القوات الألمانية الضاربة في كل ساعة على نطاق هائل ، بل يجب أن نشتبك مع العدو .. وهذا التفكير يبدو أيضا في كل خطط الرئيس . فما الذي يمكننا أن نصنعه في الاشهر الاثنى عشر أو الخمسة عشر التي يجب أن تنسلخ قبل أن نستطيع اجتياز المانش بقوات كبيرة .

ولا مرية في أن الاستيلاء على شمال أفريقية الفرنسي ، كان في حد ذاته ممكنا ومعقولا ، ويتفق مع الخطة الاستراتيجية الشاملة .

ولقد كنت آمل ، أن تتقدم هذه العملية جنبا الى جنب مع تدهور في النرويج ، ولا أزال أعتقد احتمال حدوث هاتين العمليتين في آن واحد وقد يكون من أفدح الاخطار أن يفقد الانسان بساطة الهدف وفرديته في مثل هذه المناقشات الحامية التي تتناول أمورا لاحصر لها ، على الرغم من أني كنت آمل أن تتحقق عمليتا «المشعل والمشترى» في وقت واحد فانني لم أكن أهدف قط الى أن تربك العملية الثانية العملية الاولى .. فعشاق التركيز وتكتيل كل الجهود التي تبذلها دولتان قويتان للقيام بهجوم قوى ، بلغت من الكثرة حدا لايمكن أى غموض من أن يحول دون أية مشورة سليمة لهذا رأيت أن السبيل الوحيد لملء الفراغ ، قبل أن تستطيع اعداد كبيرة من القوات البريطانية والامريكية محاربة الالمان مباشرة في عام ١٩٤٣ - هو : أن نقوم معا بالاستيلاء بالقوة على أفريقيا الشمالية بحيث يسير هذا الاحتلال مع الزحف البريطاني الى الغرب عبر الصحراء صوب طرابلس وتونس .

وأخيرا حين انتهى بحث كل الخطط والأدلة الأخرى أصبح هذا الموضوع يحتل قرار الحلفاء الغربيين .

وفي شهرمايو زارنا آخرون. فقد جاء مولوتوف ليفاوضنا في انشاء حلف انجليزى - روسى ، وليعرف وجهات نظرنا في موضوع اقامة الجبهة الثانية ، وقد تم الوصول الى التحالف المذكور ، كما دار البحث حول موضوع «الجبهة الثانية» بالتفصيل وأراد ضيوفنا الروس أن يكون نزولهم خارج لندن طيلة اقامتهم ، لذا وضعت تشيكرز تحت تصرفهم . وبقيت أنا في هذا الوقت في ملحق داوننج ستريت ، وان كنت قد ذهبت الى تشيكرز لقضاء ليلتين فيها ، حيث سنحت لى الفرصة لاجراء مباحثات خاصة ومستفيضة مع مولوتوف والسفير مايسكى الذى كان من أحسن المترجمين لما يمتاز به من السرعة الفائقة وسهولة التعبير وادراكه موضوعات البحث .. وقد أردت أن أوضح لهما بوساطة الخرائط

ما تصنعه فى هذا الوقت، وأبين الحدود والخصائص المعينة فى الطاقة الحربية لدولة بحرية مثل بريطانيا ، وقد أفضت فى الحديث عن « أساليب الحرب البرمائية» ، وأوضحت ماتكابده من أهوال ومشاق فى سبيل المحافظة على شريان حياتنا عبر الاطلنطى من هجمات الغواصات ، واعتقد أن مولوتوف قد تأثر بكل ماقلت ، وعرف أن مشكلتنا تختلف كليا عن مشكلة دولة برية ضخمة ، وعلى أية حال فلقد كانت هذه المباحثات خير معين على التقارب بيننا أكثر من أى وقت مضى .

وفى خلال زيارة مولوتوف لتشيكرز ظهرت الشكوك المتأصلة لدى الروس تجاه الاجانب فى بعض الحوادث البارزة فقد طلبوا عند وصولهم مفاتيح كل غرف النوم ، واستطاع رجالنا أن يحصلوا عليها بصعوبة بالغة وراح الضيوف يغلقون على أنفسهم أبواب هذه الغرف باستمرار ، وحينما كان الخدم يدخلون الغرف لاصلاح الاسرة ، كانوا يعثرون على المسدسات تحت الوسائد ، فى كل مرة ، وقد أتى الثلاثة الكبار من أعضاء البعثة بضباط أمنهم لحراستهم ، كما أتوا بامرأتين روسيتين للاهتمام بملابسهم وتنظيف غرفهم ، وحينما كان المبعوثون الروس يغادرون « تشيكرز » الى لندن كانت المرأتان تتبادلان حراسة غرف الضيوف باستمرار ، فلا تنزلان معا لتناول وجبات الطعام ، ومع ذلك أظهرت المرأتان بعض اللين بعد أيام قلائل من الزيارة ، وطفقتا تتحدثان الى خدم المكان بفرنسية غير سليمة أو بالاشارة .

وقد اتخذت اجراءات وقائية أكثر من المعتاد لحماية مولوتوف والمحافظة على سلامته ، وقام رجال شرطته بتفتيش حجرة نومه ؛ ولم يدعوا خزانة فيها أو شبرا أو قطعة من أثاث دون أن يفتشوها تفتيشا دقيقا بعين بصيرة ، وقد كان تفتيش السرير والفراش موضع اهتمام خشية أن تكون بهما معدات فتاكة ، وكان الروس يقومون باعادة تنظيم الفراش لكى يمكنوا صاحبه من الفرار منه اذا ماشعر بالخطر يداهمه ، بدلا من الوقوع فى الشرك .

وفى الليل كان يضع مسدسه وحقيبة أوراقه الى جانبه ، ومن الواجب أن نتخذ دائما أشد الاحتياطات أيام الحرب للوقاية مما قد يحدث من أخطار ، لكن أى اجراءات تتخذ ينبغى أن يراعى فيها الحرص على تقدير الواقع تماما ، ولعل أيسر امتحان : أن يسأل المرء نفسه دائما هل للفريق الآخر منفعة فى قتله ، وحينما توجهت الى موسكو منحت الروس ثقتى المطلقة فى حسن ضيافتهم .

وطار مولوتوف الى واشنطن ثم قفل عائدا بالمشروعات التى تتضمن اجتياز القناة فى عام ١٩٤٢ ، وكنا لانزال ندرس هذه المشروعات دراسة جدية مع أركان الحرب الامريكيين ، ولم تبد لنا بعد نتيجة دراستنا غير المصاعب ، ولم يكن هناك حرج فى اصدار بيان ذى صبغة عامة قد يرغم الألمان على التخوف وابقاء أكبر عدد ممكن من جنودهم فى الغرب ، ولقد وافقنا على اصدار بيان رسمى أعلن فى الحادى عشر من يونيو ، واشتمل على العبارة التالية :

« وتم التفاهم إبان المحادثات على الضرورة الملحة لانشاء الجبهـــة الثانية فى أوروبا عام ١٩٤٢ »

ورأيت من الاهمية القصوى أنه يتحتم علينا ألا نحاول خداع حليفتنا حين نحاول خداع العدو ولهذا قمت فى الوقت الذى كنا نعد فيه مسودة البلاغ الرسمى ، بتسليم مولوتوف شخصيا – داخل غرفة مجلس الوزراء وبحضور عدد من الزملاء – مذكرة أبنت فيها : أنه على الرغم مما سنبذله من جهد مستطاع لوضع الخطط اللازمة فاننا لانستطيع أن نتقيد أو نرتبط بوعود معينة ؛ لهذا حينما وجه الينا اللوم فيمـــا بعد وحين أثار ستالين الموضوع معى ، بصفة شخصية كنا دائما نستخرج المـذكرة ونومىء الى العبارة التى جاءت فيها بأننا لانستطيع أن نتقيد بأى تعهد ، وهذا نص المذكرة :

مذكرة

« اننا نقوم بوضع الخطط الضرورية لنزولنا فى القارة فى أغسطس او سبتمبر عام ١٩٤٢ · وكما أبنا فيما سبق ، تحدد الحاجة الى ســـفن الانزال الخاصة قوة ما سيجرى انزاله من قوات ، ومن الجلى أنه ليس فى صالح قضية الروس أنفسهم ولا فى صالح قضية الحلفاء ككل أن نقــوم بعملية لمجرد القول بأننا قد عملنا بأى ثمن ، تؤدى الى كارثة وتمنح العدو فرصة مواتية لاغتنام الأمجاد والمفاخر نتيجة هزيمتنا ، ومن العســـير أولا أن نقول : هل سيؤدى الوضع الى جعل مثل هذه العملية أمرا ممكنا حين يجىء وقتها المناسب ؟ ولهذا : فليس فى طاقتنا أن نبذل أى وعد فى هذا الامر ، لكن اذا تحقق لنا ان مثل هذا المشروع معقـــول ومنطقى أيضا ، فاننا لن نتردد أبدا فى تنفيذه ·

وفى الاسابيع القادمة خطت آراء الخبراء خطوات واسعة وقد ركزت افكارى كلها على عملية « المطرقة » الكبرى وطلبت من مستشارى امدادى بتقارير دائمة ومستمرة ، وسرعان ماانكشف لى مافيها من صعاب ومتاعب فاكتساح شربورج بجيش ينزل من البحر فى مواجهة المقاومة الألمانية التى قد تفوق قواتنا عددا وتفيد من حصونها المنيعة ، عمليـــة فى غاية الخطورة ، ولو كتب لهذه العملية النجاح ، فان قوات الحلفاء ســـتجد نفسها مضطرة الى البقاء محصورة فى شربورج وشبه جزيرة كوتنتان مدة عام على الاقل ، تعتمد على نفسها فى التزود بما يفتقر اليـــــه من المؤن والذخائر ، وتتصدى لضرب الطائرات والمدفعية المتواصــــــل والطريق الوحيد لايصال هذه الامدادات هو ميناء شربورج نفسه الذى يتحتم علينا الدفاع عنه ضد غارات جوية مستمرة ومتفوقة فى الغالب طيلة فصــــلى الشتاء والربيع ، ومثل هذه العملية سوف تفرض على مواردنا البحرية والجوية حملا ثقيلا ، قد يستنزفها ويؤثر على عملياتنا الاخرى ، واذا كتب لنا النجاح فى هذه العملية فسنرغم على الخروج من شبه جزيرة كوتنتان فى فصل الصيف المقبل بعد أن نكتسح سلسلة طويلة من خطوط الدفاع الألمانية التى تقوم بحمايتها أية قوات يمكن الالمان توفيرها للدفاع عنها ·

ولو تحقق هذا فرضا فلن يكون هناك سوى خط حديدى واحـــد يمكننا استخدامه فى التقدم ، ولا شك فى أن الالمان سيحطمونه قبل أن نتمكن من استخدامه والى جانب هذا لايمكننى أن أفهم كيف يمكن أن يساعد هذا المشروع الفاشل روسيا ، فقد خلف الألمان فى فرنسا خمسا وعشرين فرقة متحركة وليس في وسعنا أن نجهز قبل شهر أغســطس أكثر من تسع فرق لعملية المطرقة ، من بينها سبع فرق بريطانية ، ولهذا لم تكن هناك حاجة لدى القيادة الالمانية الى استدعاء فرق جــديدة من الجبهة الروسية ٠

وفى الوقت الذىأخذت فيه هذهالحقائق وما شاكلها تظهر ببشاعتها أمام ضباط الاركان ، بدأ شيء من الريب والاحتياج الى الحماسة يظهر لاعند ضباط الأركان البريطانيين فحسب ، بل عند رفاقهم من الامريكيين أيضا ٠

وظلت محادثات الأركان جارية طوال فصل الصيف ٠ هذا وقد تم العدول عن عملية المطرقة الكبرى بالاجماع ، ولم ألق من الجهة الأخرى تأييدا ايجابيا لعملية المشترى فى شمال النرويج ٠ واتفقنا كلنا على أن نقوم بغزو رئيسى عبر القناة فى عام ١٩٤٣ وكان السؤال الذى يحضر فى أذهاننا بصورة واضحة لا تقبل الجدل والنقاش هو : ماذا سنصنع فى هذا الوقت ؟ لقد كان من العسير أن تقعد بريطانيا وأمريكا دون قتال ، طوال هذه الفترة الا فى معركة الصحراء ، وكان الرئيس مصرا على أنه يجب على الامريكيين أن يحاربوا الألمان على أوسع نطاق مستطاع ابان عام ١٩٤٢ ٠

ولكن فى أى ميدان يمكن أن يجرى هذا القتــال ؟ انه لايمكن أن يجرى الا فى افريقيا الشمالية الفرنسية ٠ وقد ارتضى الرئيس هـــذا المشروع ٠ وهكذا يمكن للحظة الصالحة أن تبقى دون غيرهــا من الخطط وانا فى انتظار الرد الامريكى ٠

موسكو

الاجتماع الاول

في ساعة متأخرة من ليلة العاشر من شهر أغسطس بعد ان تناولنا العشاء في دار سفارة القاهرة الرائعة الجميلة مع عدد من الشخصيات ، بدأنا رحلتنا الى موسكو ، وكان فريقي الذى شغل رجـاله ثلاث طائرات حينذاك ــ يتكون من رئيس أركان حرب الامبراطورية والجنرال « ويفل » الذىيعرف الروسية وماريشال «الجو تيدر» والسير «اليكسندر كادوجان» وكان افريل هاريمان قد وصل أخيرا من أمريكا بناء على طلب مني قدمته الى الرئيس ، وقد سافرنا معا في طائرة واحدة ، وعند الفجر ، كنا نقترب من جبال كردستان ، حيث كان الجو بديعا ، وكان طيارنا «فاندركلوت» في أحسن حالاته ، وعندما اقتربنا من هذه الارض الجبلية السامقة ٠٠ سألته عن الارتفاع الذى يعتزم أن يبلغه في طيرانه فقال : انه تسـعة آلاف قدم وهو ارتفاع مناسب ، ثم حانت مني التفاتة الى الخريطة فرأيت قمما يرتفع بعضها الى أحد عشر ألفا أو اثنى عشر ألفا ، كما رأيت احداها ترتفع الى ثمانية عشر ألفا أو عشرين ألفا ؛ وان كانت بعيدة ، وفي وسع المرء ، مالم تعترضه سحب مباغتة تحيط به أن يسلك سبيلا ملتويا بين الجبال في أمان وطمأنينة ومع ذلك طلبت الارتفاع الى مدى اثنى عشرألفا وبدأنا نمتص الاوكسجين من أنابيبنا، وعندما هبطنا في الثامنة والنصف صباحا في مطار طهران ــ وكنا قد اقتربنا من الارض ــ لاحظت أن جهاز قياس الارتفاع ، كان يسجل أربعة آلاف وخمسمائة قدم فقلت ــعنجهلــ «من الافضل اصلاح هذا الجهاز قبل أن نستأنف الطيران من طهران» ، فرد «فاندركلوت» قائلا : «ان مطار طهران يرتفع مثل هذه المسافة عن سطح البحر» ٠

وكان السير « ريدر بولارد » وزير جـلالته المفوض في طهـران ينتظرني بالمطار ، وقد كان بريطانيا يتسم بالعنف والقسوة ، وله خبرة طويلة بشئون ايران ولا يجرى وراء الأوهام ٠

وقد تأخرنا كثيرا ، حتى أننا لم يعد في وسعنا اجتياز جبـال البروز قبل أن ينشر الظلام جناحيه ، وقد دعيت لتنلول الغداءمعالشاه في قصر به حوض سباحة رائع يقوم وسط أشجار عالية على ارتفـاع ملحوظ بين الجبال ، وكانت القمة العظمى التي لاحظتها في الصباح على الخريطة تسطع أضواؤها بألوان قرمزية وبرتقالية ، وقد عقدنا في حديقة دار المفوضية البريطانية بعد الظهر ، اجتماعا طويلا حضره افريل هاريمان وكبار موظفي السكك الحديدية من بريطانيين وأمريكيين ، وتقرر أنتتولى أمريكا ادارة السكك الحديدية عبر ايران كلها من خليج البصرة الى بحر قزوين ٠ وكان هذا الخط الحديدى ــ الذى قامت باتمامه شركة هندسية

بريطانية - آية في روعة العمل الهندسى ؛ فقد اشتمل على ما يقرب من ٣٩٠ جسرا كبيرا على طول الخط عبر المضايق الجبلية وقال هاريمان : ان الرئيس يرغب فى تحمل المسئولية الكاملة عن ادارته وتشغيله الى أبعد حدود طاقته ، وفى وسعه أن يؤمن له القاطرات والعربات والخبراء فى وحدات عسكرية الى الحد الذى نعجز عن تأمينه ، ولذا فقد وافقت على عملية النقل هذه بشرط أن ينص على اعطاء الأولوية لاحتياجاتنا العسكرية الملحة. وقد قضيت ليلى فى القصر الصيفى للمفوضية البريطانية ، وهو يرتفع من طهران بما يقرب من ألف قدم بسبب شدة الحر وضوضاء العاصمة ، حيث بدا وكأن كل شخص يملك سيارة تنطلق الاصوات من أبواقها باستمرار .

وفى السادسة والنصف من صباح اليوم التالى وكان يوافق الثانى عشر من أغسطس غادرنا طهران وارتفعنا ونحن نطير فوق الوادى العظيم الذى يؤدى الى «تبريز» ثم اتجهنا شمالا الى «اينزلى» على بحر قزوين ، واجتزنا هذه السلسلة الثانية من الجبال على ارتفاع يقرب من أحد عشر ألف قدم لنتفادى قممها وسحبها فى آن واحد وكان معنا الضباط الروس وقد تحملت الحكومة السوفيتية مسئولية سيرنا وسلامة وصولنا ، وبدت المردة من الجبال المغطاة بالثلوج الى الشرق ، ولاحظت أننا نطير وحدنا ، وقد أوضحت لنا احدى الرسائل اللاسلكية سبب تأخر طائرتنا الثانية التى تضم رئيس أركان الامبراطورية ويفل وكادوجان وغيرهم اذ اضطرت الى العودة الى طهران بسبب خلل طرأ على آلاتها ، وبعد ساعتين كنا فوق مياه بحر قزوين ، ثم لاحت لأعيننا «اينزلى» أسلفنا ولم أكن قد رأيت بحر قزوين من قبل ولكنى تذكرت : كيف أننى قبل ربع قرن تقريبا - وكنت اذ ذاك وزيرا للخزينة - ورثت أسطولا ، ظل يسيطر سنة كاملة على مياهه الهادئة الشاحبة ، وقد هبطنا الآن الى ارتفاع لم نعد فيه بحاجة الى كميات اضافية من الاكسيجين على شواطىء البحر الغربية التى كنا لا نرى منها الا لماما حيث تقوم آبار بترول «باكو» وكانت الجيوش الألمانية قد اقتربت حينذاك من بحر قزوين، فاتجهنا بطائراتنا الى «كويبيشيف مبتعدين عن ستالينجراد ومناطق القتال ووصلت بنا هذه الحركة الى دلتا نهر الفولجا تقريبا وامتدت آفاق شاسعة من الأرض الى أقصى مدى وكانت هذه الأراضى تبدو منبسطة سوداء ، لا أثر فيها لحياة انسان ، وكنا نرى هنا أو هناك أجزاء مخططة محروثة من الارض ، تشير الى وجود مزرعة للدولة ورأينا نهر الفولجا العظيم ينساب فى دعة بين خطين عريضين من المستنقعات الواسعة ، كما كنا نرى أحيانا طريقا مستقيما كل الاستقامة يمتد من أفق شاسع الى آخر ، وبعد أن قضيت ساعة فى استجلاء روعة هذا المنظر الذى يستهوى الأفئدة ويسحر العقول ، عدت أنشد الراحة فاستسلمت للنوم .

وقد فكرت فى أمر هذه الدولة البلشفية التى كنت برما بها ، حيث حاولت جهدى خنقها عند ولادتها ، وكنت اعتبرها حتى ظهور هتلر العدو الاول للحرية الحضارية ، وأخذت أسأل نفسى ماذا ينبغى أن أقول لرجال هذه الحكومة الآن ؟ لقد لخص الجنرال ويفل - ذو الميول الادبية - كل ماأريد أن أقوله فى قصيدة واحدة .. كانت هناك أبيات كثيرة من الشعر

ولكن البيت الاخير من كل مقطع كان هو : «لن تكون هناك جبهة ثانية في عام تسعمائة واثنين واربعين» ان هذا القول أشبه مايكون بنقل كمية هائلة من الثلج الى القطب الشمالي • ومع ذلك فقد شعرت أن من واجبي ان أنقل اليهم الحقائق شخصيا ، وأن أجابه بها ستالين وجها لوجه بدلا من أن أكلها الى البرقيات الوسطاء ، فمثل هذا الاتصال المباشر ، يبدى اهتمامنا بهم وبمصائرهم ـ على الأقل ـ ويوضح تفهمنا لما يعنيه كفاحهم للحرب عامة ،وقد كنا بالطبع نكره دائما نظام حكمهم ، كما كانوا هم كذلك الى أن هوى سوط الألمان عليهم •• انهم كانوا يؤثرون رؤيتنا ـ ونحن نمحى من الوجود ـ دون أهتمام ليقتسموا امبراطوريتنا فى الشرق مع هتلر فرحين •

ولما كان الجو مناسبا والريح مواتية ، وكانت رغبتى قوية عارمة فى الوصول الى موسكو بأسرع وقت ممكن : تقرر أن نختصر الطريق عند زاوية « كويبيشيف » ونتجه فورا الى العاصمة وكل ماخشيته أن نكون قد اضعنا عليه مأدبة رائعة وحفاوة كبيرة بروح الكرم الروسى الصادق وفى الساعة الخامسة تقريبا بدأت قباب موسكو ومنائرها تبدو أمامنا وقد طفنا حول المدينة فى طرق تم تخطيطها بعناية ومهارة وتم تحذير بطاريات المدافع المضادة من اطلاق النار على طائرتنا ثم هبطنا فى المطار الذى قدر لى أن أعود اليه فى أثناء زيارتى له ابان الحرب •

ورأيت أمامى مولوتوف على رأس مجموعة من الجنرالات ورجال السلك الديبلوماسى مع عدد ضخم من مصورى الصحف الذين اعتدنا ان نشاهدهم فى مثل هذه المناسبات ، وقد استعرضنا حرس شرف رائع الهندام على نظام عسكرى طيب ، وبعد أن عزفت الاناشيد الوطنية للدول العظمى الثلاث التى ستقرر مصير هتلر ، توجهت الى مكبر الصوت وألقيت كلمة قصيرة وتحدث «أفريل هاريمان» بالنيابة عن الولايات المتحدة وقد تقرر أن يقيم هاريمان فى دار السفارة الامريكية ، أما أنا فقد حملنى مولوتوف بسيارته الى المكان الذى أعد لنزولى على بعد ثمانية اميال من موسكو وهى « دار الدولة رقم ٧ » ، وحينما كنا نمر فى شوارع موسكو التى بدت خالية أمامى ، أدنيت زجاج النافذة يربو على البوصتين ، وكم أدهشنى أننى رأيت سمك زجاج النافذة يربو على البوصتين ، على أن هذا التحفظ قد فاق كل ماسبق أن مارسته أو باشرته من تجربة وقال المترجم « بافلوف » : « يقول الوزير ان هذا أكثر حيطة وحكمة » ، وبعد أكثر من نصف ساعة بقليل كنا فى المكان الذى خصص لى •

وقد أعد كل شىء بما عرف عن الأنظمة الجماعية من افراط ، على انه كان تحت أمرتى ضابط مرافق رائع الصورة مهيب الطلعة ، يمت الى احدى الأسر النبيلة فى عهد القياصرة ـ فيما أعتقد ـ وقد قام بدور المضيف بالنسبة لى فكان نموذجا طيبا لدماثة الخلق والعناية ، وكان هناك عدد من الخدم المهرة يرتدون ملابسهم البيض التقليدية تعلووجوههم ابتسامة مشرقة ، وقد وقفوا ينتظرون تلبية كل طلب أو اشارة من الضيوف ، وفى غرفة الطعام ، مدت مائدة كبيرة وعدد آخر من الموائد الصغيرة ، تحوت الذ وأطيب مايمكن ان يجمعه المرء على مائدة من الوان

الطعام ، وقد كشفت الانوار الكهربية الساطعة روعة الحمام ونظافته ٠٠ تفجر منه الماء الساخن والبارد وتاقت نفسى الى حمام ساخن يزيل ماعانيت من ارهاق وما أصابنى من حرارة الجو فى رحلة طويلة شاقة٠٠ وفى سرعة فائقة أعد كل شىء ٠٠ ولاحظت أن الاحواض لاتمتلىء بالماء الساخن أو البارد كل منها على حدة ، بل ينزل الماء من صنبور واحد وفقا لدرجة الحرارة التى يرغبها المرء ، ولا يغسل الانسان يديه فى الحوض ، بل تحت السيل المتدفق من الماء وقد اقتبست هذا النظام فى بيتى ، وأستطيع أن أقول : انه اذا توافرت المياه فتلك هى الطريقة المثلى ٠

وبعد أن أشبعت رغبتى فى الغطس والاستحمام أنضممت الى الرفاق فى قاعة الطعام ، حيث قدم لنا كل ألوان الطعام والشراب وفى مقدمتها ــ الكافيار والفودكا ــ مع عدد من ألوان الخمور الفرنسية والالمانية وأطعمتها بشكل لايمكننا الاتيان عليه ولم يبق أمامنا سوى وقت قصير ننتقل بعده الى موسكو وقد أبلغت مولوتوف أننى سأكون متأهبا لمقابلة ستالين تلك الليلة ، وقد اقترح «مونوتوف» أن يتم الاجتماع فى السابعة ٠

ووصلت الى الكرملين ، واجتمعت لأول مرة بالزعيم الشورى العظيم ، والسياسى الروسى المكتمل ، ذلكم المحارب الذى قدر أن ارتبط به ارتباطات رسمية وثيقة فضلا عن أنها مثيرة وأن كانت احيانا فى منتهى الرقة والدماثة ، وقد استغرق اجتماعنا أربع ساعات كاملة ، ولما كانت طائرتنا الثانية لم تصل بعد حاملة «بروك وويفل وكادوجان» فقد اقتصر الحاضرون على « ستالين ومولوتوف وفورشيلوف وعلى أنا وهريمان وسفيرنا فى موسكو مع عدد من المترجمين » وقد استندت فى الوصف التالى على تدويننا للوقائع كما تذكرتها فيما بعد وكما بعثت بها فى برقياتى إلى الوطن حينئذ ٠

وكان الجفاف والفتور يسودان الساعتين الأوليين وقد بدأت الحديث فورا عن الجبهة الثانية قائلا : اننى اود التحدث بصراحة كما أطلب من ستالين أن يبادلنى الصراحة نفسها ، فما قدمت الى موسكو الا لأننى احس بأنه يستطيع البحث فى الامور الواقعية ، فعندما جاء «مولوتوف» الى لندن ، كنت قد ابلغته أننا نقوم بمحاولة لوضع خطط لتحويل بعض ضغط الالمان الى فرنسا ، ولكنى كنت قد أوضحت لمولوتوف انه ليس فى وسعى أن أعد بشىء فى عام ١٩٤٢ ، وقد سلمته مذكرة تتضمن هذا المعنى ، ثم بدأت منذ ذلك التاريخ دراسات شاملة مفصلة من جانب بريطانيا وامريكا معا لهذه المشكلة وقد توصلت الدولتان الى الاستنتاج بأنهما تعجزان عن القيام بعملية رئيسية فى سبتمبر ــ وهو الشهر الأخير من السنة الذى يمكن الاعتماد على طقسه للقيام بمثل هذه العملية ــ لكن الدولتين ــ كما يعلم ستالين ولا شك ــ تعدان العدة للقيام بعملية عظيمة فى عام ١٩٤٣ ، ولهذه الغاية من المنتظر أن يصل الى مراكز التجمع فى انجلترا فى ربيع عام ١٩٤٣ ، ما يقرب من مليون جندى امريكى ، يؤلفون حملة تضم سبعا وعشرين فرقة تضيف اليها بريطانيا احدى وعشرين فرقة أخرى ، وسيكون نصف هذه القوات تقريبا من سلاح المدرعات ولم تصل الى بريطانيا حتى الآن الا فرقتان

ونصف فرقة ، لكن اضخم عمليات النقل ستتم فى أشهر اكتوبر ونوفمبر وديسمبر .

وقد قلت لستالين : اننى اعرف أن هذه الخطة لا تحقق مساعدة لروسيا في عام ١٩٤٢ ، ولكنني أعتقد أن من الممكن حينما يتم الاعداد لخطة عام ١٩٤٣ ، أن يكون للألمان جيش فى الغرب اقوى مما لديهم الآن، وعندما وصلت الى هذه النقطة تجهم وجه ستالين وبدا عليه العبوس ، ولكنه لم يقطع على حديثى ، وقلت : ان لدى أسبابا قوية تحول دون القيام بهجوم على الساحل الفرنسى فى عام ١٩٤٢ ، فليست لدينا الآن وسائل ومعدات للانزال تكفىممارسة انزال اكثر من ست فرق والمحافظة عليها عند وقوع هجوم على ساحل محصن ، واذا نجح هذا الهجوم ، فقد يكون فى وسعنا أن نبعث بفرق أخرى ، على أن افتقارنا الى وسائل الانزال هو العامل الذى يحدد اية حركة من جانبنا ، وهو افتقار نحاول اصلاحه الآن بالاكثار من تهيئة وبناء هذه الوسائل فى بريطانيا ، ولاسيما فى الولايات المتحدة وقد يكون فى وسعنا أن ننقل فى العام المقبل ثمانى فرق أو عشرا مقابل كل فرقة نستطيع نقلها هذا العام .

وقد بدا ستالين متجهما مقطب الجبين ، وكأنه غير مقتنع بكل ما قلته ، ثم سأل : أيستحيل أن نقوم بمهاجمة اى جزء من الساحل الفرنسى ؟ فعرضت عليه خريطة توضح العقبات التى تحول دون اقامة مظلة جوية فوق قوات الغزو ، الا فوق « مضايق دوفر » وبدا لى أنه لم يفهم ووجه بضعة أسئلة عن سرعة الطائرات المحاربة فيها ، أو ليس فى أستطاعة هذه الطائرات مثلا أن تغدو وتروح طيلة الوقت ؟ وقد اوضحت أن فى وسعها ان تفعل ، ولكنها فى مثل هذا المدى لا يمكنها أن تحارب ، وأضفت : أن من الواجب الابقاء على اية مظلة مفتوحة ، اذا أريد منها أن تكون مجدية ، وقال : انه ليست هناك فى فرنسا اية فرقة ألمانية ذات قيمة ، وهى جملة عابرة سارعت الى نفيها ودحضها واكدت له أن فى فرنسا الآن خمسا وعشرين فرقة ألمانية بينها تسع من فرق الخط الأول ، وهز ستالين رأسه وقد داخله الشك فى ذلك .. وقلت له اننى قد أصطحبت معى رئيس أركان حرب الامبراطورية والجنرال « ويفل » للبحث فى مثل هذه النقاط بالتفصيل مع أركان الحرب الروسى فهناك نقطة يقف عندها الساسة فى مناقشاتهم المتعلقة بمثل هذه الموضوعات ولا يستطيعون مجاوزتها .

وقال ستالين — وقد اشتد تجهمه ، انه قد فهم منى أننا عاجزون عن فتح جبهة ثانية بقوات كبرى ، وأننا غير راغبين فى انزال ست فرق، فأكدت له أنه فى وسعنا انزال ست فرق ، ولكن الضرر الذى يحدث نتيجة انزالها أكبر من النفع الذى يترتب على هذا الانزال ، اذ أنه سيؤثر تأثيرا ضارا على العملية الكبرى التى نعد العدة للقيام بها فى العام المقبل : فالحرب حرب لا حماقة ، ومن الحماقة ان يسعى الانسان بنفسه الى كارثة لا نفع فيها لأى فريق ، وقلت له : اننى أخشى أن تكون الانباء التى حملتها سيئة وانه اذا كان فى استطاعتنا أن نبعث ما بين مائة وخمسين الفا الى مائتى الف من الجنود — كمظاهرين له — وأنها

ستكون قادرة على سحب قوات المانية ضخمة من الجبهة الروسية ، فانا لن نتردد لحظة واحدة فى القيام بهذه الخطوات مهما تكبدنا بسببها من خسائر ، أما اذا لم تؤد الى سحب اية قوات ، فأن القيام بها يكون خطأ فادحا ، ولاسيما اذا كانت تؤثر على آمالنا فى « حملة عام ١٩٤٣ » ..

وقال ستالين ــ وقد بدا عليه القلق ــ : أن نظرته الى الحرب تختلف عن نظرتنا ؛ فالرجل الذى لا يكون مستعدا للمجازفة لا يستطيع ان يظفر فى الحرب ، فلماذا اذن هذا الخوف الشديد من الألمان ؟ انه لا يستطيع أن يفهم له سببا ، وقد علمته التجارب أن القوات ينبغى أن تدمى فى المعارك ، واذا لم تعرض قواتك للدماء فلن تقوى على الحكم على قيمتها ، وسألته : ألم تسأل نفسك ابدا لماذا أحجم هتلر عن غزو انجلترا فى عام ١٩٤٠ عندما كان فى أوج قوته ولم يكن لدينا أكثر من عشرين ألف جندى مدربين ومائتى مدفع وخمسين دبابة ، ولكنه لم يقم بهجوم ، لأن هتلر خاف أن يقوم بالعملية ، فليس من اليسير اجتياز قناة المانش ، ورد ستالين قائلا : ان ما قلته لا يعتبر تشبيها فأن نزول هتلر فى انجلترا سيلقى مقاومة من جانب الشعب ، أما نزول البريطانيين فى فرنسا ، فسيرحب به الشعب الفرنسي ، وهنا اوضحت له ، أن هذا ينحى جانبا فكرة الغــزو غير الناضجة ، اذ ان أى تراجع آخــر سيعرض الشعب الفرنسي لانتقام هتلر ، ويبدد قوى هذا الشــعب التى سنفتقر اليها أشد الافتقار فى عملية عام ١٩٤٣ الكبرى » .

وابتسم ســتالين ابتســامة متكلفة ، وقال اخيرا : اننا اذا لم نستطع أن ننزل فى فرنسا هذا العــام ، فليس من حقه الالحــاح على ولكنه يرى أن من واجبه أن يقول : انه لا يسايرنى فى آرائى !..

وقد عرضت حينئــذ خريطة لجنــوب شرقى أوروبا والبحــر المتوسط وشمال افريقية ، فما هى اذن الجبهة الثانية ؟ اتراها مجرد نزول على ساحل محض مقابل انجلترا ؟ أم انها يمكن أن تتبلور فى مشروع آخر ضخم ، قد يكون مفيدا للقضية المشتركة ؟ وقــد رأيت من الافضل ان أمضى به جهة الجنوب فى خطوات ، وقلت : اننا اذا استطعنا مثلا أن نوقف تقدم العدو فى خليج كاليه بوساطة جمع قوات ضخمة فى بريطانيا ، واذا استطعنا فى الوقت نفسه أن نقوم بالهجوم مثلا فى « اللوار » أو « الجيروند » أو « الشلدات » فأن مثل هــذا الهجوم ، سيكون مفعما بالأحتمالات، فهناك حتما صورة شاملة للعملية الكبرى فى العام المقبل .. وقد أعرب ســتالين عن خشــيته الا تكون خطتنا عملية ، وقد رددت عليه بأن من المتعذر حقا انزال مليون رجل ولكن علينا أن نحاول ونصل الى النجاح !..

وبعد ذلك تحولت الى موضوع الغارات على المانيا وقد قبلنا ما دار حوله من بحث وقد اكد ستالين أهمية تحطيم معنوية الشعب الألمانى، وقال : انه يعلق أهمية كبيرة على عملية الهجوم الجوى وانه يدرك أن غاراتنا تخلف وراءها اثرا كبيرا فى المانيا .

وبعد هذه المقدمة ــ التى كان لها اثر بالغ فى تخفيف حدة التوتر

بعض الشيء ــ قال ستالين : انه يفهم من حديثنا الطويل اننا لن نقوم بعملية « مطرقة » أو عملية « طراد » وأن كل ما سنقوم به لا يتجاوز ضرب المانيا من الجو ، وقررت أن أمنحه الجرعة المـــرة أولا ، وأن أهيىء الجو الصالح للمشروع الذى قدمت لعرضه والكشف عنه ، ولهذا لم أحاول بصفة عاجلة ان اخفف من اكفهرار الجو المحيط بى ، وقلت: ان من المحتم أن يكون الحديث بين الاصدقاء والزملاء الذين يتعرضون للمخاطر سويا فى غاية الصراحة ، لكن دماثة خلقى انتصرت اخيرا .

وعندما حان الوقت للقيام بعملية « المشعل » قلت : اننى ارغب فى العودة الى موضوع الجبهة الثانية فى عام ١٩٤٢ ، وهو الموضوع الذى قدمت من أجله ، فأنا لا أعتقد أن فرنسا هى المكان الوحيد الذى يصلح لمثل هذه العملية ، فهناك اماكن أخرى وقد اتخذنا نحن والأمريكيون قرارنا ــ المتعلق بخطة أخرى ــ خولنى الرئيس الامريكى ان افضى اليك بصورة سرية ، ولذا سأفضى بها اليك الآن مؤكدا أهمية السرية وضرورتها .. وهنا جلس ستالين مقطب الحاجبين وقال: انه يأمل ألا ينشر شىء عن هذه الخطة فى الصحف البريطانية .

واخذت أشرح لستالين بالتفصيل عملية « المشعل » ، وفى خلال حديثى هذا رأيت ستالين وقد بدت على وجهه علامات الاهتمام ، وكان أول سؤال وجهه السؤال التالى : ما الذى سيحدث فى أسبانيا و « فرنسا ــ فيشى » ؟ . وبعد قليل كان تعقيبه : ان العملية سليمة من الناحية العسكرية ، بيد أن هناك بعض الشكوك السياسية حول تأثيرها على فرنسا ، ثم سأل ــ بصورة خاصة ــ عن موعد تنفيذ العملية فقلت : انه لن يتأخر عن الثلاثين من أكتوبر ، وان كان الرئيس ونحن جميعا ، نحاول تقديم الموعد الى السابع من أكتوبر وبدا أن ما قلته قد بعث فى نفوس الروس الثلاثة ، بعض الارتياح .

وبدأت أوضح المزايا العسكرية التى يكفلها تحرير البحر المتوسط حيث يمكن فتح جبهة اضافية فيه واستطردت اقول : انه يجب أن ننتصر فى مصر فى شهر سبتمبر ، وفى شمالى أفريقية فى اكتوبر ، وأن نكبح جماح العدو ، ونحصر قواته فى شمال فرنسا ، واذا استطعنا أن نختتم العام باحتلال شمال أفريقية كله ، فأنه سيكون فى طاقتنا ان نهدد قلب أوربا ــ «هتلر» ، على أن هذه العملية ستكون متمشية مع « عملية عام ١٩٤٣ » ، وهذا ما اتفقنا عليه نحن والأمريكيون !.

ومن اجل توضيح هذه النقط التى عالجتها ، رسمت صورة تمساح وشرحت لستالين ــ مستعينا بالصورة ــ تصميمنا على مهاجمة بطن التمساح الناعم فى الوقت الذى نهاجم فيه أنفه الصلب ، وكان اهتمام ستالين قد بلغ ذروته فى ذلك الوقت فقال : « ليكلل الله هذا المشروع بالنجاح » !...

وقد اكدت له رغبتنا فى تخليص الروس من هذا العبء ولو أردنا ذلك فى شمال فرنسا ، فسنصاب بنكسة ، واذا قمنا به فى افريقيا الشمالية ، فان لدينا فرصة كبيرة للنصر ، وسيكون فى طاقتنا بعد ذلك

أن نساعد أوربا ، واذا هيمنا على شمالى افريقية ؛ فسيجد هتلر نفسه مرغما على سحب قواته الجوية والا فسنحطم حلفاءه وفى مقدمتهم ايطاليا ، وندخل بلادها ، وسيكون لهذه الوثبة أثر هام فى تركيا وجنوب أوربا بأكمله ، واخشى ما أخشاه ، أن نجبر على تعجل الأمور ، واذا هيمنا على شمال افريقيا فى هذا العام فسوف يكون فى امكاننا أن نقوم بهجوم ساحق على هتلر فى العام القادم ، لقد كان هذا الموضوع نقطة تحول فى مباحثاتنا .

وقد بدأ ستالين حينئذ يعرض بعض العقبات السياسية وقال : ان الاستيلاء على مناطق عملية المشعل يساء فهمه فى فرنسا وسأل عما سنصنعه بديجول ؟ فأجبته : اننا فى هذه الفترة لا نريد أن يتدخل ديجول ، ومن المتوقع أن يطلق « فرنسيوافيشى » النار على الديجوليين دون الامريكيين وعضد « هاريمان » قولى هذا فى حماسة نظرا للتقارير التى يستند اليها الرئيس والتى ترد اليه من عملاء امريكا فى كل مناطق عملية «المشعل» بالاضافة الى آراء الاميرال «ليهى» .

وقد اتضح لى أن «ستالين» لاحظ فجأة فى هذه اللحظة مزايا عملية « المشعل » الاستراتيجية وذكر أربعة أسباب رئيسية تدعو الى القيام بها ، أولها : انها ستؤدى الى اصابة مؤخرة روميل ، وثانيها : انها سترعب اسبانيا وثالثها : انها ستؤدى الى قيام قتال بين الألمان والفرنسيين فى فرنسا ورابعها : انها ستعرض ايطاليا لسهام الحرب

وقد ترك هذا البيان الرائع الذى أوضح ادراك الدكتاتور الروسى السريع الكامل ، لمشكلة كانت حتى وقت قصير جديدة بالنسبة اليه — أثرا بالغا فى نفسى ، ولا مرية فى أن قلة قليلة من الاحياء كان فى طاقتها أن تدرك — فى وقت قصير — الأسباب التى كنا جميعا نصطرع معها شهورا طويلة ، فلقد أدركها كلها فى لحظة واحدة .

وهناك سبب خامس ذكرته وهو : اختصار الطريق البحرى عبر البحر المتوسط وقد كان ما يقلق ستالين أن يعرف ، هل يمكننا أن نجتاز مضايق جبل طارق ، فأكدت له أن كل شئ سيسير على مايرام وأبلغته ما أحدثته فى مصر من تغييرات ، كما أخبرته بتصميمنا على خوض معركة حاسمة هناك فى أواخر شهر اغسطس أو سبتمبر ، واتضح اخيرا ان عملية « المشعل » قد نالت اعجاب الجميع وأن كان مولوتوف قد تساءل عما اذا لم يكن فى وسعنا تنفيذها فى شهر سبتمبر أولا ؟

ومضيت أقول : « لقد انحدرت فرنسا الى الحضيض .. ونريد ان نعيدها الى الحياة من جديد وقد علمت فرنسا ما حدث فى مدغشقر وسوريا ، ولا مرية فى ان وصول الامريكيين سيؤدى الى وقوف الشعب الفرنسى كله الى جانبنا ، وسيدرك فرانكو الخوف وقد يطلب الألمان من الفرنسيين أن يعطوهم الاسطول الفرنسى وطولون فورا ، ومثل هذا المطلب جديرة باثارة عداوات جديدة أخرى بين «فيشى» و «هتلر» .

وهنا أخذت اتكلم عن امكان وضع بعض السلاح الجوى البريطانى — الأمريكى فى الجناح الجنوبى من الجيوش الروسية حتى يساهم فى

الدفاع عن بحر قزوين وجبال القوقاز ، وفى القتال بصورة عامة فى هذه الجبهة ، بيد أننى لم أستمر فى سرد التفاصيل ، اذ كان علينا بالطبع أن نكسب معركة مصر أولا ، ولم تكن قد توافرت لدى أفكار الرئيس عن مدى مساهمة الامريكيين فى هذه الخطة ، وسألت ستالين : هل يوافق اولا على هذه الفكرة حتى نبدأ فى اعداد التفاصيل المتعلقة بها ؟ وقد رد: « ان الروس سيكونون شاكرين جدا لهذه المساعدة واضاف : ان تفاصيل الاماكن تحتاج الى درس اوفى ، وقد كنت مهتما أبلغ الاهتمام بهذا المشروع لأنه سيهيىء الفرصة لحدوث اشتباكات عنيفة بين الانجليز والامريكيين من ناحية ، والالمان من ناحية أخرى ، مما يؤدى الى الظفر بالسيادة الجوية فى ظروف أكثر جدوى من البحث فوق « خليج كاليه » عن المتاعب !

وقد اجتمعنا فى هذا الوقت حول صورة مجسمة للأرض واوضحت لستالين ما يترتب على تطهير البحر المتوسط من العدو من مزايا كبيرة وقلت له : اننى سأكون تحت تصرفه ان اراد أن يرانى مرة أخرى فرد : لقد جرت عادة الروس على أن يذكر الضيف ما يريد وأكد أنه على استعداد لاستقبالى فى كل وقت ، وها هو ذا قد علم الآن اسوأ ماكان ينتظر ؛ ولكننا انصرفنا فى جو يسوده حسن النية .

وقد استغرق الاجتماع حتى هذا الوقت أربع ساعات ومضت نصف ساعة أخرى بطيئة ونحن فى الطريق الى « دار الدولة رقم ٧ » ولما كنت منهكا ، فقد أمليت برقيتى الى وزارة الحرب والى الرئيس روزفلت بعد منتصف الليل ، وتوجهت الى فراشى بعد ذلك وقدشعرت أن الجليد قد ذاب ، وأن اتصالا روحيا قد تم ، ثم داعب النوم جفونى ورحت فى سبات عميق .

موسكو

علاقات توثقت ..

فى ساعة متأخرة من صباح اليوم التالى استيقظت فى جناحى المترف الذى تبدو من جنباته مظاهر الرفاهيـة ، وكان يوم الخميس فى الثالث عشر من شهر اغسطس ــ هو يوم « بلتهايم » بالنسبة لى ــ وكنت قد وضعت ترتيبا لزيارة مولوتوف فى الكرملين عنـــد الظهيرة ، لأسرد له تفاصيل أوسع واوفى عن طبيعة مختلف العمليات الحربية التى نفكر فيها ، وقد أشرت اليه الى مدى ما كان سيلحق بالقضية المشتركة من أضرار لو تخلينا عن مشروع « المطرقة » وما يثيره من شكوك سترغمنا على الدخول فى مناقشات علنية حول مثل هذا الموضوع وأوضحت باسهاب ماتنطوى عليه عملية « المشـعل » من هـــدف سياسى ، وكان يستمع الى بصورة ودية دون أن يشترك فى الحديث ، واقترحت عليه أن « ألتقى بستالين مرة أخرى فىالعاشرة من مساء ذلك اليوم ، وفى ساعة متأخرة اخبرت بأن الموعد سيكون فى الحادية عشرة ، وطلب الى أن أحضر « هاريمان » معى لان الحديث ســـيدور حول الموضـــوعات التى بحثناها بالامس فرددت بالايجاب وقلت : اننى ســاحضر معى ايضا : « كادوجان وبروك وويفل وتيدر » الذين وصلوا بسلام من طهران فى طائرة روسية ، وقد كان من الممكن أن يتعرضوا مع طائراتهم « الليبراتور » لنيران خطرة ٠

وقبل أن أغادر مكتب هذا الديبلوماسى ــ الذى يتسم بالرقة والحزم ــ نظرت اليه وقلت : لا شك فى أن ستالين سيرتكب أفدح الاخطاء اذا ظل يعاملنا بمثل هذه الغلظة بعد أن قطعنا هـــذه المسافات الطويلة فى سبيل لقائه ، ولاول مرة لم ينحن مولوتوف وقال : « ان ستالين رجل فى غاية الحكمة وعليك أن تتيقن أنه مهما ناقش فانه يفهـــم كل شىء ، وعلى أية حال سأخبرك بكل ما تقول ٠ »

وقد رجعت فى الظرف المنـــاسب للغـــداء فى « دار الدولة رقم ٧ » وقد كان الطقس لطيفا يشبه تماما جو انجلترا الذى نعشقه ، وتراءى لى أن فى طاقتنـــا أن نســـتكشف المنطقـــة ٠ « والدار » منزل ريفى جميل فسيح حديث البناء يقع بين مروج واسعة وحدائق كبيرة من شجر الشربين وتشتمل الغابة على ممرات جميلة ، وقد كان ممتعا حقا أن يستلقى الانسان فى جو اغسطس الجميل على الحشائش أو وريقات الصنوبر المتساقطة ، وفى الحديقة عدد من الصنابير ومن البرك الكبيرة التى تشمل أنواعا مختلفة من الاسماك الملونة ، والاسماك الاليفة التى تقبل على تناول الطعام من يدك وقد سورت المنطقة كلها بسور يرتفع خمسة عشر قدما ، ويحرسه من الجانبين عدد كثير من الجنـــود

ورجال الشرطة ، وعلى مدى مائة ياردة من البيت ، يقوم مخبأ للوقاية من الغارات الجوية ، وقد نقلنا اليه فى أول فرصة ، وقد شيد على أحدث طراز تتوفر فيه الراحة والرفاهية ، تحملك المصاعد لتنزل بك ثمانين أو تسعين قدما تحت الارض ، وهناك ثمان أو تسع غرف كبيرة فسيحة مشيدة داخل قفص سميك من الاسمنت المسلح ويقوم بين الغرف ابواب ثقيلة متحركة ، أما الانوار داخل الملجأ فساطعة والاثاث حديث الطراز ، زاهى الالوان تحس حين تأوى اليه بالراحة تسرى فى أجزاء جسمك وتجعلك تسيطر على أعصابك ، وقد استهوتنى الاسماك الملونة أكثر مما استهوانى المخبأ .

وفى الساعة الحادية عشرة مساء اسرعنا جميعا الى الكرملين ، وهناك استقبلنا ستالين ومولوتوف وحدهما ومعهما المترجم الخاص ، وقد أخذت حينئذ أناقشه مناقشة مملة وقلت له : ان عليه أن يدرك أننا قد صممنا على اتباع خطة مرسومة ، وانه لا فائدة من اللوم . . وامتد النقاش أكثر من ساعتين تحدث خلالها بأمور غير مناسبة من أننا نخشى كثيرا محاربة الالمان واننا لو حاربناهم مثل محاربة الروس لهم لدلتنا التجربة على أن هذا الخوف لا داعى اليه ، ومن أننا نقضنا عهدنا بشأن عملية « المطرقة » ، واننا لم نستطع امداد روسيا بما وعدناها به من مؤن ، ولم نرسل اليها غير الفضلات بعد ان أخذنا ما نحن فى حاجة اليه ، وكان من الواضح أن هذه الشكاوى موجهة الى أمريكا مثل ما هى موجهة الى بريطانيا .

وقد رفضت فى حزم كل اتهاماته غير انى لم استعمل الفاظا جارحة ، ومع أنه لم يتعود معارضة الآخرين له مثل ما عارضته أكثر من مرة ، فانه لم يغضب أبدا ولم يثر ، وكرر نظريته : « ان بامكان البريطانيين والامريكيين أن ينزلوا ست فرق أو ثمانى فرق فى شبه جزيرة شربورج ما دام زمام السيطرة الجوية فى ايديهم .. وقال : انه يحس بأن الجيش البريطانى لو حارب الالمان مثل ما حاربهم الجيش الروسى ، ما شعر بالرعب منهم ، وقد أثبت السلاح الجوى البريطانى وبرهن الروس على أن فى الامكان قهر الالمان وأن فى امكان المشاه البريطانيين أن يثبتوا بالدليل نفسه اذا أتيح لهم ان يحاربوا الالمان ما أثبته الروس .

وقاطعته قائلا : اننى اتساهل فيما أبديته من ملاحظات اعترافا منى ببسالة الجيش الروسى ، ولكن اقتراح النزول فى شربورج يتغاضى عن وجود قناة المانش ، وأخيرا قال ستالين : اننا لا يمكننا أن نستمر فى النقاش ، وأن عليه ان يقبل قرارنا ، وفجأة وجه الينا الدعوة لتناول العشاء فى الساعة الثامنة من مساء اليوم التالى .

وقبلت الدعوة وقلت : اننى سأسافر بالطائرة فجر اليوم التالى أى فى الخامس عشر من شهر أغسطس ، وبدا لى أن « جو » قد أفزعه هذا وسألنى : ألا يمكننى أن أبقى مدة أطول ؟ يمكن مادام فائدة فى بقائى ، وأضفت : اننى سأبقى يوما آخر على اية حال ، وهنا قلت : اننى لا احس فى موقفه بروح الزمالة ، وقد قطعت هذه المسافة

الطويلة لأقيم علاقات عملية طيبة ، وقد بذلنا ما أمكننا من جهد لمساعدة روسيا ، وسنواصل ذلك حتما ، وكنا قد تركنا وحدنا عاما كاملا في مواجهة المانيا وايطاليا . أما الآن ـ وقد تحالفت الدول العظمى الثلاث ـ فقد غدا النصر مؤكدا ما لم ننقسم أو يمسنا ضعف ، وقد سيطرت على الحماسة ـ الى حد ما ـ وانا أذكر هذا الرد ، وقبل ان ينتهى المترجم من نقل ما تحدثت به الى الروسية ، قال ستالين : انه قد اعجب بلهجة خطابي ، ومضى الحديث منذ هذه اللحظة في جو اقل توترا ..

وراح يتكلم باطناب عن مدفعى هاون روسيين للخنادق يطلقان الصواريخ ، وأكد انهما يتركان آثارا تدميرية واضحة واقترح أن يطلع خبراؤنا عليهما اذا رغبوا في الانتظار وقال : انه سيمدنا بكل المعلومات المتعلقة بهما ، وانه ينتظر أن يكافأ نظير ذلك ، وقال : لم لا نبرم اتفاقا لتبادل المعلومات المتعلقة بالاختراعات ؟ فقلت . اننا على استعداد لان نعطيهم كل شيء دون مساومة باستثناء تلك الاختراعات ـ التى اذا حملتها الطائرات فوق خطوط العدو ثم أسقطت وحصل عليها العدو ـ كان ضرب المانيا أشد صعوبة ، فوافق على هذا ، كما وافق على ان يجتمع خبراؤهم العسكريون مع خبرائنا ، واتفق على أن يتم الاجتماع في الثالثة بعد الظهر ، وقلت انهم سيفتقرون الى ربع ساعات على الاقل لبحث كل ما يتعلق بعمليات « الطراد والمطرقة ، والمشعل » من تفاصيل فنية ، وقد لاحظ أحيانا أن عملية « المشعل » صحيحة عسكريا ، وأن الناحية السياسية منها تقتضى لمعالجتها بعض الكياسة ، وقد كان بين الحين والآخر يعود الى عملية « المطرقة » متبرما من الغائها ، وحينما قال : اننا لم نف بوعدنا ، أجبته : « اننى آبى هذا القول .. لقد وفينا بكل تعهد التزمنا به ، وأومأت الى المذكرة التى سلمتها الى مولوتوف ، وهنا أبدى ستالين اعتذاره قائلا : انه يفصح عن آرائه بصدق وأمانة وانه يعتقد انه ليس ثمة ثقة بيننا ،وأن كان يوجد بيننا شيء من التباين في الرأى .

وأخيرا سألته عن القوقاز ، وهل قرر الدفاع عن تلك السلسلة الجبلية وكم عدد الفرق التى سيستخدمها ؟ وهنا أرسل يطلب أنموذجا للجبال ، وقد أبان صراحة ـ وفى علم وادراك ـ حصانة هذا الحاجز الطبيعي قائلا : ان خمسا وعشرين فرقة كافية للدفاع عنه ، وهى متوافرة هناك ، وأومأ الى الممرات الجبلية المتعددة وقال : انه سيدافع عنها ، وحين سألته : هل هذه الممرات محصنة ؟ أجاب : « طبعا ـ بكل تأكيد » وقال ان العدو لم يصل بعد الى الخط الروسى الامامى للدفاع عنها وهو يقع الى الشمال من السلسلة الجبلية وقال أن على هذه الخطوط أن تقاوم شهرين ، ثم بعد ذلك ، تسقط الثلوج ويصبح عبور الجبال مستحيلا ، واعرب عن ثقته المطلقة بقدرتها على المقاومة ، ثم تكلم عن قوة اسطول البحر الاسود الذى احتشد في « باطوم » .

وكان الحديث سهلا في كل هذه الموضوعات وحينما ، سأل « هاريمان » عن مشروعات نقل الطائرات الامريكية عبر « سيبريا » وهى مشروعات لم يقبلها الروس الا اخيرا بعد الحاح الامريكيين

وضغطهم ـ صرح ستالين : « بأن كسب الحروب لا يـكون بالمشروعات » وقد آزرنى « هاريمان » فى كل ما قلت طيلة الاجتماع ، ولم يتزحزح أحدنا قيد أنمله عن موقفنا المشترك ، كما لم ينطق بأية عبارة جارحة وقد أدى ستالين التحية ثم مد يده الى وهو يغادر القاعة ، فسلمت عليه بحرارة . وفى الرابع عشر من أغسطس أرسلت الى وزارة الحرب البرقـية التالية :

« لقد سألنا أنفسنا مستوضحين هذا التحول عن الاساس الطيب الذى وصـلنا اليه فى الليـلة السابقة ، واعتقد أن من الممكن أن مجلس وزرائه لم يتقبل الانباء التى حملتها بالروح الطيبة التى تقبلها هو بها ، وقد يكون لهؤلاء المفوضين سلطة أكبر مما نفترض ، وخبرة أقل ، ومن الممكن ايضا أن يكون قد أراد تسجيل أقواله لاهـــداف مســتقبلة ولخدمة هذه الاهداف ، أو يكون قد أطلق هذه الاندفاعات لمصـــلحته الشخصية ، ويقول « كاروجان » : انه بعد أن قابل مستر ايدن فى عيد الميلاد وقف موقفا متصلبا مماثلا .

أما « هاريمان » فيقول : ان هذا الاسلوب قد اتخذ ايضـــا فى بداية بعثة « بيفربروك » .

واننى لواثق أن ستالين فى قرارة نفسه ، مقتنع باننا على حق ، وان ست فرق فى « عملية المطرقة » لن تنفعه فى هذا العـــام ، وانى لواثق من أن سداد تفكيره وسرعة بته فى القضايا العسكرية يجعلانه يعضد تعضيدا قويا « عملية المشعل » ولا اعتقد انه لا يمكنه أن يحاول اصلاح موقفه ، وعلى هذا الامل فانى صامد ، على اية حال .. اننى واثق من أن الطريقة التى استخدمها هى احسن الطرق ، ولم يداخلنى الشك مطلقا فى أىيوم من الأيام من انهم ربما لايمضون فىالقتال ، واننى لواثق كذلك من أن ستالين مؤمن ايمانا تاما بأنه سينتصر .. »

وفى تلك الليلة اقيمت مأدبة رسمية بالكرملين حضرها معنا ما يقرب من أربعين شخصا بينهم عدد من القادة العسكريين وأعضاء مكتب الحزب السياسى ، وبعض كبار الموظفين ، وقام ستالين ومولوتوف بدور المضيف بطريقة ودية للغاية ، ومثل هـــذه المآدب تطول عادة ، ويشرب فيها انخاب كثيرةمنذ البداية مع خطب قصيرة، وقد سمعت قصصاسخيفة عن تحول مآدب العشاء السوفيتية الى حفـلات شراب ، ولا مرية فى أن هذه القصص غير صحيحة ، فالماريشال وزملاؤه ، كانوا يشربون أنخابهم من أقداح صغيرة ولا يتناولون سوى رشفة صغيرة أما انا فقد نشـأت نشأة طيبة ! .

وقد تحدث الى ستالين عن طريق مترجمه «بافلوف» بأسلوب يفيض بالحيوية ، وقال لى : قبل عدة سنوات زارنا المستر «جورج برناردشـــو والليدى استور » ، وقد رأت « استور » أن ندعو المستر لويد جـــورج لزيارة موسكو ، فكان ردى عليها : ولماذا ندعوه ؟ لقد تزعم حركة للتدخل ضد الاتحاد السوفيتى ، فقالت « الليدى » : ...

ـ كلا .. هذا ليس بصحيح ، لقد كان تشرشل هو الذى ضلله ،

فقلت : على أية حال ،كان « لويد جورج »رئيس الحكومة ، ينتمى الىاليسار فهو مسئول ونحن نؤثر عدوا صريحا على صديق مدع ، فقالت « الليدى استور» ... علىأية حال لقد انتهى تشرشل فقلتلها :اننى لست واثقامن هذا فاذا حدثت أزمة كبيرة، فسيلتفت الشعب البريطانى الى حصانالحرب العجوز .. وهنا قاطعته قائلا : ان ماقلته يتضمن كثيرا من الحقيقة ، فلقد كنت كثير النشاط فى موضوع التدخل، ولا أريدك تعتقد العكس، فابتسم ابتسامة ودية ، وهنا قلت : وهل غفرت لى ؟ فأجاب المترجم: يقولالرئيس ستالين : ان كل هذه الامور من شئون الماضى وهو أمر يتعلق بالله .

وفى حديث لاحق بينى وبين ستالين قلت له :

لقد أبلغنى اللورد بيفر بروك أننى وجهت اليه سؤالا خلال بعثته لموسكو فى اكتوبر من عام ١٩٤١ ، قلت فيه : ماذا كان يقصد تشرشل فى البرلمان حين قال : انه وجه الى تحذيرات عن الغزو الالمانى المنتظر ؟ وقد كنت بالطبعأشير الى البرقية التىأرسلتها اليك فى ابريل عام ١٩٤١ وهنا أخرجت البرقيـــة التى كان السير ستافورد كريبس قد تأخر فى تسليمها ، وحينما قرأت البرقية وترجمت له ، هز ستالين كتفيه وقال : انى أذكرها ولم أكن بحاجة الى من يحذرنى ، فقلت : لقد كنت أعلم أن الحرب واقعة لامحالة الا أنه قد تراءى لى أن فى امكانى أن أكسب ســـتة شهور أخرى أو نحوها لأتأهب .. وقد كففت ــ حرصا منى على القضية المشتركة ــ عن سؤاله عما كان سيحدث لو أصابنا نحن الانهيار فى حين كان هو يقدم الى هتلر مثل هذه المواد الثمينة والوقت والعون .

وأرسلت الى المستر أتلى والرئيس روزفلت هذا الوصف الرسمى التالى للمأدبة حينما تمكنت من ذلك :

انتهت المأدبة فى جو ودى حافل بالمجاملات الروسية المألوفة وقد القى ويفل خطابا رائعا باللغة الروســية حيث اقترحت أن نشرب نخب الموت واللعنة للنازيين ، وعلى الرغم من جلوسى الى يمين ستالين ، لم تسنح لى الفرصة للتكلم معه فى موضوعات جدية وقد التقطت صــــورة لى مع ستالين وصورة ثانية لى مع هاريمان .

وقد القى ستالين خطابا طويلا اقترح فيه أن نشرب نخب المخابرات وقد أشار خلال خطابه اشارة غريبة الى معركة الدردنيل فى عام ١٩١٥ اذ قال : ان البريطانيين قد كسبوا المعركة فى الوقت الذى كاد الالمـــان والاتراك فيه أن يتقهقروا، ولكن الحلفاءلم يعلموا بانتصارهم لان مخابراتهم لم تكن على دراية تامة ، وكان الهدف من هذه الصورة التى رسمها ــ على الرغم من عدم دقتها ــ أن تكون بمنزلة اطراء لى .

٢ ــ نهضت من المادبة فى الساعة الواحدة والنصف صباحا لاننى خفت أن أدعى الى فيلم سينمائى طويل وأنا مجهد وحينما ودعت ستالين قال لى : ان الخلافات القائمة بيننا لاتتجاوز أن تكون خلافات فى الوسيلة وقلت أننا سنحاول أن نقضى على هذه الخلافات فعلا لا قولا وبعدمصافحة ودية تركت المكان وعبرت الغرفة المزدحمة بالناس ، ولكنه أسرع يودعنى

مسافة طويلة عبر الأروقة حتى الباب الخارجي حيث تصافحنا مرة أخرى

٣ ـ من المحتمل أن أكون قد رسمت في رسالتي اليكم عن اجتماع ليلة الخميس صورة متشائمة للغاية ولكنني أحس بأن علينا الآن أن نتساهل الى أبعد حد تجاه ماأحسوا به من خيبة أمل مؤلمة وواقعية عندما علموا أننا لايمكننا في الوقت الحاضرأن نفعل شيئا لمساعدتهم في كفاحهم الكبير ولكنهم تجرعوا في النهاية هذا الدواء المر ٠٠ وعلينا الآن أن نفعل كل شيء للمبادرة بعملية «المشعل» والحاق الهزيمة برومل ٠

وقد ساءتني اشياء كثيرة ذكرت خلال اجتماعاتنا ، ولكنني تساهلت تجاه مايعانيه أولئك الزعماء الروس من جهد وهم يرون جبهتهم الواسعة تتقد وتنزف منها الدماء على امتداد ألفي ميل في حين يقف الالمان على بعد خمسين ميلا فقط من موسكو ، ويزحفون تجاه القوقاز ، ولكن المحادثات العسكرية الفنية لم تسر سيرا مرضيا ، فقد وجه «جنرالاتنا» أنواعا مختلفة من الاسئلة ، ولم يكن زملاؤهم الروس مفوضين في الرد عليها ، وكان كل مايريده الروس هو : فتح جبهة ثانية فورا ٠٠ وأخيرا وقف «بروك» موقفا متصلبا وانتهى المؤتمر العسكرى فجأة ٠

وقد تقرر أن نرحل فجر السادس عشر من أغسطس وفي الساعة السابعة من الليلة السابقة للسفر توجهت لوداع ستالين ، وجرى بيننا حديث هام مجد وقد سألته بصورة خاصة : هل في وسعه أن يحافظ على ممرات القوقاز الجبلية وأن يمنع الالمان من الوصول الى بحر قزوين والاستيلاء على حقول النفط في باماكو ، وكل مايهدف اليه هذا الاحتلال وأن يمنعهم من الزحف جنوبا عبر تركيا أو ايران ؟ فبسط خريطة أمامي وقال ـفي ثقة تامةـ سوف نوقف تقدمهم ٠٠ انهم لن يجتازوا الجبال ، ثم قال : هناك شائعات بأن الاتراك سيهاجموننا في تركستان ، واذاقاموا بهذا الهجوم فسأستطيع أن أعالج أمرهم أيضا ، وبادرته بقولي : انهلاخطر هناك من مثل هذا الهجوم ، أن الاتراك يريدون أن يظلوا بمنأى عنالحرب وهم بالطبع لن يتورطوا في خصام مع انجلترا ٠

ولم يكد ينتهي حديثنا ـ الذى استغرق ساعة ـ حتى نهضتلأودعه وفجأة بدا الارتباك على ستالين وقال لى بلهجة أكثر ودا مما سبق : انك سترحل عند الفجر ، فلم لا تمضى الآن الى بيتى ونتناول الشراب معا ؟ فقلت : انني من حيث المبدأ أوافق على هذا ، وسرعان ماتقدم أمامي عبر ممرات وغرف كثيرة حتى خرجنا الى طريق وادع داخل الكرملين ، وبعد مائتى ياردة وصلنا الى المسكن الذى يقيم فيه ، ثم أطلعنى على الغرف الأربع التي يعيش فيها ، وكانت متوسطة الحجم بسيطة ، فضلا عن أنها في وضع طيب ، وهى تؤلف من غرفة نوم وغرفة مكتب وغرفة طعام وغرفة حمام ، وسرعان مابدت خادم متقدمة في السن ، وفتاة جميلة حمراء الشعر قبلت والدها باحترام ، ونظر الى ـ وقدأومأ باحدى عينيهـ وكأنه يريد أن يقول : أترى أن لنا نحن البلاشفة أيضا حياتنا العائلية وبدأت ابنة ستالين تجهز المائدة ثم أقبلت الخادم تحمل عددا من الاطباق وكان ستالين في خلال ذلك يفتح عددا من الزجاجات التي صفت فيشكل مغر ثم قال : لم لانستدعى مولوتوف ؟ انه قلق على البيان الرسمي الذى

سيصدر عنا ، فلم لانقر البيان — ولمولوتوف ميزة هى قدرته على الشراب — وحينئذ فهمت أننا سنتناول طعام العشاء فى بيته ، وكنت قد تأهبت لتناول العشاء فى المكان الذى أنزل فيه مع الجنرال «اندرز» القائد البولندى الذى ينتظرنى، ولكننى طلبت من مترجمى الجديد الممتاز : «الرائد بيرس» ان ينبىء الجنرال بأننى لن أعود قبل منتصف الليل ، ووصل مولوتوف وجلسنا مع المترجمين ، حيث كنا خمسة وكان الرائد بيرس قد قضى فى موسكو عشرين عاماً ، وأصبحت له علاقات طيبة بالماريشال حيث تحدث اليه حديثا خاصا لم أتمكن من الاشتراك فيه ٠

وجلسنا على المائدة من الساعة الثامنة والنصف حتى الثـــــانية والنصف صباحا وكان العشاء لم يجهز بعد ، بيد أن الطعام بدأ يصـــل بالتدريج ، وقد كنا نتناول طعامنا على طريقة اختيار الطعام من كل الانواع — على الطريقة الروسية — ونشرب من ألوان الخمور الممتازة ، وقد بدا مولوتوف فى وضع طيب يفيض عذوبة ورقة ، وكان ستالين يمزح معـه بكلمات قاسية وعبارات جافة عن قافلة قطبية أبيدت عن آخرها فى شهر يونيو ٠

وقال المترجم «بافلوف» فى تردد : يقول المستر ستالين : أليس عند الاسطول البريطانى أى احساس بالمجد والفخار ؟ أم انه لايفهمها ؟ فأجبته يجب أن تفهم أن مافعلناه كان صحيحا ، فأنا أعرف الكثير عن الاسطول والحرب البحرية ٠

وهنا قال ستالين : انك تقصد أننى أعرف شيئا عن البحر فقلت: أن روسيا حيوان برى ، أما بريطانيا فحيوان بحرى وسكت ســـتالين ثم عــاود مرحـــه ، ونقلت الحـــديث الى مولوتوف وقلت : هـــل يعرف الماريشال ان وزير خارجيته قد قرر — أثناء زيارته الاخيرة لواشنطن — القيام بزيارة نيويورك وحده دون حاشية أو رفاق ، وأن سبب تأخره لم يكن خللا فى الطائرة ، بل لانه كان يتنسم عبير الهواء كما يحلو له أن يفعل فى نيويورك ٠

وعلى الرغم من أن مجال الحديث كان يمكن أن يتسع لاى أمر على سبيل المزاح أثناء العشاء فى روسيا ، فقد بدا مولوتوف فزعا بسبب ملاحظتى فى حين أشرق وجه ستالين مرحا وقال :

انه لم يتوجه الى نيويورك بل الى شيكاغو حيث يعيش قطاع الطرق من أمثاله ٠

ودار الحديث رخاء بعد أن استعدنا العلاقات الطيبـــة وتكلمت عن موضوع نزول القوات البريطانية فى النرويج بمساعدة الروس وأوضحت كيف يمكننا أن نفتح طريق القوافل على مصراعيه بالاســـتيلاء على رأس الشمال فى الشتاء والقضاء على الالمان هناك ، وقد كانت هذه أحب فكرة الى ، وبدا لى أنها قد استهوت ستالين أيضا ، وبعد أن تحدثنا عن الوسائل والسبل ، اتفقنا على وجوب القيام بهذه العملية اذا استطعنا ذلك ٠

وحتى منتصف الليل الاخير ، لم يكن «كادوجان» قد جاءنا بمسودة

البيان الرسمي وسألته : هل تحملت هذه الجهود الشخصية في الحرب مثلما تحملت تنفيذ سياسة المزارع الجماعية ؟

وقد أثار هذا السؤال كوامن الحيوية المتدفقة لدى الماريشال فورا .

فقال : بالطبع لا ، لقد كانت سياسة المزارع الجماعية كفاحا رهيبا

قلت : هذا ماعتقدته .. لقد ظننت أنك لم تر الامر ميسورا لان المشكلة لم تكن مشكلة بضعة آلاف من الارستقراطيين أو كبار الملاك ، بل مشكلة ملايين الرجال الصغار .

وقال ـ وهو يمد يديه ـ : عشرة ملايين ، لقد كان شيئا رهيبا فلقد استغرق العمل أربع سنوات ، ولكن هذه العملية كانت مهمة جدابالنسبة لروسيا ، اذا كنا نريد أن نتفادى المجاعات من وقت لآخر ، لقد كنا في حاجة ملحة الى استعمال المحاريث الآلية في فلاحة الارض ، ولكننا اذا أعطينا الزارعين المحاريث الآلية ، فانها لاتلبث أن تلحق بها التلف في خلال بضعة أشهر : فالمزارع الجماعية التابعة للاصلاح ، هي التي يمكنها وحدها ممارسة العمل بالمحاريث الآلية ، وقد كابدنا كثيرا من المتاعب في سبيل ايضاح ذلك للفلاحين ، حيث كان النقاش معهم مستحيلا ذلك انك بعد أن توضح للفلاح كل ماتريد ايضاحه يقول لك : ان عليه انيمضي الى بيته لاستشارة زوجته مع راعي الماشية أيضا وقد كان هذا الاصـــلاح حديثا بالنسبة الي .

وبعد أن يتحدث اليهما يجيبهما بأنه لايريد المزارع الجماعية وانه يفضل العمل بدون هذه المحاريث الآلية .

ـ فهل هذه هي ماتطلقون عليها لكولاكس ؟

فقال بعد تردد قصير : (نعم لقد كان العمل فيها مرهقا ، وان كان ضروريا على أية حال ..)

وسألته : ماذا حدث ؟

فأجاب : حسنا ، لقد وافق الكثيرون منهم على الأنضمام الينا ولقد منحنـــا بعضـــهم أراضي ليزرعوها في مقاطعـــة « تومسك » أو « اركوتســـك » أو في أقصى الشـــمال ، ولكن أكثرهم لم يحظوا بأية شعبية ، وقد محقهم عمالهم تماما .

وتوقفنا عن الحديث مدة طويلة ثم مضي يقول : « ونحن لمنعمل على مضاعفة الانتاج الزراعي بنسبة كبيرة فقط ، بل بذلنـــا جهـــدنا في سبيل مضاعفة محصول القمح وانتاجه بصورة أحسن ، وها نحن أولاء ننتج القمح الروسي الموحد من اقصى البلاد الى أقصاها ، في حين كان الزارعون في الماضي ينتجون أنواعا مختلفة تتفاوت في جودتها ، واذا خالف المزارعون هذه القاعدة ، اخذناهم بالشـــدة ، وهذا يعني زيادة اخرى كبيرة في المحصول .

وينبغي هنا ان اشير الى انني اكتب هـــذه الذكريات كما تتوارد الى خاطري ، وكل ما أتصوره من انطباع الآن هو أن هناك ملايين من الرجال والنساء قد أخرجوا من أراضيهم الى الأبد أو ابيدوا. وسوف

يأتى حتما جيل جديد لايعلم شيئا عن شقاوتهم ، لكنه يعلم أن طعامه قد ازداد ، فيبارك اسم ستالين ويترنم بحمده ويطريه اطراء عطرا .
ولم أعد على مسامعه قول « بيرك » المأثور « اذا لم أستطع أن أقوم بالاصلاح — دون ظلم أو اجحاف — عدلت عن الاصلاح — « ففى الوقت الذى تشتعل فيه الحرب العالمية حولنا جميعا ، يكون من العبث حقا أن يتكلم الانسان عن الأخلاق ويجهر بحديثه » .

وقدم كادوجان فى الساعة الواحدة صباحا تقريبا يحمل مسودة البيان الرسمى ، وبدأنا على الفور وضعه فى صيغته الرسمية النهائية ٠ ومما قدم الى على المائدة خنزير صغير طهى بطريقة رائعة ، ولم يكن ستالين قد أكل شيئا حتى تلك اللحظة ، ولما حانت الساعة الواحدة والنصف صباحا — وهو الموعد المقرر لتناوله طعام العشاء — دعا «كادوجان» ليأكل معه ولكن الصديق أعتذر ، فقام مضيفنا بالضحية وحده ، وبعد أن فرغ من ذلك توجه الى الغرفة المجاورة فجأة ، حيث تلقى التقارير عن كل جبهات القتال ، وكانت ترد اليه دائما بعدالثانية صباحا ، وقد مر أكثر من ثلث ساعة قبل أن يعود ، وخلال ذلك اتفقنا على البيان الرسمى وأخيرا قلت : اننى يجب أن أمضى ، وكانت الساعة الثانية والنصف صباحا وكان الطريق الى البيت يستغرق نصف ساعة ونصف ساعة أخرى فى العودة وقد انتابنى — على غير عادة — صداع شديد . وكان على أن اجتمع بالجنرال «أندرز» ، وقد رجوت مولوتوف الا يحضر لوداعى عند الفجر حيث كان مجهدا كما يبدو ، ولكنه رمقنى بنظرة تنطوى على المعاتبة ، وكأنه يريد أن يقول : وهل تعتقد حقا اننى سأتخلف عن الحضور !

وفى الساعة الخامسة والنصف صباحا ارتفعت بنا الطائرة فى الجو وقد نعمت فيها بنوم مريح لم أستيقظ منه الا حين وصلنا الى بحر قزوين ، وبدأنا نصعد « جبال البروز » ، ولم أتوجه الى دار المفوضية فى طهران ، بل فضلت أن أمضى الى الظلال الباردة الهادئة فى مقرها الصيفى فوق المدينة ، وقد لقيت مجموعة من البرقيات تنتظرنى ، وكنت قد فكرت فى عقد مؤتمر فى اليوم التالى ببغداد مع كل رجالنا المسئولين فى ايران والعراق ، ولكننى تيقنت اننى لا يمكنى أن اطيق حر بغداد فى شهر أغسطس ، وقررت تحويل اتجاهى الى القاهرة ، وتناولت طعام العشاء مع رجال السفارة تلك الليلة فى غابة الدار الرائعة ، وقد القيت كل متاعبى خلفى واستغرقت فى نوم مريح حتى الصباح !.

الجهد والحيرة

فى التاسع عشر من اغسطس قمت انا واليكسندر بزيارة لجبهة الصحراء وانطلقنا من القاهرة ومررنا بالأهرامات، وقطعنا مائة وثلاثين ميلا تقريبا عبر الصحراء الى البحر فى « أبو صوير » وقد قال لى اليكسندر : ان الجميع كانوا يهتفون لى ، ومع اقتراب المساء كنا ندنو من مقر قيادة مونتجومرى فى « برج العرب » وفى هذا المكان نفسه رسمت أشعة الضوء صورة رائعة للقافلة المشهورة على الكثبان الرملية، وقدم لى الجنرال سيارته التى قسمها الى مكتب وغرفة نوم ، وبعد هذه الرحلة الطويلة ، ذهبنا كلنا نغتسل ، وقد قال مونتجومرى « ـ ونحن نجفف أجسادنا من الماء ـ ان كل الجيوش تستحم الآن فى هذا الوقت على امتداد الساحل » ، وأشار بيده الى الغرب ، وعلى مدى الف ياردة منها ، كان مايقرب من ألف رجل من رجالنا يتربصون على الشاطىء وعلى الرغم من أننى كنت اعرف الرد ، فقد سألت : لماذا لم تتحمل وزارة الحربية نفقة تزويد الجنود بسراويل بيضاء للاستحمام ؟ .. انه يجب عليها أن توفر ذلك ، حقا ان كل الجنود كانوا سمر الاجساد داعبت الشمس ما ظهر من أبدانهم ولم تحجبه سراويلهم القصيرة .

وكثيرا ما تغيرت الأوضاع : فحينما قدمنا الى « أم درمان » قبل اربعة واربعين عاما كانت الفكرة الشائعة : ان على الانسان ان يقى جلده حرارة شمس افريقية مهما يكن الثمن ، وكانت الأوامر فى هذا الشأن حاسمة للغاية ، وقد كنا نلصق حشايا خاصة فى ظهر سترتنا الكاكية اللون ، وكان من المخالفات التى تسجل جنحة فى المحاكمات العسكرية ان يخرج الجندى أو الضابط دون قبعة القش أو الفلين فى أوقات الفراغ ، وكانوا ينصحوننا بأن نلبس ملابس داخلية سميكة تمشيا مع ما اعتاده العرب واستنبطوه من تجاربهم خلال آلاف السنين، ولكن ها هم أولاء الجنود البيض الآن فى منتصف القرن العشرين يتوجهون الى أعمالهم اليومية دون قبعات ، عراة تقريبا الا من قطعة صغيرة من القماش تستر جزءا من أبدانهم ، ويبدو أن هذا المنظر لا يسهم فى شىء ، وعلى الرغم من أن عملية التحول من اللون الابيض الى البرونزى قد استغرقت عدة أسابيع وتمريننا تدريجيا فان حوادث ضربات الشمس والحرارة قليلة جدا وانى لأعجب تماما بم يفسر الأطباء هذه الظواهر ؟..

وبعد ان ارتدينا ملابسنا استعدادا لتناول العشاء ، اجتمعنا فى «عربة» خرائط مونتجومرى وقدم لنا الجنرال وصفا دقيقا للوضع موضحا انه فى خلال أيام انتصر على المشكلة ووقف على دقائقها ، وقد

توقع موعد هجوم روميل المقبل بدقة ، وأبان خططه التى وضعها لمقابلة هذا الهجوم ، وقد أثبتت الأيام صحة توقعه ، وسلامة استنتاجه ، ثم شرح لنا خططه لتولى زمام المبادرة والهجوم بنفسه ، ولكنه يفتقر الى ستة أسابيع على أية حال ليصبح الجيش الثامن على اتم استعداد، وقد قرر اعادة تاليف الفرق على أسس وحدات تكتيكية متكاملة، وعلينا أن ننتظر حتى تكون الفرق الجديدة ، وقد اتخذت مواقعها فى الصحراء وحتى تكون « دبابات شيرمان » قد وصلت الى الميـــدان ، وحينئذ ستكون هناك ثلاثة فيالق يتولى قيادة كل منها ضابط محنك يشق فيه هو واليكساندر ، وسيستخدم المدفعية بشكل لم تستخدم به من قبل فى الصحراء وتحدث عن نهاية سبتمبر كموعد للهجوم ، وقد بعث بهذا الموعد احساسا بخيبة الامل الا ان كل شيء كان متوقعا على روميل ، فقد دلت المعلومات التى تلقيناها ، على ان هجومه قد أصبح مرتقبا فى كل لحظة ، وكانت المعلومات قد وصلت الى بالفعل مشيرة الى انه سيحاول القيام بحركة تطويق واسعة حـول جناحنا الصحراوى للوصول الى القاهرة ، وأنه يجب أن تقوم معركة مناورة لمهاجمة مواصلاته .

وفى هذا الوقت فكرت طويلا ، فى هزيمة نابليون فى عام ١٨١٤ ، وتوقفه لضرب مواصلات الحلفاء ، الذين كانوا قد زحفوا رأســا الى باريس المكشــوفة تقريبــا ، وقد تراءى لى أن من الضرورات الملحة الدفاع عن القــاهرة ، وان يشترك فى هــذا الدفاع كل جندى قادر من الجنود الذين لا يحتــاج اليهم الجيش الثــامن ، وبهذه الطريقــة وحدها يمكن لجيش الميدان أن يحصل على حرية المناورة الكاملة بحيث يصبح فى امكانه أن يجازف بالسماح لجناحه أن يتعرض للتطويق قبل أن يبدأ الهجوم ، وقد سرنى كثيرا اتفاقنا جميعا على هذا الراى ، وعلى الرغم من أننى كنت تواقا الى ان نبدأ هجومنا فى أقرب فرصة ممكنة، فاننى قد رحبت باحتمال قيام روميل بالهجوم علينا قبل أن نبدأ نحن هجومنا ، ولكن، هل لدينا الوقت الكافى لتنظيم الدفاع عن القاهرة ؟ : فالدلائل كلها تشير الى أن القائد الجرىء الذى يواجهنا على بعد اثنى عشر ميلا فقط ـ سيسدد ضربته الهائلة قبل نهاية شهر اغسطس ، وقال مونتجومرى : انه قد يحــاول فى يوم غير معين المغامرة لتحقيق تفوقه المستمر فى الجبهة ، واذا تأخر فى هجــومه أســبوعين أو ثلاثة فسيكون ذلك حتما فى صالحنا !

وفى العشرين من أغسطس خرجنا لنشاهد الميدان المرتقب والقوات الباسلة التى يتوقع صــمودها ، وقد توجهت معه الى النقطة الرابعة الهامة التى تقع الى الجنوب الشرقى من جرف الرويسات ، وشاهدت فى تلك الأرض الصحراوية الوعرة ـ التى تتميز بالتواءاتها ـ القســم الأكبر من ســـلاح المدرعات ، وهو ما بين مستتر ومنتشر بأســاليب التمويه العســكرية ، على الرغم من أنه قد جمع من ناحية تكتيكية ، واجتمعت هنا بالقائد الشاب روبرتس الذى كان يتولى حينئذ قيــادة كل قواتنا المدرعة فى هذا الموقع وكانت كل دباباتنا الممتازة تحت قيادته، وقد أبان لى مونتجومرى توزيع مدفعيتنا المتعددة الأنواع والأشكال ، وقد كان كل شق فى الصحراء يخفى خلفه بطاريات رهيبة مغطاة بوسائل

التعمية ، وقبل أن ندفع دباباتنا الى الميدان سينطلق ثلاثمائة أو اربعمائة مدفع على الدبابات الألمانية المهاجمة .

وعلى الرغم من منع تجمعات الجنود بسبب مناورات العدو الاستكشافية المتواصلة ، فقد رايت فى ذلك اليوم عددا كبيرا من الجنود ، وقد بادرونى بالتحية والهتافات والاشارات ، وقد قمت بتفتيش كتيبتى الرابعة « الهوسار » أو اكبر عدد أمكن حشده من رجالها على كثب من مقبرة الميدان ، حيث دفن الكثيرون من رفاقهم قبل أيام ، وكانت كل هذه المناظر مؤثرة للغاية ، وقد نما معها شعور بقوة الجيش المتدفقة ، وكان كل انسان لا يشك فى أن تغيرا كبيرا قد حدث منذ تولى مونتجومرى القيادة ، وكان فى امكانى ان المس هذا الشعور بالارتياح والسرور الذى يغمر الجميع .

وقد كان من المقرر أن نتناول الغداء مع بيرنارد فريبرج ، وقد استعادت ذاكرتى زيارة مماثلة كنت قد قمت بها له فى الفلاندرز فى مركز الميدان فى وادى سكارب قبل ربع قرن تقريبا حين كان لا يزال يتولى قيادة لواء واحد ، وقد عرض على حينئذ فى سرور أن أمر معه على مواقعه الأمامية ، ولكن لما كان لى سابق معرفة به وبخطط الجبهة، اعتذرت عن المضى معه ، أما الآن فقد تغير الوضع تماما ، اذ كنت أشتعل شوقا لرؤية احد مراكز المراقبة الأمامية الرائعة ، التى يقوم عليها هؤلاء الجنود النيوزيلنديون ، والتى تبعد خمسة أميال تقريبا الى الأمام ، وكان موقف اليكسندر يتضمن عدم معارضة الحملة ، والرغبة فى الاشتراك فيها. ولكن بيرنارد فريبرج أبى باصرار ان يتحمل المسئولية. ومثل هذه القضايا لا تصدر الأوامر فيها الا من السلطات العليا .

وفى ظهر احد أيام شهر اغسطس ، توجهنا فى الصحراء الى خيمته الخانقة التى تستخدم كمطعم ، هناك تناولنا غداء احسن كثيرا مما تناولته معه فى سكارب ، وقد كان أول صنف فى الوجبة حساء غاليا من المحار النيوزيلندى المحفوظ ، لم استسغ طعمه — وان تظاهرت بابتلاعه — وسرعان ما انضم الينا مونتجمرى الذى كان قد تركنا قبل مدة ، وخرج فريبرج لتحيته ولابلاغه أن مقعده على المائدة محفوظ ، وأننا ننتظره على مائدة الغداء ، ولكن « مونتى » — وهو الاسم الذى أطلق عليه — كان قد وضع لنفسه قاعدة : هى ألا يقبل دعوة أى أحد من مرءوسيه ، وقد استمر نابليون يتبع هذه القاعدة حرصا على النظام العسكرى ، وكان من شعاراته المعروفة أن الانسان ينبغى أن يكون قاسيا حتى مع الكبار ، ولكنه فى الوقت نفسه سيتناول حتما دجاجة مشوية ، وقد تقدم اليه فى عربته ، أما « مارلبرو » ، فقد كان يدخل قطعا ويشرب اطيب النبيذ مع ضباطه ويتناول الغداء معهم ، وهذا ما صنعه « كرومويل » حتما ، فقد تتباين الأساليب ، ولكن النتائج تكون طيبة فى كل الاحتمالات تقريبا .

وقد قضينا مع الجيش ظهيرة ذلك اليوم كله ، وحينما رجعنا الى القافلة حيث امواج الشاطىء الجميل كانت الساعة قد تجاوزت السابعة ، وقد ارتفعت روحى المعنوية الى حد تناسيت فيه كل متاعب

اليوم ، وظللت اتحدث حتى ساعة متاخرة من الليــل وقبل ان يأوى « مونتجومرى » الى فراشه فى الســاعة العاشرة حسب عادته ، طلب الى أن اكتب له شيئا فى دفتر يومياته الشخصى ، وقد كتبت له فى هذه المرة وفى مرات لاحقة طيلة الحرب ، وهذا ما كتبته فى هذه المرة :

« آمل ان تكون الذكرى الســنوية « لبلنهايم » التى تشير الى بداية القيادة الجديدة ــ بداية خير لقائد الجيش الثامن ورجاله ، وأن تؤدى بهم الى الشهرة وذيوع الصيت والحظ التى يستحقونها » .

وفى الثــانى والعشرين من اغسـطس زرت كهوف « طرة » قرب القاهرة ، حيث كانت تجرى عمليات اصلاحية واسعة النطاق ، ومن هــذه الكهوف ، قطعت الاحجار التى بنيت منها الأهرامات قبل آلاف السنين ، وقد بدت الآن رائعة الشكل كما بدا لى ان العمل يسير سيرا نشيطا دقيقا فى المنطقة ، وان جماهير غفيرة من العمال الفنيين تعمــل ليل نهــار فى عمليــات الا صلاح الضرورية ، ولــكن كانت لدى أرقامى وحقائقى ، وكنت باستمرار غير راض عن سير العمل . نضيق المجال الذى يسير فيه ، ولعل العيب الوحيد هو آن الفراعنة لم يشيدوا أهرامات أكثر عددا واضخم حجما ، وكان على أن أتحمل مسئوليات أخرى ، فقد قضيت بقية النهار اتنقل بالطائرة من مكان الى آخر أفتش المؤسسات وأخطب فى الجنود وقد رأيت فى المطارات بين ألفين وثلاثة آلاف طيار حشــــدوا فيه لاتحدث اليهم ، وقد زرت أيضا كل الالوية واحدا أثر الآخــــر ، كما زرت فرقة الجبايين التى كانت قد نزلت الى البر فى ذلك اليوم ، وعدنا الى السفارة فى ساعة متأخرة من المساء .

وفى الأيام الأخيرة من الزيارة تركزت كل افكارى على المعـــركة المتوقعة : فقد يبدا روميل هجومه فى أية لحظة بقوة هائلة مدمرة ، من السلاح الساحق ومن المحتمل أن يصل الى الاهرامات دون أن يواجه أى دفاع حقيقى ــ عدا قناة واحدة ــ ثم يصــل الى نهر النيل الذى يجرى عند نهاية المرج « الذى تقــوم فيه دار الســفارة ثم بدرت من طفل « الليدى لامبسون » ابتسامة عذبة تفتحت لها أســارير وجهــه الصغير من عربته الواقفة تحت ظلال اشجار النخيل ، وتطلعت عبر النهر الى الآفاق المستوية القائمة وراءه ، وبدا كل شىء سهلا وادعا ، لكننى اقترحت على الام أن تمضى بطفلها الى بلد آخر غير القاهـــرة حيث أن جوها غير مناسب للاطفال ، اذ هو شديد الحــرارة شــديد الرطوبة ، وقلت لها : « لم لا تبعثين بالطفــل الى لبنــان ليستنشق هــواءه العليل ؟ » ولكنها لم تســتمع الى نصيحتى ، وليس فى امكان انسان ان يقول انها لم تحكم على ســلامة الوضع العســكرى حكمــا صائبا !

وقد اتخــذت بالاتفاق مع الجنرال اليكســـندر ورئيس اركان الامبراطورية البريطانية سلســلة من الاجــراءات المتطرفة للدفاع عن القاهرة والخطوط المائية المتجهة شــمالا وأقمنا استحكامات للبنــادق ومراكز للمدافع الرشاشة وقد قمنا ببث الالغام فى الجسور واقمنــا

الاسلاك الشائكة على مداخلها واطلقنا مياه السدود على الجبهة العريضة الواسعة وأعطينا كل الموظفين البريطانيين فى القاهرة بنادق وقد كانوا يفوقون فى تعـدادهم الألوف من ضباط الاركان والكتبة الذين يرتدون الملابس العسكرية ، وأصدرنا اليهم الأوامر بأن يتخذوا مراكزهم حين يحدث أى طارىء عند خط النهر المحصن ولم تكن الفـرقة الجبليـة الحادية والخمسون حتى الآن تعد خليقة بالصحراء ، فعهدنا الى هؤلاء الجنود الممتازين ، بالدفاع عن جبهة النيل الجديدة ، وكان الموقع قويا للغاية بسبب ندرة المعابر والجسور التى تعبر منطقة الاقنية او المنطقة التى يغمرها الفيضان فى الدلتا وبدا لنا ان من الممكن ايقاف هجوم مدرع على هـذه الطرق الجسرية ، وكان الدفاع عن القاهرة من اختصـاص الجنرال البريطانى الذى يتولى قيـادة الجيش المصرى الذى اصطفت كل فرقة أيضا للاشتراك فى الدفاع وتراءى لى أن من الافضل على أية حال ان يعهد بالمسئولية ـ اذا حدث اى طارىء ـ للجنرال « ميتلاند ويلسون جميو » الذى كان قد عين لقيادة العراق ـ وايران ، والذى كانت قيادته لا تزال ـ فى هذه الاسابيع الحرجة ـ فى مرحلة التشكيل فى القاهرة ، واصدرت اليه توجيها طالبا اليه أن يطلع على كل تفاصيل خطة الدفاع وأن يتحمل المسئولية فى اللحظة التى يبلغه فيها الجنرال اليكسندر أن القاهرة أصبحت فى خطر !

وكان على أن أرجع الى الوطن مساء يوم المعركة، لأمارس تصريف امور تتناول آفاقا أوسع ـ وأن كانت لا تقل قطعا عن المعركة المتوقعة ـ وكنت قد حصلت على موافقـة وزارة الحـرب على التوجيه الذى قررت اصداره الى الجنرال اليكسندر ، فقد غدا السلطة العليا التى اتعامل معها فى الشرق الاوسط ، وكان مونتجومرى وجيشه الثامن ، يعملان تحت قيادته ، وكذلك كان « متيلاند ويلسـون » وكان قائد الدفاع عن القاهرة ، حين تدعوه الضرورة اليـه ، وكان «اليكس» ـ كما كنت ادعوه منذ امد طويل ـ قد انتقل بقيادته الى الصحراء قرب الاهرامات وكان بوداعته ومرحه وتفهمه لكل شىء يوحى بالثقة المطلقة المتزنة لكل انسـان .

وفى الساعة السابعة والدقيقة الخامسة من مساء الثالث والعشرين من أغسطس غادرت مطار الصحراء وقد نمت نوم من استراح ضـميره ـ لنهجه طريق العدل ـ الى ما بعد بزوغ الشمس فى الصباح التالى، وحينما نهضت من سريرى الى غرفة قيادة الطائرة « الفدائى » كنـا ندنو من جبل طارق وقد بدا لنا الهبوط امرا خطرا ، فقد كان ضباب الصباح يحجب كل شىء ولم يكن فى امكان المرء أن يكشف الرؤية أمامه اكثر من مسافة مائة ياردة وقد كنا نحلق على ارتفاع يزيد على ثلاثين قدما فوق البحر ، وسألت «فاندر» : هل يسير كل شىء على مايرام ؟ وأفصحت له عن صادق أملى فى الا يصدم بصخرة جبل طارق ولم يكن جوابه مطمئنا بصورة خاصة ، ولكنه كان واثقا من الخطة التى اتبعها بشأن عدم الطيران على ارتفاع عال ، وهو ما كنت أفضله ومكثنا على هذه الحال اربع دقائق او خمسا ، وفجأة دخلنا فى جو طيب تبدو فيه امامنا قمة جبل طارق العظمى « مطلة على البرزخ ، وعلى قطعة الارض

المحايدة التى تمتد الى القلعة باسبانيا وبالجبل المسمى « ملكة العرش الاسبانى » ولقد أمكن « فاندركلوت » أن يكون دقيقا للغاية بعد طيران ثلاث ساعات أو أربع ، عبر الضباب ، وبعد عدة مئــات من الياردات مررنا على الصخور دون أن نرغم على تحويل اتجـــاهنا وهبطنا هبوطا سليما دقيقا ، ومع ذلك فما برحت أحسب انه كان من الافضـــل ان نرتفع عاليا ودرنا فوق المطار ساعة أو ساعتين ، فقد كان معنا مايكفينا من الوقود ، ولم يكن هناك ما يدعو لان نتعجل ، ولكن قائـــد الطائرة تصرف تصرفا رائعا ، وقضينا الصباح مع الحاكم ، وبعد الظهر طرنا الى الوطن بعد ان قمنا بجولة واسعة عبر خليج «بسكاى» عندما أرخى الليل سدوله على الكون .

وحينما بدأت بعثتى الى القاهرة وموسكو ، لم يكن قد تم بعد اختيار من يتولى قيادة عملية المشعل ، وكنت قد اقترحت فى الحادى والثلاثين من يوليو انه اذا أختير الجنرال ماريشال لتولى القيادة العليا لعملية عبور المانش فى عام ١٩٤٣ ، فانه يجب أن يعين ايزنهاور نائبـــا له ، وأن يسبقه الى لندن ليعد لعملية «المشعل» التى يجب ان تسند قيادتها اليه ، وأن يكون الجنرال اليكســـندر نائبا له وقد اتجه الى تنفيذ هذا الاقتراح ، وقبل أن اغادر القــاهرة الى موســكو أرســل الرئيس روزفلت الى بموافقته على اقتراحى ، ومع ذلك فقــد بقيت أمامنا أمور كثيرة تنتظر الموافقة عليها قبـــل أن نصـــل فى خططنا الى مراحلها الأخيرة . وفى اليـــوم التالى لوصـــولى الى لنـــدن قدم الى الجنرالان ايزنهاور وكلارك لتناول الغداء معى، ولبحثأوضاعالعملية. وقد كانت العلاقات بينى وبين هذين القائدين الأمريكيين فى هذا الوقت أوثق ما تكون . وكنت منذ وصولهما الى لندن فى شهر يونيو التقى بهما يوم الثلاثاء من كل اسبوع حول مائدة الغداء فى داوننـــج ستريت رقم ١٠ . وقد نجحت هـــذه الاجتماعات نجاحا باهرا وكنت وحدى معهما فى الغالب ، وكنا نبحث كل قضايانا وكأننا من بلد واحد، وكثيرا ما عقدنا سلسلة من المحادثات غير الرسمية فى حجرة المائدة ، وكانت تبدأ فى العاشرة مساء وتظل الى ساعة متأخرة من الليل . وكثيرا ماقدم الجبيران الامريكيان لقضاء ليلة او عطلة نهاية الاسبوع فى تشيكرز.وكنا نتحدث فى هذه المناسبات فى كل الشئون العامة . وانى لواثق بانهذه الاتصالات الوثقى ، ضرورية لادارة دفعة الحرب ولم يكن بوسعى أن أسيطر على زمام الموقف كله دونها .

وفى الثانى والعشرين من سبتمبر ، عقدنا اجتماعا لرؤساء أركان الحرب برياستى وقد شـــهده ايزنهاور ، واتخذنا فيه قرارا نهائيا ، وحددنا موعد البدء بعملية « المشعل » فى الثامن من شهر نوفمبر .

وفى خلال ذلك قام روميل بمحاولة جديدة ثبت فيما بعد ، انهـــا المحاولة الاخيرة للوصول الى القاهرة ، وحتى انتهاء هذه المحاولة ظلت افكارى عالقة بالصحراء وتجربة القوة الدائرة فى ربوعها ، وقد كنت اثق تمام الثقة فى قادتنـــا الجدد كما كنت متيقنا أن تفوقنا فى العـــدة والعدد ، هو الآن اكثر منه فى اى وقت مضى ، ولكن المفاجآت المزعجة

التى حدثت فى العامين الماضيين ، كانت تجعل من العسير استبعاد القلق حتى النهاية .

ولما كنت قد زرت أخيرا الارض التى سيدور فيها القتال، وكانت صورة الصحراء بصخورها المتعرجة ، وبطاريات المدفعية ودباباتنا وقواتنا المختبئة فيها تأهبا لوثبة مضادة لا تزال تخطر بفكرى ، فانى كنت أرقب المعركة الضاربة بأفكارى تمام المراقبة ولا مرية فى أن أية نكسة جديدة لن تحمل فى حد ذاتها كارثة فقط ، بل ستؤدى ايضا الى القضاء على سمعة بريطانيا نهائيا ، فضلا عما يكون لها من تأثير واضح على المحادثات التى نجريها حينئذ مع حلفائنا ، أما اذا صد روميل من الجبهة الثانية فان الثقة النامية والاحساس المتزايد — بأن الميزان تكاد كفته ترجح الى جانبنا — سيساعدان على الوصول بمختلف القضايا الاخرى الى مرحلة الاتفاق .

وقد وعد الجنرال اليكسندر أن يخبرنى ببداية المعركة بأن يبعث الى بكلمة « زيب » وهى اسم يطلق على الملابس التى كنت أرتديها وفى الثامن والعشرين من أغسطس أرسلت اليه أسأله : « ما رأيك فى احتمال قيام « زيب » حينما يكون القمر بدرا فى هذا الشهر ؟ .. أن المخابرات العسكرية لا تعتقد أن الهجوم الالمانى قد أصبح وشيكا .. أطيب تمنياتى . وأتى الى رده يقول : أن « زيب » تساوى كل يوم قيمتها من المال ، وتقوى احتمالات عدم قيامها حتى الثانى من سبتمبر عندما تصبح غير متوقعة ، وفى الثلاثين من سبتمبر تلقيت برقية فى كلمة واحدة هى : «زيب» فأبرقت الى روزفلت وستالين أقول : « لقد بدأ روميل هجومه الذى كنا نتأهب له.. وقد تجرى معركة مهمة الآن » .

وكانت خطة روميل — كما توقعها مونتجومرى بالضبط — هى أن يجتاز بسلاح المدرعات نطاق الالغام الذى يضعف دفاعه فى الطرف الجنوبى من الجبهة البريطانية ، وأن يتجه بعد ذلك شمالا ليطوق مواقعنا فى الجناح والمؤخرة ، وكانت المسألة الحساسة الحرجة بالنسبة لنجاح هذه المناورة تقوم على احتلال روابى العلم — حلفا ، ولهذا فقد وزع مونتجومرى قواته ، بحيث يضمن — أولا — عدم سقوط الروابى فى قبضة العدو .

وفى ليلة الثلاثين من أغسطس اخترقت الفرقتان المدرعتان الالمانيتان ، حقول الالغام وفى الصباح قصدتا «منخفض الرجيل» وأخذت فرقتنا المدرعة السابعة تتراجع ببطء بصفة مستمرة أمامها الى أن اتخذت مواقعها فى الجناح الشرقى وقد حاولت فرقتان ايطاليتان مدرعتان وفرقة آلية أخرى اختراق حقول الالغام شمال الفرقتين الالمانيتين ولكنهما لم تحرزا نجاحا يذكر ، فقد كانت الحقول أعمق مما تتوقعه ، وسرعان ما وجدت نفسها تحت وطأة نيران مدفعية شديدة من الفرقة النيوزيلندية، لكن الفرقة الالمانية التسعين الخفيفة ، كللت جهودها لاختراق حقول الالغام بالجناح حتى انها شكلت جناحين مدرعين اندفعا صوب الشمال ، وقد شن الالمان فى الوقت نفسه فى الطرف الثانى من الجبهة هجمات محكمة على الفرقة الهندية الخامسة والفرقة الاسترالية التاسعة ، فى حين أنه قد أوقف تقدمها بعد قتال عنيف ، وقد كان على المدرعات الالمانية —

الايطالية – بعد اجتياز « منخفض الرجيل » أن تزحف جهة الشمال صوب روابى العلم – حلفا « أو الشمال الشرقى جهة الحمام » ، وكان مونتجومرى يرجو الا تتجه الى الحمام ، فقد أثر ان يخوض المعركة فى الارض التى اختارها وهى « الروابى » وقد أمكننا أن نوصل الى روميل خريطة زائفة توضح سهولة الانطلاق الى الروابى وصعوبة الاتجاه الى الحمام ، وقد أقر الجنرال « فون توما » الذى أسر بعد شهرين بأن هذه الخريطة الخادعة قد نجحت فى تحقيق أهدافها ، وهكذا اتخذت المعركة الآن الشكل الذى أراده مونتجومرى ...

وفى الحادى والثلاثين استطاعت قواتنا أن تصد زحفا نحو الشمال وفى الليل هدأت مدرعات العدو هدوءا نسبيا بالرغم من أن المدفعية كانت تواصل ضربها بنيرانها فضلا عن قصف الطائرات لها وفى الصباح التالى تقدمت الى الخط البريطانى حيث كانت الفرقة العاشرة المدرعة فى انتظار لقائها ، وكان الرمل فى المنطقة اكثف مما كان متوقعا ، والمقاومة أعنف مما ارتقبوه ، وبعد الظهر استؤنف الهجوم ، ولكنه فشل وقد وجد روميل نفسه فى مأزق ، فقد أنهك الاعياء حلفاءه الايطاليين ، ولم يكن يأمل فى تعزيز وحداته المدرعة الامامية ، وكانت الاشتباكات العنيفة قد استنفدت ما لديه من وقود ، ولا شك فى انه سمع أيضا باغراق ثلاث ناقلات أخرى للزيت فى البحر المتوسط وهكذا تحولت مدرعاته فى الثانى من سبتمبر الى موقف الدفاع ، وأخذت تنتظر الهجوم الذى سيشن عليها .

ولم يقبل مونتجومرى الدعوة ، فى حين لم يجد له مفرا من التراجع ، وفى الثالث من سبتمبر بدأت الحركة فى الوقت الذى اندفعت فيه الفرقة البريطانية السابعة لمضايقته من الجناح ملحقة بالعدو أفدح الخسائر فى سياراته غير المدرعة وفى تلك الليلة بدأ الهجوم البريطانى المضاد على فرقته الخفيفة التسعين وفرقة تريستا الآلية ، وقد قدر مونتجومرى انه اذا أمكنه تدمير هاتين الفرقتين فانه بذلك يكون قد سد الثغرة التى فتحها العدو فى حقول الالغام قبل أن تنسحب منها المدرعات الالمانية الى الوراء ، وقد قامت الفرقة النيوزيلندية ، بهجمات قوية صمد لها العدو ، وتمكن الفيلق الالمانى من النجاة ، وتوقف مونتجومرى الآن عن مواصلة المطاردة ، وقرر تسليم زمام المبادرة حينما تسنح الفرصة .

ولم تكن قد اضحت كذلك حتى الآن ، وقد اقتنع بصد آخر هجوم قام به روميل نحو مصر ملحقا به خسائر فادحة ، وقد تمكن الجيش الثامن وسلاح الصحراء الجوى من تسديد ضربة قاصمة للعدو ، دون أن تلحق بهما خسائر فادحة ، أو تحدث له أزمة حادة فىخطوط مواصلته وقد أوضحت لنا الوثائق – التى صادرناها فيما بعد – أن روميل عندما وجد نفسه فى مأزق حرج أخذ يلح فى طلب العون والمساعدة ، وعلمنا أيضا انه كان فى هذه الحالة قائدا منهكا لا يكف عن الشكوى وبعد شهرين اتضحت نتائج معركة « العلم – حلفا » .

وبالرغم من سير كل وسائل الاستعدادات للعمليتين العظيمتين بسرعة فى طرفى البحر المتوسط فان فترة الانتظار كانت تنطوى على

القلق الكثير وكانت الحلقة الداخلية التي تعلم كل شيء تحس احساسا جارفا بالقلق مما قد يحدث ، أما الذين لا يعلمون فقد أفزعهم ذلك الهدوء الذى ساد الامور ، وضايقهم أننا لا نؤدى عملا ما ٠

والآن ، وقد مرت ثمانية وعشرون شهرا في تصريف شئون البلاد ــ من الناحية القيادية ــ منينا خلالها بسلسلة متواصلة من الهزائم العسكرية المنكرة ، وقد تحملنا هزيمة فرنسا وانهيارها ، والهجوم الجوى على بريطانيا ونجونا من الغزو وما برحنا نحتفظ بمصر ، كما أننا أحياء نقف موقف التحدى ٠٠ هذا هو كل ما في الأمر ومن جهة أخرى فقد منينا بسلسلة متلاحقة من الكوارث فهناك خيبة الأمل التي تجرعنا مرارتها في «داكار» ٠٠ وهناك أيضا خسارة كل ما كسبناه من الايطاليين في الصحراء ومأساة اليونان وضياع جزيرة كريت ، ونكسات أخرى وأخرى مع اليابان ، وضياع « هونج كونج » واحتلال « الهند الهولندية » وكارثة سنغافورة ، وغزو اليابان لبورما وهزيمة أوكنلك في الصحراء واستسلام طبرق والفشل في « دييب » ٠٠ كلها حلقات في سلسلة منينا بالفشل فيها ، ورزئنا بها ، فضلا عن أنها لا مثيل لها في التاريخ ٠ على أن الحقيقة القائلة بأننا ما زلنا وحيدين وان أعظم دولتين في العالم قد أصبحتا حليفتين لنا تحاربان معنا محاربة يائسة ٠٠ هذه الحقيقة أضفت علينا بعض الثقة بالنصر النهائي ، ولكن هذه الثقة صهرت النقد والحرية وأطلقتهما من عقالهما وخاصة بعد تبدد الاخطار الساحقة ٠ أو ليس من الغريب أن تتعرض طبيعة ادارة الحرب ونظامها الى مثل هذا التحدى وهما في عهدتي ؟ ٠٠

ومن أبرز الأمور ، أنني في هذه المرحلة من الجمود الغريب لم أبعد عن السلطة ولم تتعرض لى ازاء هذا رغبات لتغيير أساليبي ، ولم أكن قطعا أرتضى هذه الأمور ولو غادرت الميدان في هذا الوقت لناءت بكاهلى اعباء الكوارث ولنسيت قطوف الظفر التي كان سيتم جنيها الى تركي المسرح ، فقد كادت الحرب وأوضاعها في هذا الوقت تتحول بصفة عامة، فمنذ بدأ يحالفنا النجاح المطرد ــ الذى لا يعكر صفوه بين الفينة والأخرى الا بعض النكسات البسيطة ورغم أن النضال سيكون طويلا ، شاقا ، وسيقتضى أصدق الجهد وأعظمه منا جميعا ، فقد وصلنا الى قمة المضيق وبدأ سبيلنا الى النصر يصبح أكيدا على أنني لم أحرم حقي في الاشتراك في هذه المرحلة الحديثة من الحرب ، بفضل وحدة وزارة الحرب وقوتها ، وبفضل ما أولاني زملائي السياسيون والعسكريون من ثقة ونتيجة لولاء البرلمان الراسخ وحسن نية الشعب التي لم يعترها الوهن وهذا كله يوضح مدى ما يحظى به الانسان في الأمور من حظ طيب ، وانه يجب عليه ألا يكترث بأمر ما اللهم الا بأداء واجبه بأقصى ما يستطيع من عزم ٠

وفي خلال ذلك وجدت بعض التسلية عندما عكفت على دراسة ما قمت بدراسته من اقتراحات وزارة الخارجية بالتشاور مع وزارة الخارجية الامريكية حول مستقبل الحكومة العالمية بعد الحرب ، وقد قام وزير الخارجية في شهر اكتوبر بتوزيع وثيقة هامة على أعضاء وزارة الحرب حول هذا الموضوع وقد أسماها « مشروع الدول الاربع » ،

ونصت هذه الوثيقة على أن يتولى الادارة العليا العالمية مجلس مكون من بريطانيا العظمى وأمريكا وروسيا والصين ، ويسرني أني وجدت في نفسي القوة لأضمن هذه المذكرة ـ التي بعثت بها الى وزير الخارجية في الحادي والعشرين من اكتوبر عام ١٩٤٢ ـ آرائي في هذا الموضوع حيث قلت :

سأحاول بالرغم من ضغط الاحداث ، أن أكتب الرد ، ويبدو أن اختيار هذه الدول الأربع الكبرى أمر سهل جدا .. لكن ليس في طاقتنا على أية حال أن نحدد حقيقة روسيا التي علينا أن نواجهها وليس في طاقتنا أن نحدد الطلبات التي ستتقدم بها وقد يصبح هذا أمرا ممكنا بعد وقت قصير ، أما بالنسبة الى الصين ، فانه لا يمكنني أن أعد « شونكينج » ممثلة لدولة عالمية عظمى ، ومن المؤكد أن أمريكا ستصوت في جانب أية محاولة لتصفية الامبراطورية البريطانية فيما وراء البحار .

« ويجب أن أقر بأن أفكاري تتركز بصفة رئيسية في أوربا وبعث أمجادها باعتبارها القارة الام لكل الشعوب والحضارات الحديثة ،ولاشك في أنه اذا هيمنت البربرية الروسية على حضارات الدول الاوربية الغربية واستقلالها ، فستكون تلك كارثة تجل عن الوصف . ولما كان من العسير على المرء أن يحدد الموقف الآن فان الاسرة الاوربية قد تمضي في العمل متحدة في ظل مجلس أوربي وطني لأتطلع الى « ولايات متحدة أوربية » تخفف فيها القيود بين مختلف الدول ، وتحطم القيود المفروضة على التنقل والسفر كما آمل أن أرى اليوم الذي يدرس فيه الاقتصاد الاوربي ككل لا في أجزاء معينة كما أرجو أن أرى مجلسا يشمل عشر وحدات مثلا ، كأن يشمل الدول العظمى السابقة مع عدد من الاتحادات التعاونية « كونفيدراسيونات » كاتحاد اسكنديتافيا والدانوب والبلقان وما ماثلها وأن يكون لهذا المجلس « قوة بوليس دولية » تتولى مهمة الحفاظ على « بروسيا » منزوعة السلاح ، وعلينا بالطبع أن نتعاون مع أمريكا في معظم الاساليب المختلفة ، بيد أن أوربا هي أهم ما يشغل بالنا ، ونحن بالطبع نتوقع أن يحول الروس والصينيون بيننا وبين العمل عندما يواجه ـ السويديون والنرويجيون والدانيمركيون والهولنديون والبلجيكيون والفرنسيون والاسبان والبولنديون والتشيكون والاتراك ـ مشكلات شائكة ملحة ويفتقرون الى مساعدتنا ، حتى تسمع أصواتهم ونداءاتهم . ومن اليسير أن يتوسع المرء في دراسة هذه النظريات ، على أنه من سوء الحظ أن الحرب تستصرخنا كي نوجه اليها اقصى طاقات اهتمامنا » .

وهكذا دنونا من النهاية العسكرية التي يتوقف على نتيجتها كل شيء ..

معركة العلمين

استمرت التدريبات والاعداد التخطيطي دون توقف في الاسابيع التي تلت التغييرات التي حدثت في القيادة بكل من القاهرة والجبهة ، وقد عزز الجيش الثامن بشكل لم يشهد التاريخ مثله من قبل ، ووصلت الفرقتان الحادية والخمسون والرابعة والاربعون قادمتين من الوطن ومتأهبتين لحرب الصحراء ، وزادت قوتنا في سلاح المدرعات الى سبعة

ألوية تشمل أكثر من ألف دبابة ، كان أكثر من نصفها من طراز «جرانت» و «شيرمان» الامريكيتين ، وتضاعف تفوقنا في العـــدد في حين غدونا متكافئين في الكيف ، وقد حشدت للمرة الأولى في الصحراء الغربية قوة مدفعية ضخمة مدربة أحسن تدريب لتعزيز الهجوم المتوقـــع بين لحظة وأخرى٠ ـ وأصبح السلاح الجوى في الشرق الاوسط تابعا لمفاهيم القيادة البرية العليا واحتياجاتها العسكرية ، دون أن توغم على اتخاذ اجراءات سابقة لأوانها ـ وتفرضها علينا ضرورات الظروف الحرجة بسبب وجود الماريشال الجوى العظيم على رأسه ، فقد كانت العلاقات بين القيادة الجوية « والجنرالات » الجدد أوثق ما تكون ، وغدا السلاح الجوى الصحراوى بين الذى يتولى قيادته ماريشال الجو « كونينجهام » ـ قـــوة تربو على الخمسة والخمسين طائرة ، وكان ثمة مـــع الطائرات العاملة من مالطة مجموعتان تضم ما يقرب من ستمائة وخمسين طائرة مهمتها تحطيم موانىء العدو وطرق تموينه عبر البحر المتوسط والصـــحراء ، واذا أضفنا الى المجموع مائة طائرة أمريكية من المقاتلات والقاذفات المتوسطة يتضح ان مجموع الطائرات العاملة غدا ألفا ومائتى طائرة ٠

وقد أنبأنا اليكسندر « فى مختلف البرقيات ، أن الرابع والعشرين من اكتوبر هو اليوم المختار لعملية الخطوة السريعة ـ » وهو الاسم الذى أطلقناه على الهجوم وقال الجنرال فى احدى برقياته : « ولما لم يكن هناك جناح مكشوف ، فان المعركة ستدور بحيث نفتح ثغرة فى جبهة العـــدو سينفذ الفيلق العاشر ـ الذى يضم أكثر دباباتنا ويكون رأس رمـــح هجومنا ـ من هذه الثغرة ، ثم يتقدم فى وضح النهار ، ولن يستكمل هذا الفيلق تسلحه وعتاده قبل الاول من اكتوبر ، وسيفتقر بعد ذلك الى أن يتدرب مدة شهر تقريبا على الدور الذى سيقوم به » واستطرد الجنرال يقول : وارى من المحتم أن يشن الهجوم الرئيسى فى منتصف الشهـــر العربى حين يكون القمر بدار وسيكون هذا الهجوم رئيسيا ضخما للغاية مما قد يستغرق بعض الوقت ، وخاصة فتح ثغرة مناســـبة فى خطوط العدو تنفذ منها قواتنا المدرعة فى أكثر ساعات النهار حتى يصبح الهجوم حاسما تماما » ومرت الاسابيع ٠٠ ودنا الموعد ، وكان السلاح الجوى قد بدأ معركته مهاجما قوات العدو ومطاراته ومواصلاته وقد كان فى غاراته التى يشنها يولى القوات المعادية اهتماما خاصا ، وقـــد أغرقنا فى شهر سبتمبر ثلاثين فى المائة من سفن المحور التى تحمـــل المؤن الى افريقية الشمالية ، وقد حققنا هدفنا هذا عن طريق الغارات الجوية ، وقد ارتفع هذا الرقم فى شهر اكتوبر الى ٤٠٪ أما خسارة ناقلات الزيت ، فقـــد بلغت ٦٦٪ وحطمنا فى أشهر الخريف الاربعة ما يربو على مائتى ألف طن من حمولة بواخر المحوز ، وكانت هذه الضربات بالنسبة لجيش رومل ، قاصمة بل مميتة ، وأخيرا وردت الكلمة المرتقبة فقد أبرق الينا الجنرال اليكسندر يقول « زيب » ٠

وفى الثالث والعشرين من اكتوبر انطلق ألف مدفع « ليلة البدر » حيث كان البدر تماما ، وقد ركزت هذه المدافع قذائفها على مدافع العدو

مدة عشرين دقيقة ثم اتجهت الى مواقع مشاته تقصفها قصفا ٠٠ وتحت ستار هذه النيران الرهيبة الهائلة التى كان يعززها قذف شديد من الجو، تقدم الفيلق الثلاثون بقيادة الجنرال « ليز » والفيلق الثالث عشر بقيادة الجنرال « هورروكس » وقد تقدمت وراءهما فرقتان مدرعتان من الفيلق العاشر بقيادة الجنرال « لومسون » لاحراز النصر ، وقد تمكنت الوحدات المتقدمة من أن تحرز انتصارات ساحقة تحت ستار النيران الحامية وأن تشق لنفسها طرقا داخلية في صفوف العدو حينما أخذت خيوط الفجر الفضية تنتشر في الافق ، وتدحر جيوش الظلام وقد قـام المهندسون بتطهير الالغام خلف القوات الامامية ولكننا لم نستطع أن نخترق حقـول الالغام اختراقا كاملا على عمقها ، ولم يكن هناك أمل مبكر في أن تستطيع مدرعاتنا اختراق جبهة العدو ، وقد شقت الفرقة الافريقية الجنـوبية طريقها في الجنوب الى الأمام لحماية الجناح الجنوبي المتقدم على حـين شنت القوة الهندية الرابعة هجمات من هضـاب الرويسات واستطاعت الفرقة المدرعة السابعة والفرقة الرابعة والاربعون من الفيلق الثالث عشر أن تخترقا جبهة العدو الدفاعية المقابلة لهما وقد أرغم هذا الزحف العدو على أن يحتفظ بفرقتين مدرعتين ثلاثة أيام خلف هذا الجزء من الجبهة على حين كانت المعركة الرئيسية تتطور في الشمال ٠

وبالرغم من ذلك لم نتمكن حتى الآن من فتـح ثغرة في صفوف العدو المتوغل في حقول الالغام والخطوط الدفاعية ، وفي الساعات الاولى المبكرة من صباح الخامس والعشرين من شهر أغسطس عقد مونتجمرى مؤتمرا حضره كبار قادته العسكريين وفيه أصدر أمره الى سلاحه المدرع بمواصلة ضغطه قبيل الفجر وفقا لتعليماته الاصلية ٠

وبعد قتال عنيف في أثناء النهار تم الاسـتيلاء على أراض جديدة ولكن الحصن الطبيعي الذى يعرف برابية « الكلى » ، أضحى محـور الصراع العنيف مع الفرقة الالمانية المدرعة الخامسة عشرة ، ولم يضاعف مونتجمرى ضغطه الى مدى أبعد من جبهة الفيلق الثالث عشر حتى يحتفظ بالفرقة المدرعة السابعة سليمة حتى نهاية المعركة ٠

وفي هذا الوقت حدثت اضطرابات خطيرة في قيادة العدو فقد نقل رومل الى المستشفى في ألمانيا في آخر شهر سبتمبر ، وخلفه في القيادة العامة الجنرال « شتوم » لكن الأخير أصيب بعد أربع وعشرين ساعة من بداية المعركة ــ بنـوبة قلبية مفاجئة توفي على أثرهـا ، وغادر رومل مستشفاه بنـاء على طلب هتلر وعاد الى قيادته في الخامس والعشرين من هذا الشهر ٠

وقدظل القتال دائرا طيلة السادس والعشرين من اكتوبر على امتداد الثغرة العميقة التى تم فتحها في خط العـدو وخاصة في جوار « رابية الكلى » وانطلقت قوة العدو الجوية من عقالها ــ وهي التى كانت هادئة في اليومين الماضيين وأخذت تتـحدى بشكل حاسم تفوقنا الجوى ، وجرت عدة معارك جوية كانت تنتهي دائما بانتصارنا ، وقد أفلحت جهود الفيلق الثالث عشر في تأخير حركة سلاح المدرعات الالماني ، وان لم تفلـح في

منعه من الانتقال الى ما أصبح يؤلف الآن ٠٠ القطاع الفاصل فى الجبهة ، ولكن سلاحنا الجوى ، صب على هذه الحركة وابلا من قذائفه ٠

وفى هذه اللحظة انطلقت الفرقة الاسترالية التاسعة بقيادة الجنرال «مورسهيد» شمالا من هذه الثغرة فى اتجاه البحر ، وسارع مونتجمرى الى استغلال هذا النجاح الواضح ، فأمر القوات النيوزيلندية المتقدمة نحو الغرب بالتوقف ، وأصدر أوامره الى الاستراليين بمواصلة التقدم صوب الشمال ، وقد هدد هذا التقدم مؤخرة قسم من فرقة المشاة الالمانية فى الجناح الشمالى ، وفى الوقت نفسه أحس بأن قوة هجومه الرئيسى قد بدأت تضغط وسط حقول الالغام ومواقع المدفعية القوية المضادة للدبابات ، ولهذا ، أعاد حشد قواته وقام بهجوم جديد نابض بالحيوية والقوة ٠

وقد دار قتال فعال طيلة السابع والثامن والعشرين للاستيلاء على « زابيه الكلى » تجاه هجمات الفرقتين المدرعتين الالمانيتين : الخامسة عشرة والحادية والعشرين اللتين قدمتا من القطاع الجنوبى ، وقد أرسل الجنرال اليكسندر يصور القتال بالعبارات التالية :

فى السابع والعشرين من أكتوبر بدأ هجوم مدرع مضاد كبير ، وقد كان على النمط القديم ، وقد هاجمنا الالمان خمس مرات بما كان لديهم من دبابات ألمانية وايطالية ، ولكنهم لم يحرزوا أى كسب بل منوا بخسائر بالغة لا توازى ما منينا به من خسائر ، اذ كنا نحارب ونحن فى موقف الدفاع ، غير أنها كانت خسائر طفيفة ، وفى الثامن والعشرين قام العدو بهجوم آخر بعد مناورات استطلاع طويلة بالغة الدقة - يبدو انها استغرقت كل ساعات النهار الباكر - لمعرفة المواقع الضعيفة وتحديد مواقع مدافعنا المضادة للدبابات وقد بدأ هذا الهجوم بعد الظهر - بصورة مركزة - على حين كانت وراءهم الشمس تنحدر الى مغربها ولم تحرز مناورات الاستكشاف فى هذه المرة نجاحا مثلما أحرزته فيما سلف من الأيام لأن دباباتنا ومدافعنا المضادة للدبابات كان يمكنها أن تشتبك مع العدو على أبعد مدى ، وحينما حاول تركيز قواته للقيام بالهجوم النهائى ، تدخل السلاح الجوى الملكى ثانية على نطاق واسع وبشكل مدمر ، وقد القت قاذفاتنا فى خلال ساعتين ونصف الساعة ما يقرب من ثمانين طنا من القنابل على منطقة حشوده التى كانت تمتد مساحتها أميالا طولا وميلين عرضا وقد حالف الفشل هجوم العدو قبل أن يستكمل تشكيله ، وكانت هذه هى المرة الاخيرة التى حاول العدو فيها أن يتسلم قيادة المبادرة » ٠

وفى الفترة التى تمتد بين السادس والثامن والعشرين من أكتوبر، قذفت طائراتنا بقنابلها ثلاث ناقلات نفط للعدو كان لها أهمية حيوية فأغرقتها ٠ وبذلك جنينا ثمرة طيبة لعملياتنا الجوية التى كانت جزءا لا يتجزأ من المعركة البرية ٠

وفى هذا الوقت أعد مونتجومرى خططه ومواقعه للهجوم الحاسم ، الذى أسميناه «الهجوم الاكبر» ، وقد أقصى عن الجبهة الفرقة النيوزيلندية

والفرقة البريطانية المدرعة وقد كانت الاخيرة فى حاجة ملحة الى التنظيم بعد بلائها الرائع فى صد سلاح المدرعات الالمانى فى روابى «الكلى» وقد حشدت الفرقتان البريطانيتان المدرعتـــان السابعة والحادية والخمسون بالاضافة الى لواء من الفرقة الرابعة والاربعين وادمجت فى قوة احتياطية واحدة ، وقد تقرر : أن يكون النيوزيلنديون فى مقدمة الهجوم ومعهم لواءا المشــــاة البريطانيان : (١٥١) و (١٥٢) ، ولــــواء المدرعات البريطانى التاسع ٠

وقد كان التقدم الاسترالى الرائع نحو الأمام وهو الذى تحقق بعد قتال تميز بالضراوة والشدة والعنف ـ هو الذى حول سير المعركة كلها الى جانبنا منذ بدأت ٠ وفى الساعة الواحدة من صباح الثانى من نوفمبر بدأت عملية « الهجوم الاكبر » وقـــــد تمكنت الالوية البريطانية الملحقة بالفرقة النيوزيلندية فى ظل ستار قوى من المدفعية من أن تنفذ الى المنطقة المحصنة ، وقد مضى اللواء المدرع التاسع فى زحفه ولكنه أمكنه أن يحتفظ بالرواق مفتوحا ، ثم تحركت الفرقة البريطانية فى المعركة فقـــد هاجم كل ما تبقى لدى العدو من الدبابات على جانبى المرتفـــع ، ولكنه أمكنه صـــــدها ٠ وهنا حانت « مرحلة القرار الاخير » ولكن تقارير طائراتنا الاستكشافية قد أثبتت أنه فى الثالث والعشرين من نوفمبر ـ وعلى الرغم من أن العدو بدأ يتقهقر صمدت قوات مؤخرته المستخدمة فى التغطية على « طريق الرحمن » فى وجه الزحف الرئيسى لسلاح مدرعاتنا ، كالســد المنيع الذى يحول دون تقدمها ، وقد وصل أمر هتلر يحذر من التقهقر ، لكن النتيجة أفلتت من أيدى الالمان ، وكان علينا أن نفتح ثغرة ثانية فى الجبهة ، وقد شن «اللواء الهندى الخامس» فى الساعات المبكرة من صباح الرابع من نوفمبر ، هجوما خاطفا بالسيارات على بعد خمسة أميـــــال جنوب تل العقاقير وقد أحرز هذا الهجوم نجاحا ملموسا منقطع النظير ٠٠ وهكذا كسبنا المعركة وأصبح الطريق مفتوحا أمام سلاح مدرعاتنا المطارد للعدو عبر الصحراء الغربية ٠٠

وقد بدأ رومل انسحابه الكامل السريع ، ولكن وسائل النقـــــل لم تكن متوافرة لديه حتى يحمل كل ما لديه من قوات ، كما أن الوقود كان ينقصه ، وعلى الرغم من ان الالمان كانوا قـــد قاتلوا ببسالة ، فانهم كانوا يفاضلون بين أنفسهم وبين خلفائهم الايطاليين فى السيارات ، وترك الالوف من ست فرق ايطالية هائمة فى الصحراء دون غذاء أو ماء ، ولـــم يعد لديهم من الأمل سوى أن تقوم قواتنا بجمعهم للزج بهم فى معسكرات الاسر ٠٠ وبعد ، فقد امتلأت أرض المعركة بحشد كبـــــير من الدبابات المحطمة والمدافع والسيارات ، وتقول مذكرات الالمان انه لم يبق مما لدى الفرقة الالمانية من مجموع ٢٤٠ دبابة صالحة للاستعمال عنـــــد بداية المعركة ـ الا ثمان وثلاثون دبابة فى الخامس من نوفمبر ، وكان السلاح الجوى الألمانى ، قد تخلى عن محاولة الحصول على التفوق الجوى فى مجال الموازنة وأصبح فى وسع سلاحنا الآن أن يعمل فى حرية وانطــــــلاق ، لا يمنعه عائق ، مهاجما العدو بما يملك من موارد ، وهو يتقهقر فى قواته الغفيرة من الرجال والسيارات فى اتجاه الغرب ، وقد أثنى رومل ثنـــاء عاطرا على الدور البارز الذى لعبه الســــلاح الجوى الملكى فى المعركة ،

وهكذا هزم جيش رومل هزيمة منكرة ، وغدا الجنرال «فون توما» مع تسعة جنرالات من الايطاليين أسرى فى أيدينا ٠

وقد روادنا الأمل فى تحويل الكارثة التى نزلت بالعدو الى « عملية ابادة » ، واتجه الهجوم النيوزيلندى الى الغوته ، ولكن حينما قدم النيوزيلنديون الى هناك فى الخامس من نوفمبر كان العدو قد انسحب منها ، وقد راودنا هذا الأمل فى طريق تقهقر العدو فى مرسى مطروح التى كانت هدفا لهجوم الفرقتين البريطانيتين المدرعتين الأولى والسابعة ٠ وعندما أسدل ليل السادس من نوفمبر سدوله على الكون ، كانت الفرقتان تقتربان من هدفهما على حين كان العدو لا يزال يحاول ـ جاهدا ـ الهرب من الفخ الذى يكاد يحصره ويبيده ٠٠ وفجأة هطل المطر، وتضاءلت كميات الوقود لدى قواتنا الامامية فتوقفت عمليات مطاردتنا طيلة السابع من نوفمبر ، وقد حال هذا التوقف ـ الذى استمر أربعا وعشرين ساعة ـ دون اتمام حركة الالتفاف لكن أربع فرق ألمانية وثمانى فرق ايطالية لم تستطع أن تصبح تشكيلات مقاتلة ، وأسر ما يقرب من ثلاثين ألف جندى كما استولت قواتنا على كميات كبرى من المعدات الحربية من مختلف الانواع ، وقد سجل رومل رأيه فى الدور الذى أدته مدفعيتنا فى هزيمته فقال : « وقد أظهرت المدفعية البريطانية مرة أخرى تفوقها الرائع المشهور ، ولعل أبرز ما فيها هو ، قدرتها على الحركة وسرعتها على التكيف وفقا لمقتضيات الهجوم » ٠

والخلاف بين معركة العلمين وبين المعارك الاخرى فى الصحراء واضح ، فالجبهة محدودة قوية التحصين فضلا عن أنها تضم قوات كبيرة، ولم يكن هناك جناح يمكن الالتفاف حوله ، وكان على الفريق الاقوى الذى يود الهجوم أن يخترق الجبهة ، وتكاد « معركة العلمين » تذكرنا بمعارك الحرب العالمية الأولى فى الجبهة الغربية وقد تكررت فى مصر المظاهر التى سبق أن رأيناها ، من أجل تجربة واختبار القوى التى شهدناها فى « معركة كمبرية » فى آخر عام ١٩١٧ وفى المعارك الكثيرة التى دارت فى عام ١٩١٨ ٠ وأهم هذه المظاهر ، تمتع المهاجمين بطرق مواصلات قصيرة ، واستخدم المدفعية فى أكبر تركيزممكن والقصف الاجوف وتوغل الدبابات فى هجوم الى الأمام ٠

وكان الجنرال مونتجومرى ورئيسه الجنرال اليكسندر قد أجادا اجادة تامة هذا اللون من الحروب بفضل التجربة والدراسة وكان مونتجومرى نفسه مدفعيا عظيما كما كان يؤمن ـ كما قال برناردشو عن نابليون : « ان المدافع تقتل الرجال » وسنراه دائما يحاول جمع ما بين ٣٠٠ و ٤٠٠ مدفع ثم يشركها فى عمل تحت قيادة واحدة مركزة ، بدلا من اشتباكات البطاريات ـ وهى العمليات التى لا مفر منها والتى ترافق تقدم سلاح المدرعات فى المجالات الصحراوية ـ وبطبيعة الأمر ، كان كل شىء فى المعركة أضيق وأقل بكثير من معارك فرنسا « والفلاندرز » ، وقد فقدنا أكثر من ثلاثة عشر ألفا وخمسمائة رجل فى العلمين فى اثنى عشر يوما ، وقد فقدنا فى اليوم الأول من المعركة ستين ألفا ، وقد تضاعفت القوة النازية الدفاعية ـ من الناحية الثانية ـ عما كانت عليه فى الحرب

الماضية ، وفى هذه الايام كان المفروض أن تكون القوات المحتشدة للهجوم ضعفى القوات المدافعة أو ثلاثة أضعافها لا من حيث عدد المدافع فحسب ، بل من حيث عـــدد الرجال كذلك لتستطيـــع اختراق الجبهة المحصنة وتحطيمها برغم المدافعين عنها ، ولم يكن لدينا مثل هـــذا التفوق فى العلمين ، وكانت جبهة العدو تتألف ، فضلا على سلسلة الخطوط المتعاقبة من المواقع الحصينة ، من مواقع المدافع الرشاشة العميقة للغاية بكاملها وهى تشكل جهازا دفاعيا كاملا وأمام هذه المنطقة كلها يمتد درع هائل من حقول الالغام ، لم يسبق فى تاريخ الحروب له مثيل فى قوته وكثافته، ولهذه الاسباب كلها ، فان معركة العلمين ستحتل دائما صفحة مجيدة فى التاريخ العسكرى البريطانى ٠

وهناك سبب آخر لخلود هذه المعركة ، هو أنها تشير فى الواقع الى انقلاب فى «محور الخط» ، وقد يقال : ــ وهو قول صحيح ــ اننا لم نحقق أى ظفر قبل العلمين ، ولكننا بعد العلمين لم نمن بأية هزيمة ٠

المشعل يوقد

لقد كان ما يضمره الرئيس روزفلت للجنرال ديجول من حزازات ، وما يقوم به من اتصالات عن طريق الاميرال « ليهلى » مع حكومة فيشى ، وذكرياتنا عن تسرب أنباء تصميمنا على مهاجمة الاسطول فى « داكار » قبل عامين ، حافزا لنا على اتخاذ قرار بعدم الادلاء بشىء للفرنسيين عن عملية « المشعل » ولم يخطر ببالى مناقشة هذا التصميم ، ومع ذلك كنت أدرك تمام الادراك علاقاتنا نحن البريطانيين بديجول كما كنت أحس بما يحس به من اساءة بالغة من جراء تعمـــدنا استثناءه من الاشتراك فى المشروع ٠ وقد قررت أن يحاط علما بذلك قبل حدوثه ، كمـا قررت ــ كوسيلة للتخفيف من الاساءة التى ستلحق به وبحركته ــ أن أسند اليه الوصاية على مدغشقر وكانت كل الحقائق الماثلة أمامنا فى شهور التأهب، وكل ما حشدنا من معلومات منذ ذلك الحين ، يسوغ الرأى القائل : ان الزج بديجول فى المشروع سيكون له صدى سيىء منبعث عن الفرنسيين فى افريقية الشمالية ٠

ان الضرورة الملحـــة لخلق شخصية فرنســـية بارزة كانت جلية واضحة ، وقد بدا للبريطانيين والامريكيين أنه ليس هناك من هو أصلح لهذه المهمة من الجنرال « جيرو » القائد الفرنسى صاحب الرتبة العالية ، الذى تناقلت الاساطير قصـــة هروبه المسرحى الغريب من السجـن فى المانيا ، وكنت قد التقيت بجيرو فى متيز عام ١٩٣٧ ٠ حينما زرت ماجينو، وكان يتولى قيادة أكبر قطاع فيه ، وقد حدثنى عن مغامراته فى الحرب العالمية الأولى كأسير هرب خلف الخطوط الالمانية ، ولما كنت أنا أســيرا هاربا فى حرب البوير ، كان هناك ما يجمعنا ٠ وقد استعاد حينئذ كقائد جيش بعض مغامرات الصبا بطريقة أكثر اثارة ، وبدأ الامريكيون محادثات سرية مع الجنرال ، وقد وضعت الخطة لنقله من « الرفييرا » الى جبـــل طارق فى اللحظة الحاسمة ، وقد تركزت آمال كثيرة على « دبوس الملك » وهو الاسم الذى أطلقناه عليه فى برقياتنا الرمزية ، وقد نقـــل « جيرو

ووالداه فى سلام على الرغم من المخاطرات البحرية التى تعرض لها ٠

وفى خلال ذلك كان أسطولنا الجبار يدنو رويدا رويدا من مسرح المعركة ، وكان على أكثر القوافل التى أبحرت من الموانى البريطانية أن تمر بخليج بسكاى ، وأن تقطع كل طرق الغواصات ، وقد كنا نفتقر أشد الافتقار الى قوات حراسة ضخمة ، وكان علينا أن نخفى حشود بواخرنا الضخمة التى بدأت تحتشد منذ أوائل شهر أكتوبر فى « كلايد » وغيرها من الموانى الغربية ، وأن تقوم بابحارها ، وقــــد نجحنا فى ذلك نجاحا ساحقا ، وتراءى للألمان ـ وفقا لمعلومات دوائر مخابراتهم أن «داكار» هى هدفنا الجديد وقد احتشد فى آخر الشهر ما يقرب من أربعـين غواصة بين ألمانية وايطالية جنوبى وشرقى جزر الآزور ، وقد هاجمت قافلة كبرى كانت فى طريق العودة الى سيراليون ، وأغرقت ثلاث عشرة باخرة ، وكان فى طاقتنا أن نتحمل مثل هذه الخسارة فى مثل هــــذه الظروف ، وفى الثانى والعشرين من أكتوبر رحلت أولى قوافل « المشعل » ، وقبــــل السادس والعشرين من الشهر كانت كل بواخر نقل الجنود السريعة فى طريقها ، فى حين أبحرت القوات الآمريكية من أمريكا الى الدار البيضاء ، وهكذا اشتركت نحو ٦٥٠ باخرة فى العملية كلها ، وقد عبرت خليـــج بسكاى أو «المحيـــــط الاطلنطى» دون أن ترى للغواصات أو الطائرات الالمانية أى أثر ٠

وقد عبأنا لهـــــذه العملية كل ما لدينا من قوات بحرية ، فتولت طراداتنا فى الشمال مراقبة مضيق الدانمرك ومداخل بحر الشمال لتمنع سفن العدو الحربية من أن تعترض سير الحملة ، وقامت طرادات أخرى بحراسة الطريق الامريكى قرب «جزر الآزور» ، كمـــــا قامت القاذفات الانجليزية والامريكية ، بمهاجمة قواعد الغواصات على امتداد الساحل الفرنسى على الاطلنطى ، وفيما بين ليلتى الخامس والسادس من نوفمبر بدأت طلائع السفن تدخل البحر المتوسط دون أن يحس العـــدو بذلك كما أن العدو لم ير القافلة المتجهة الى « ميناء الجزائر » الا فى السابـع من الشهر نفسه ، أى قبل أربع وعشرين ساعة فقط من موعد وصولهـــا الى هدفها ، فهوجمت احدى بواخرها !

وفى الخامس من نوفمبر طار أيزنهاور فى رحلة خطرة حتى وصل الى جبل طارق وكنت قد أسندت القلعة الى قيادته كي يتـــخذ منها مقره المؤقت باعتباره القائد العام لهذا المشروع الضخم الأول ـ وهو الذى تقوم به قوات بريطانية ـ أمريكية ـ وقد حشدت القوات الجــوية الضخمة الضرورية لمثل ذلك فى القيادة للقيام بعملية « المشعل » ، وقـــد ازدحم البرزخ بالطائرات ووقف فيه من أسراب الطائرات أربعة عشر على أتـــم الأهبة لساعة الصفر ، وكان هذا النشاط يتم بالطبع على مرأى ومسمع من المراقبين الألمان ، وكنا نأمل أن يخطر ببال الالمان أن الهدف من هذه القوات الجوية هو تعزيز مالطة ، وقد بذلنا قصـــارى جهدنا لحملهم على هذا الاعتقاد ، ويبدو أنهم قد اعتقدوا ذلك ٠

وقد تكلم أيزنهاور فى مذكراته بوضوح عن التجربة التى تثـــير القلق وهى التى مر بها فيما بين ليلتى السابع والثامن من نوفمبر ، وفى

خلال الأيام القليلة التالية ـ حيث كان الجنرال يبدى من دلائل الروعة ما يجل عن الوصف من احتمال مثل هذه الجهود ، وقــد كانت ضخامة العملية التى نقوم بها ، وعدم الاطمئنان الى الطقس العام الذى يقضى على كل شىء ، فضلا على ما يرد الينا من الأنباء الصغيرة ، والتعقيدات الكبرى عن موقف فرنسا ، والخطر الماثل الذى يطل برأسه من أسبانيا ٠٠ كلها أمور ـ اذا أضيفت الى القتال تبدو شاقة جدا على قائد يتحمل مسئوليات ضخمة مباشرة ٠

وهنا ظهر الجنرال جيرو فى الميدان ، وقد هيمنت على فكـــره انه سيعين قائدا أعلى فى افريقية الشمالية ، وان كل الجيوش البـــريطانية والامريكية ـ التى لم تكن تعرف عنه شيئا سابقا ستوضع تحت قيادته ، وكثيرا ما كان يحض على القيام بالانزال فى فرنسا بدلا من افريقية ، أو بالاضافة اليها ، وكثيرا ما كان يبدو له أن هذه الصورة لهـا نصيب من الواقع وقد امتدت المناقشات بينه وبين الجنرال أيزنهاور أكثر من ثمان وأربعين ساعة قبل أن يقتنع هـذا الفرنسى الشجاع بمنطق الاحداث ٠٠ وكنا قد عقدنا آمالا باسمة على « دبوس الملك » ٠٠ لكن يبـدو أنه أكبر من أن يخدع بما يتمتع به من نفــوذ فى مواجهة الحكام الفرنسيين ، والجنرالات وجماعات الضباط الفرنسيين فى شمال افريقية ٠

وفى هذا الوقت حدث تعقيد غريب ٠ بيد أنه أتى مواتيا فى هذه اللحظة خاصة فقد عاد الاميرال «دارلان» بعد أن قضى جولة تفتيشية فى شمالى افريقية الى فرنســا لأن ابنه أصيب بشلل الاطفال ونقـــل الى المستشفى فى مدينة الجزائر ، واستدعت خطورة حالته أن يعود الاميرال طائرا الى الجزائر فى الخامس من نوفمبر ، وهكذا قـــدم « دارلان » الى الجزائر عشية نزول القوات الانجليزية ـ الامريكية ـ وكان هذا مجرد مصادفة غريبة ورهيبة فى الوقت نفسه ، وكان المستر «روبرت مورفى» الممثل الأمريكى السياسى فى افريقية الشمالية يأمل أن يتمكن دارلان من مغادرة البلاد قبل بداية الهجوم على سواحلها ٠٠ على أن هـــذا الذى شغله مرض ولده ، قد تأخر يوما آخر أقام فيه فى دار أحـــد الموظفين الفرنسيين وهو «الاميرال فينارد» ٠

وفى الاسابيع الاخيرة تركزت آمالنا على الجنرال «جوان» ، القائد العسكرى الفرنسى فى الجزائر ، وكانت علاقته بالمستر مورفى جـــد وثيقة ـ وان كان المبعوث الامريكى لم يخبره بالموعد الحقيقى للغزو وبعد منتصف ليلة السابع من نوفمبر أخبره مورفى أن الساعة الحاسمة قـــد أزفت ٠٠ وبرغم علاقات الجنرال «جوان» الوثيقة بنا واخلاصه المتفانى للمشروع كانت هذه الأنباء مفاجئة له ، وكانت آماله قد تركزت فى توليه القيادة الكاملة فى الجزائر باعتباره الشخصية العســـكرية الكبرى فى البلاد ولكن وجود الاميرال «دارلان» فى المنطقة حينـــئذ يعرض سلطته للتحدى ، وكان يعلم أن تحت امرته عددا لا يتجاوز المئـــات من الشبان الفرنســـيين المتحمسين ، وان الأشراف على الادارتين : السياســـية والعسكرية ، قد انتقل زمامه من يديه الى يدى الوزير الاميرال «دارلان» ولا مرية فى أن القوات العسكرية والهيئات الادارية لن تذعن له الآن ،

وسأل «مورفي» : لمـــاذا لم يخبروه فيما مضى بساعة الصفر ، وكانت الدواعي واضحة جدا ولم تبدل الحقيقة شـيئا من سلطاته وصلاحياته فدارلان موجود في المنطقة وهو المهيمن على كل ولاء لفرنسا ـ «فيشي» وقد قرر مورفي وجوان أن يطلبا الى دارلان تليفونيا أن يحضر اليهما فورا ، وفي الساعة الثانية صباحا أوقظ دارلان من نومه استجابة لمكالمة تليفونية عاجلة من الجنرال جوان ، وحينما أحيـــط الاميرال بنبأ الضربة التي ستسدد بعد لحظات ، احمر وجهه وقال : « لقـــد كنت أعلم منذ زمن سحيق ، أن البريطانيين سخفاء ، ولكنني كنت أعتقـــد باستمرار أن الامريكيين يفوقونهم ذكاء ، وهاأنذا بدأت أعتقد أنكم تقترفون من الأخطاء مثل ما يقترفون » •

وكان «دارلان» وهو الذى ذاع عداؤه لبريطانيا منذ زمن بعيد قـد ارتبط بالمحور ارتباطا وثيقا ، على حين أنه وافق في مايو عام ١٩٤١ ، على منح تسهيلات في «داكار» الى جانب السـماح بمرور الامدادات الى جيوش رومل عبر تونس ، لكن الجنرال «ويجان» الذى كان قائدا عاما في شمال افريقية ، أوقف هذه العملية قبل ذلك لانهاتحتوىعلى الخيانة وقد نجح في اقناع «بيتان» برفض هذا الطلب الالماني ، ولما كان هتلر حينئذ مشغولا في الاعداد للحملة الروسية المنتظرة فانه لم يضغط على «بيتان» في هذه القضية ، على الرغم من أننا لم نسمع شـيئا جديدا عن خطط المحور لاستخدام «داكار» ضدنا ، وقد فتحت الموانى التونسية فيما بعد لسفن المحور ، وقامت بدور كبـير بارز في تامين العتاد والمؤن لجيوش رومل في صيف عام ١٩٤٢ ، وقد تغيرت الأوضاع الآن ، وتبدل معهـا موقف دارلان ، لكنه ظل مرتبطا ببيتان مظهرا ومخبرا ، بالرغم ممايراوده من أفكار لمساعدة الاحتلال الانجليزى ـ الامريكى لشمالى افريقية ، وكان يعلم أنه اذا انضم الى الحلفاء ، فسوف يتحمل مسئولية قيام المانيا بغزو مناطق فرنسا غير المحتلة ، بيد أن كل ما يمكن عمله والحالة هذه هو أن يطلب الى بيتان برقيا تخويله صلاحية العمل ، ولم يكن أمامه سوى هذا الطريق ، نظرا للحالة الرهيبة التي ورطته فيهـا سلسلة من الاحداث المتتابعة ، وهي التي تنكب فيها جانب الضمير •

وهناك في بعض الاماكن شرقي الجزائر وغربيها ، بدأت عمليـات انزال القوات البريطانية والامريكية من الاسطول الامريكى البريطاني بعد الساعة الواحدة من صباح الثامن من نوفمبر بقليل تحت اشراف الرير اميرال بورو • وقد وجهت قطع الانزال الى السواحل التي أختيرت لاتمام العملية بعناية كافية للغاية • وفي الغرب نجحت طلائع اللواء البريطاني الحادى عشر نجاحا كاملا • أما في الشرق فقد انحرفت بعض قطع الانزال التي تحمل الامريكيين عن مواقعها المحدودة عدة أميال بسبب التيارات المنطلقة • وقد أدى هذا الى حدوث بعض الاضطراب والتأخر • وقـــد حققنا ـ لحسن الحظ ـ عنصر المفاجأة ، ولذا كانت المقاومة على الشاطىء تكاد تكون مفقودة تقريبا • وسرعان ما تحققت الهيمنة التامة ، وقد رأت احدى طائرات سلاح الاسطول اشارة ودية من الارض ، فهبطت في مطار «بليدة» ، واستطاعت بالتعاون مع القائد الفرنسي المحلي أن تحافظ على المطار حتى وصلت قوات الحلفاء قادمة من الشواطىء •

وفي ميناء الجزائر نفسها جرى قتال عنيف حينما حاولت المدمرتان البريطانيتان «بروك» ، ومالكو » اقتحام مدخل الميناء ، وأنزلتا قوات أمريكية ــ على الحاجز المائى ، لتسيطر على الميناء ، وقد استولت على بطارياته الساحلية ، وحالت دون اغراق السفن الفرنسية أو تخريبها ، وكانت نتيجة هذا العمل تصدى المدمرتين لنيران البطاريات الفرنسية الساحلية وانتهى الأمر الى كارثة رهيبة ، فسرعان ماشلت حركة «مالكولم» ودخلت «بروك» الميناء بعد المحاولة الرابعة ، وأنزلت الجنود الذين تحملهم ، ولكنها سرعان ما غرقت عندما حاولت الانسحاب وأصيبت بأضرار بالغة • أما الجنود الذين نزلوا الى البر فقد وقعوا فى الشرك ، وأجبروا على الاستسلام •

وفى الساعة الخامسة مساء أرسل دارلان برقية الى رئيسه قال فيها « لقد دخلت القوات الامريكية المدينة على الرغم من عرقلة عملياتنا لها • وقد خولت الجنرال جوان القائد العام التفاوض لتسليم مدينة الجزائر فقط وفى السابعة مساء تم استسلام مدينة الجزائر ، ومنذ هذه اللحظة أصبح الاميرال دارلان تحت سيطرة الامريكيين • وقد استأنف الجنرال جوان قيادته تحت اشراف الحلفاء •

وفى وهران كانت المقاومة أشد • فقد اصطدمت مع قوات الطوارىء الامريكية ــ الوحدات الفرنسية النظامية التى حاربت البريطانيين فى سورية قبل ، يؤازرها فى ذلك رجال القيادة البحرية الذين ما فتئوا يحملون ذكريات مؤلمة عن هجومنا على الاسطول الفرنسى فى عام ١٩٤٠ • وقد توزع فى جو عاصف فوج من جنود المظلات الامريكيين ، كان قد غادر انجلترا لتسلم المطارات فى أسبانيا ، واستطاعت هذه الطلائع أن تشق طريقها ، الا أنها هبطت على مدى عدة أميال من هدفها بسبب خطأ فى عمليات ملاحتها الجوية •

وفى ميناء وهران ــ حاولت سفينتان حربيتان بريطانيتان صغيرتان أن تنزلا عددا من الجنود الأمريكيين هادفتين من وراء ذلك ــ كما هو فى الجزائر ــ الى الحيلولة دون تخريب الفرنسيين مؤسسات الميناء وتحطيم السفن وتحويل القاعدة الى قاعدة بحرية للحلفاء فى أقرب وقت ممكن • وقد قابلت سفينتان بريطانيتان من سفن الشاطىء بقيادة القبطان « بيترز» وكنا قد حصلنا عليهما من الامريكيين بمقتضى قانون الاعارة والتأجير ــ قابلتا نيرانا حامية من مدى قريب فحطمتا ، وبتحطيمها قتل معظم من كان على متنها من رجال • أما القبطان بيترز فقد نجا بأعجوبة ، وتشاء الأقدار أن يلقى حتفه بعد بضعة أيام فى كارثة طائرة فى أثناء عودته عليها من انجلترا • وقد منح بعد موته وسامى « صليب فيكتوريا » و « الخدمة الممتازة الأمريكى » •

ومع أشعة الفجر البيضاء الرائعة ، نشطت المدمرات الفرنسية والغواصات فى خليج وهران ، ولكنها لم تلبث أن أغرقت أو دمرت • وقد آزرت الوحدات البريطانية البارجة « رودنى » بضرب البطاريات الفرنسية الساحلية ، وظل القتال حتى صباح العاشر من شهر نوفمبر ــ

حينما شن الامريكيون هجومهم النهائى على المدينة ، ولم يحن وقت الظهيرة حتى استسلم الفرنسيون .

وقبيل فجر الثامن من نوفمبر وصلت قوة العمليات الغربية الى الساحل المراكشى ، وكان الهجوم الرئيسى ، الى جانب هجمات جناحى الشمال والجنوب من الميناء على مقربة من الدار البيضاء . وكان الجو جميلا ، وان كان معتما . وكانت الأمواج على الشاطىء أقل هياجا مما كان متوقعا ، ولكنها لم تلبث أن اضطربت بعد ذلك ، وبعد أن أقامت قواتنا لها مركزا ثابتا على الشاطىء ، وقد دار قتال رهيب فى البحر

ففى ميدان الدار البيضاء اشتبكت البارجة « جان بورت » التى أمكنها ، بالرغم من أن بناءها لم يتم بعد - أن تستعمل مدافعها الاربعة عيار ١٥ بوصة « فى معركة مع البارجة الامريكية ماشويست ، على حين أقلعت المدمرات الفرنسية ، يؤازرها الطراد بريموجيه ، لمقاومة حركة النزول وقد التقت هذه الوحدات وجها لوجه بالأسطول الأمريكى كله ، وحطمت سبع سفن فرنسية وثلاث غواصات ، وفقد الفرنسيون عددا من الرجال زاد على الألف ، وأشعلت النيران فى البارجة جان بورت ، وجنحت الى الشاطىء وفى صباح الحادى عشر من نوفمبر استسلم « نوجيس » المقيم الفرنسى العام عندما تلقى أمرا من دارلان ، وبعث الى فيشى ببرقية يقول فيها « لقد فقدت كل ما كان لدى من سفن القتال والطائرات بعد ثلاثة أيام من القتال العنيف المحتدم .

وكان « مبيرين » قبطان الطراد بريموجيه يتمنى أن يظفر الحلفاء بالنصر ، ولكنه مع ذلك صرع على جسر طراده وهو منهمك فى تنفيذ أوامره . ولا مرية فى أن من حقنا أن نشكر الأقدار لانها لم توقفنا مثل هذه المواقف الحرجة من الولاء المتعارض وأخذت أنباء متناثرة من هنا وهناك ترد الى مقر قيادة الجنرال ايزنهاور فى جبل طارق ، حيث أخذ يواجه الآن وضعا سياسيا خطيرا ، فقد كان متفقا مع الجنرال جيرو على أن يسند اليه قيادة بعض القوات الفرنسية التى قد تنضم الى قضية الحلفاء ، وفجأة ظهر على المسرح السياسى رجل يستطيع أن يقرر بالفعل انضمام هذه القوات الى الحلفاء فعلا ، وبصورة نظامية أولا ذلكم هو الأميرال « دارلان » ولم يكن الأمل فى ولاء هذه القوات « لجيرو » قد اختبر بعد ! وان كانت الدلائل غير مشجعة على الاطلاق ، ولهذا طار الجنرال جيرو فى صباح التاسع من نوفمبر الى الجزائر ، وطار بعده بقليل، الجنرال « كلارك » : النائب الشخصى للجنرال ايزنهاور . وكان فى استقبال كبار القادة العسكريين الفرنسيين فى الجزائر ، فتوارى فتور .

وكانت فرق المقاومة التى نظمها العملاء البريطانيون والأمريكيون قد انهارت واختفت ، ولم يصل كلارك فى اجتماعه الأول بدارلان الى أى اتفاق ، وكان من الواضح ، أن أى مسئول لن يقبل جيرو قائدا فرنسيا أعلى ، وفى اليوم التالى اجتمع « كلارك » مرة أخرى بالأميرال دارلان ، وقد تحدث الى ايزنهاور بالمسرة بأن الاتفاق مع « دارلان » هو الحل الوحيد ، وأن الظروف لا تسمح بمناقشات برقية مع لندن وواشنطون ،

ولم يكن « جيرو » حاضرا هذا الحديث ، أما دارلان فقد تردد لأنه يرتقب تعليمات « فيشى » ، وقد أعطاه كلارك مهلة نصف ساعة لاتخاذ قراره النهائي ، ووافق الأميرال بعد لأى على اصدار أمره بوقف اطلاق النار ، بصورة عامة فى كل أنحاء افريقية الشمالية وتولى الماريشال السلطة التامة للامبراطورية الفرنسية بافريقية الشمالية وأصدر أوامره الى كل الموظفين بالبقاء فى مناصبهم ·

وأصدر « دارلان » أيضا أمره الى الأميرال « استيفا » المقيم الفرنسى العام فى تونس بأن ينضم الى الحلفاء ، وكان هذا تابعا مخلصا لفيشى ، وقد تقصى تطور الأحداث فى فزع وقلق ، ولما كان أقرب الى العدو من دارلان أو « فوجيس » ، حيث أن الأعداء يرابطون فى « صقلية » وعلى حدودها الشرقية ، فقد كان وضعه أسوأ من وضعهما ، وكان كبار مساعديه لا يقلون عنه قلقا واضطرابا ، وتردد فى اتخاذ القرار ، وفى التاسع من نوفمبر استولت وحدات من السلاح الجوى الألمانى على مطار العوينة « الهام » ، وفى اليوم نفسه وصلت قوات ألمانية وايطالية الى البلاد ووجد « استيفا » نفسه فى وضع يائس بين قوات المحور القادمة من الشرق من طرابلس وقوات الحلفاء التى تستحث الخطأ من الغرب · فقرر أن يظل على ولائه « لفيشى » ، أما الجنرال الفرنسى « باريه » ــ الذى وجد نفسه فى البداية فى موقف مضطرب ــ فقد قرر أخيرا أن يتحرك مع القسم الأكبر من الحامية الفرنسية غربا ، وأن يضع نفسه تحت تصرف الجنرال « جيرو » ، وفى بنزرت استسلم للمحور ثلاثة زوارق طوربيد وتسع غواصات فرنسية ·

وفى الاسكندرية ــ حيث جرد الأسطول الفرنسى من أسلحته منذ عام ١٩٤٠ ــ لم تصل المحادثات التى جرت مع الأميرال « جوديفرى » الى اية نتيجة ، اذ ظل على ولائه لفيشى ، وأبى أن يعترف بسلطة دارلان وكان من رأيه أن الحلفاء اذا لم يستولوا على تونس ، فلن يمكنهم ادعاء تحرير فرنسا ، وهكذا ظلت سفنه معطلة الى أن تمكنا أخيرا ــ وبعد وقت طويل من الاستيلاء على تونس ، وفى داكار أذعن الحاكم الفيشى الجنرال « بواسون » لأوامر « دارلان » بوقف المقاومة فى الثالث والعشرين من نوفمبر ··· لكن وحدات الأسطول الفرنسى هناك ، أبت أن تنضم الى الحلفاء ، ولم تنضم البارجة « ريشيليو » والطرادات الثلاثة الى الحلفاء الا بعد أن تم الاستيلاء على الشمال الافريقى كله ·

لقد كانت أحداث النزول البريطانى ــ الأمريكى فى افريقية الشمالية ذات نتيجة عاجلة فى فرنسا · فالألمان منذ ديسمبر عام ١٩٤٠ قد أعدوا خطة تفصيلية كاملة لاحتلال ما تبقى من فرنسا ، وقد نفذت هذه الخطة الآن ، وكان هتلر يهدف أولا الى السيطرة على الوحدات الرئيسية للأسطول الفرنسى الموجودة فى طولون ، وكان الجنرال ايزنهاور تواقا كذلك الى أن يستولى على هذه الغنيمة العظمى فى الوقت الذى كان يتفاوض فيه مع دارلان ، وكان هذا يبعث بالرسائل الى فيشى ،···

لقد كان الألمان يتقدمون بسرعة فائقة نحو ساحل البحر المتوسط ، ويحتلون ما تبقى من فرنسا ، وقد يسر هذا التطور مهمة دارلان وأصبح

فى امكانه أن يقول – مع ثقة كل الموظفين والعسكريين فيما يقول :– ان الماريشال بيتان لم يطلق سراحه بعد ٠

وقد هزت الحركة الألمانية دارلان هزة عنيفة ، فقد غدا مصير الأسطول الفرنسى مرة ثانية – كما حدث فى عام ١٩٤٠ – فى كفة القدر وكان الاميرال هو الرجل الوحيد الذى يمكنه أن ينقذه ، فبادر الى العمل بشكل حاسم ، وأبرق بعد ظهر الحادى عشر من نوفمبر الى فرنسا يقول : ان على أسطول طولون أن يخرج الى عرض البحر ، اذا كان مهددا بالوقوع سريعا فى قبضة الالمان ٠

وقد أرغد الاميرال « أوفان » وزير بحرية فيشى أن ينضم الى دارلان ، ولكنه لم يكن فى وسعه أن يقوم بأى عمل فى وجه « لافال » وازاء موقف القادة الفرنسيين فى طولون ، وكان الاميرال – « دى لابورد » القائد العام لاسطول فرنسا فى البحر المتوسط متطرفا فى عدائه للبريطانيين ، وعندما سمع بنزول الحلفاء فى شمالى افريقية أراد أن يخرج الى جانب البحر ثم ينقض على قوافل الحلفاء وقد رفض تلبية طلب دارلان قدومه الى افريقية وقد وصل الألمان الى قطاع القاعدة البحرية الفرنسية فى الوقت الذى توصل فيه الى اتفاق لاقامة قاعدة حرة حول الميناء يتولى الجنود الفرنسيون حراستها وقد جرت محاولات لتحصين الميناء وتعزيز حاميته ، ولكن الالمان طلبوا فى الثامن عشر من نوفمبر ، انسحاب كل الفرنسيين من المنطقة وفى اليوم التالى استقال الاميرال دوفان ٠

وقد قرر الالمان القيام بعمل حاسم ضد الاسطول ، وقد قاموا به فى السابع والعشرين من نوفمبر ، ولكن بسالة عدد من الضباط من بينهم الاميرال « لابورد » نفسه مكنت من القيام بعملية تخريب جماعية للأسطول تمهيدا لاغراقه ، وبالفعل غرقت بارجة « وطرادان » وبارجتان وسبعة طرادات وتسع وعشرون مدمرة وزورق طوربيد وست عشرة غواصة بالاضافة الى مجموعة أخرى من سفن حربية تعدادها ثلاث وسبعون ٠

وبعد شهر تقريبا لقى الأميرال دارلان مصرعه حيث كان يقود سيارته الى مكتبه فى القصر الصيفى بعد ظهر الرابع والعشرين من ديسمبر وفى مدخل المكتب أطلق شاب يناهز العشرين من عمره ويدعى « بونيه‌دى‌لا شابيل » النار على الاميرال ، فأصابه اصابة قاتلة أدت الى وفاته بعد ساعة تقريبا وهو على منضدة العمليات فى مستشفى قريب ، وكان القاتل الشاب – مقتنعا منذ وقت طويل – متأثرا بحالة عقلية خاصة بأنه منقذ فرنسا من الزعامة الشريرة ، وقد حوكم أمام محكمة عسكرية بأمر من « جيرو » ، وكم كانت دهشته حينما وجد حكم الاعدام ينفذ فيه رميا بالرصاص بعد فجر السادس والعشرين من ديسمبر بقليل ٠

وهناك عدد أقل من الرجال دفع ثمنا أبهظ مما دفعه دارلان نظرا لأخطائه فى التقدير فضلا على احتياجه الى الخلق ، فلقد كان شخصية محترفة قوية ، كرس حياته كلها لبعث الاسطول الفرنسى وقد نهض به الى مركز لم يصل اليه منذ أيام الملوك الفرنسيين ، ولم يحظ بولاء الضباط البحريين فحسب ، بل انه ظفر بولاء كل العاملين فى سلك البحرية ، وكان عليه – طبقا لوعوده المتكررة – أن يأمر كل أساطيل فرنسا فى عام ١٩٤٠

أن تتجه نحو فرنسا أو الولايات المتحدة أو الموانى الافريقية أو أى مكان آخر خارج نطاق السيطرة الألمانية ، ولم تكن هناك معاهدة ما تلزمه بذلك سوى ما قطعه على نفسه من تأكيدات بمحض اختياره وكان هذا قراره وتصميمه الى أن ولاه الماريشال « بيتان » وزارة البحرية فى ذلك اليوم البشع : يوم العشرين من يونيو عام ١٩٤٠ · ومن المحتمل أن يكون قد تأثر بعد ذلك بدوافع ذات طابع ادارى ، فكرس ولاءه لحكومة الماريشال « بيتان » وتخلى عن أن يكون بحارا وأصبح سياسيا وترك المجال الذى يعرفه جيدا الى مجال آخر لا يسترشد فيه الا بما يكنه من عداوة لبريطانيا ترجع الى أيام معركة الطرف الأغر « التى قتل فيها أحد أجداده ·

وقد برهن ـ وهو فى مركزه الجديد ـ على أنه رجل جامد ، لا يزن ما يفعل بالقيم الاخلاقية ـ كما ينبغى ـ وكان الطموح هو الذى دفعه الى ارتكاب أخطائه ، وكان أفقه كأميرال لا يمتد الى أبعد من الأسطول ، كما أن آفاقه الضيقة كوزير ، كانت تترامى الى منافعه الشخصية والمحليـــة فحسب ، وظل يمثل طيلة عام ونصف العام قوة عظمى فى فرنسا المحطمة المنهوكة القوى ، وفى الوقت الذى هبطنا فيه على أرض افريقية الشمالية، كان ـ ولاشك ـ الوارث الذى لا ينازع للماريشال العجوز ، وها هو ذا يتعرض فجأة لسيل منهمر من الاحداث المذهلة ·

وقد تحدث عما مر به من صعاب ، فقد أخذت ترنو اليه كل المناطق الفرنسية فى شمالى افريقية وغربيها ، وقد خوله غزو هتلر لفرنسا فيشى « السلطة المطلقة ، كما منحه الحق فى اتخاذ قرار جديد حاسم ، وقـد حقق للحلفاء الانجليز والامريكيين الآن كل ما يطلبونه أعنى سمعة فرنسا ومكانتها العالمية وصوتها الذى يصغى اليه ضباط فرنسا وموظفوها فى هذا المسرح الواسع الذى غرق الآن فى الحرب وقد سدد ضربته الأخـيرة فكانت موجهة الى مصالحنا ··· وليس من حق اولئك الذين جنوا فائدة كبرى من انضمامه الى صفوفنا ، أن يسيئوا اليوم الى ذكراه · ويمكن للقاضى المنصف أن يقول : ان واجبه كان يحتم عليه أن يرفض محادثات الحلفاء الذين أساء اليهم فى الماضى وأن يتحداهم ليصنعوا ما يريدون به ، ويسرنا كثيرا أنه اتخذ طريقا مضادا ، وقد دفع حياته ثمن هذا ، بيـد أنه كان قد استنفد أكبر قسط من هذه الحياة ، ولم يبق له منها الكثير ، وقد اتضح آن ذاك أنه كان مخطئا حيث أنه لم يأمر الاسطول الفرنسى بالابحار الى الموانى الحليفة أو المحايدة فى يونيو عام ١٩٤٠ ، على انه كان على صواب حقا فى قراره الرهيب الثانى ، ولعل أكثر ما آلمه وحـــز فى نفسه أنه فشل فى اجتذاب أسطول طولون ، وقد أعلن دائما أن هـــذا الاسطول يجب ألا يقع فى أيدى الالمان ، لكنه أوفى بهذا التعهد أمـــام التاريخ ··· فلروحه الرحمة ، ولنحمد الله على أن الاقدار لم تشأ أن نواجه ما واجهه من امتحان عصيب تحطم تحت وطأته ··

زيارتي الثانية لواشنطن وطبرق

كان الجنرال أوكنلك – بالرغم من احساسه بقصوره عن القبض على زمام المبادرة في الصحراء – يترقب في ثقة واطمئنان هجوم العدو ، وكان قائد الجيش الثامن الجنرال « ريتشي » قد جهز تحت اشراف رئيسه مراكز دفاعية قوية تمتد من الغزالة الى بئر هاشم على مدى أربعين ميلا جنوبا وتتكون من نقط منيعة تسمى « أبراجا » وتدافع عنها ألوية وقوات أكبر منها ، وأمامها خط طويل من الالغام وقف خلفه سلاحنا المدرع والفيلق الثلاثون على أهبة الاستعداد وقد قامت الاسلحة المدرعة في بداية معارك الصحراء كلها ما عدا معركة العلمين بحركة التفاف سريعة للاجنحة الصحراوية • وفي ليلة ٢٦ – ٢٧ من مايو بدأ رومل هجومه في ضوء القمر وتقدم بكل ما لديه من سلاح مدرع ، راجيا أن يشتبك مع سلاحنا المدرع ويحطمه ، ويستولي على طبرق في اليوم الثاني من الهجوم ولكنه لم يستطع أن يحقق هذا الهدف ، وفي العاشر من يونيه أرسل الينا الجنرال أوكنلك بعد قتال باسل مرير – تقديره لخسائر الطرفين وقد أقررت أرقام الدبابات والمدافع والطائرات واعتبرتها دقيقة ولكن أذهلني البيان التالي : « وتبلغ خسائرنا من الرجال ما يقرب من عشرة آلاف بينهم ثمانية آلاف من المؤكد أنهم من الاسرى • أما خسائرنا من الفرقة الهندية الخاصة فلم تحدد بعد وهذا الفرق الكبير بين عدد القتلى والجرحى من جهة وبين عدد الاسرى من جهة أخرى يلقي شنعاعا على ما حدث مما لا يسر ويوضح أن مقر القيادة العامة في القاهرة كان لا يستطيع تقدير أهمية الحادث في بعض الجهات ولكنني لم أومىء الى شيء من هذا في ردي •

وفي اليوم الثاني عشر والثالث عشر من يونيو جرت معركة عنيفة للهيمنة على سلسلة الصخور الممتدة بين العدم وجسر الفرسان • وكانت هذه المعركة أقوى معركة للدبابات سيطر العدو بعد انتهائها على الميدان• وقد انكمشت قوتنا وضؤلت الى حد كبير وأرغمنا بعد مقاومة عنيفة على ترك جسر الفرسان الذي كان يعد مركز المواصلات في هذه المنطقة ، وفي الرابع عشر ظهر أن المعركة قد اتجهت اتجاها مضادا لنا تماما ، وأرسل الى المستر ميسي وزير الدولة في الشرق الأوسط برقية تحتوي على رسائل للقوات المسلحة وردت فيها الفقرة التالية : وأما بالنسبة الى أوكنلك فله ثقتي المطلقة لقيادته وادارته دفة المعركة بما لديه من قوات كثيرة • وكنت آمل أن يتمكن من الجمع بين منصبين في وقت واحد ، فيكون هنا في مركز نسيج العنكبوت ويكون هناك في الجبهة يدير معركة الجيش الثامن بنفسه • وقد تراءى لي في لحظات من الايام الاخيرة أنه قد يكون من الافضل أن يتوجه الى الجبهة ويدير دفة المعركة ، ويدع رئيس أركان حربه يتولى القيادة العامة هنا مؤقتا ولكنه لم يرتض هذا ، ولم

اشأ أن أضغط عليه ، لأن المعركة معركته وله الحق فى كل ما يتخذ من قرارات تتعلق بالقيادات التابعة له .

وقد أتت ملاحظة المستر كيسى على ما وراء تولى أوكنلك نفســه القيادة فى معركة الصحراء من فوائد ، معززة لاحساساتى التى أفصحت عنها للجنرال قبل شهر تقريبا . وقد اتضح لى أن القائد العام يتعرض لضغط واضطراب شديدين بسبب ما يحمله من مسئوليات كثيرة وكان فى مجال عمله يرنو الى المعركة الفاصلة على أنها جزء من مسئولياته لا غير . وكان هناك خطر زاحف من الشمال أحسن تجاهه بانه يتحتم عليه أن يمنحه أهمية كبيرة فى حين لم نعطه نحن هذه الاهمية من اننا نحتل فى الوطن مراكز تفضل مركزه فى تقرير الامور .

وقد اتخذ اجراء وسطا فكلف الجنرال ريتشى الذى توقف أخيرا عن القيام بأعماله كنائب لرئيس أركان حربه بالقتال فى المعركة الحاسمة ولـكنه فى الوقت نفسه وضـعه تحت الاشراف الدقيق المباشر مواصلا ارســال التوجيهات اليه ، ويبدو أنه لم يقتنع الا بعد حدوث الكارثة وبعد الحاح من وزير الدولة بأن يقوم بما كان ينبغى أن يقــوم به منذ البداية ، وهو أن يدير بنفســه دفة المعركة مباشرة . وهنا تلقى تبعة فشــله وبعض اللوم فيها على وعلى رفاقى لما عهدنا به الى القيــادة العامة فى الشرق الأوســط قبل عام تقريبا من مسئوليات واسعة .. وبالرغم من ذلك فقد حاولنا تخليصــه من هذه الأعباء الجمة عن طريق المشورة الدقيقة والنصيحة الصادقة التى رفضها . وانى أجزم بأنه لو تولى القيادة منذ البداية ، وكان هذا فى وسعه وداخل نطاق اختصاصه وخلف نائبا عنه فى القاهرة يصرف الأمور فى غيابه ويراقب الوضـع فى الشــمال ، ويهتم بمختلف المســارح الأخرى لكسب المعركة قطعا ، فقد اســتطاع بالرغم من تأخره فى تولى القيادة ان ينقذ ما يمــكن انقاذه منها .

وسيدرك القارىء الآن الى أى مدى أثرت فى نفسى هذه الانطباعات حتى اننى أبنت للجنــرال اليــكساندر فى تــوجيهى له فى العــاشر من اغسطس واجبه الاساسى ابانة لا تقبل المناقشة ، فالمرء يحيا ليتعلم .

وسرعان ما بدت أمامنا صــورة طبرق ، ولم نــكن نرتاب فى أنها ســتقاوم كما قاومت قبل عام مهما يكلفها ذلك من ثمن . والآن وبعد شهر مضى على التأخر الذى لا داعى له ، اصدر الجنرال اوكنلك أمره بتحرك القوة النيوزيلندية للاشتراك فى معركة طبرق ولــكن الفرصة قد فاتت ، ولم ترضــنا الأوامر التى أصدرها الى الجنرال ريتشى ، والتى لم تطلب اليه بصورة قاطعة الدفاع عن القلعة وتأكيدا لهذه النــاحية أرسلت البرقية التالية :

« لقد أبهجنا ما أكدته لنا من أنك لاتنوى التخلى عن طبرق . وقد فهمت وزارة الحرب من برقيتك ، أنك تقصد أن الجنرال ريتشى سيترك قوات كافية للدفاع عن طبرق اذا استدعى الأمر . »

وقضى الرد على ما كان يداخلنا من ريب ، وبعثت التجـربة التى مررنا بها فى العام الســابق الطمأنينة فى نفوسنا ــ والى جانب هذا بدا

مركزنا كما أومأ اليه الجنرال أوكنلك افضل مما كان عليه في عام ١٩٤١ فعندنا جيش منتشر في جبهة منيعة ، وعلى كثب من طبرق ويعتمد في تموينه على خط حديدى عريض تمت اقامته حديثا . ولم نكن الآن في وضع مجنح تعتمد عليه مواصلاتنا بصورة رئيسية على البحر ولكن كنا على هدى قواعد الحرب الصحيحة ، نستند في مؤخرتنا الى زوايا مستقيمة من الوسط تمتد من جبهتنا الى قاعدتنا الرئيسية ، وعلى هدى هذه الظروف ، وعلى الرغم من التألم لما وقع ، أحسست من استعراض كل قوات الفريقين ومن ادراك المشقة الكبيرة التى يكابدها رومل في تموينه بأن الوضع سيتحسن واحسست مع اقتراب الفرقة النيوزيلندية من الجبهة ، ومع ما ينتظر وصوله من امدادات عن طريق البحر بأن مواصلة القتال المرير بكل مالدى الفريقين من قوات سيكون في مصلحتنا أخيرا ولهذا لم الغ ما أعددته من خطط للقيام بزيارة واشنطن مرة أخرى ، حيث تنتظرنا هناك أعمال بالغة الأهمية تتعلق باستراتيجية الحرب الشاملة . وقد أيدنى ، فى ذلك كل رفاقى .

وكنت اهدف من وراء رحلتى الى الوصول الى قرار نهائى حول موضوع العمليات الحربية لعام ١٩٤٢ - ١٩٤٣ . وكانت السلطات الأمريكية على وجه العموم ، والمستر ستمسون والجنرال مارشال بوجه خاص شديدى الرغبة في وضع خطة عاجلة تمكن أمريكا من أن تصطدم مع الالمان صداما عنيفا فى البر والجو فى عام ١٩٤٢ . وكان هناك خطر اذا لم نستطع تحقيق ذلك ، فى أن يعيد أركان الحرب الأمريكيون النظر بصورة جدية وجذرية فى المبدأ الاستراتيجى الذى يقول « ألمانيا أولا » وكانت هناك قضية أخرى تثقل بالى وفكرى ، وهى قضية « السبائك الامبوبية » وهو الاسم الرمزى الذى أطلقناه على ما أصبح يسمى فيما بعد بالقنبلة الذرية . وقد وصل بحثنا العلمى وما يصاحبه من تجارب الى نقطة تتطلب اتفاقا واضحا محدودا مع أمريكا وليس فى الوسع الوصول الى مثل هذا الاتفاق الا عن طريق محادثات مباشرة بينى وبين الرئيس . ولا ريب فى أن سماح وزارة الحرب لى بمغادرة البلاد وخاصة لندن مع رئيس أركان حرب الامبراطورية والجنرال أيسماى فى الوقت الذى بلغت فيه معركة الصحراء أشدها يشير الى ما كنا نعلقه من اهمية على ضرورة تسوية هذه القضايا الاستراتيجية الهامة والخطيرة بالنسبة الينا .

ولما كانت الأوضاع حرجة وخطيرة فى هذه الأيام العصيبة قررت السفر بطريق الجو لا بطريق البحر . وهذا يعنى أن نظل فى عزلة عن كل مصادر الأنباء مايقرب من أربع وعشرين ساعة ، ولكنى اتخذت اجراءات ايجابية لارسال الرسائل الواردة من القاهرة الى فورا ، ولحل كل مايرد من تقارير رمزية ونقلها الى دون أى تأخير ضار فى اتخاذ ما يلزم من قرارات .

وعلى الرغم من معرفتى بما مررنا من مخاطر اثناء رجوعنا من برمودا فى يناير الماضى ، فقد كانت ثقتى بالقائد الأول روجرز وبسفينته الطائرة « بوينج » كبيرة ، ودفعنى هذا الى أن أطلب اليه أن يقوم هو بنقلى الى أمريكا وقبيل منتصف ليلة السابع عشر من يونيه تركنا ستانرير ، وكان القمر بدرا والجو بديعا . ومكثت ما يقرب من ساعتين

في مقعد مساعد القائد أتمتع بمشاهدة البحر المشرق ، وأتأمل مشكلاتي وأتخيل المعركة القلقة الدائرة ، وتمتعت بنـوم هادىء حتى الصبـاح حينما كنا فـوق جاندر وكان فى امـكاننا أن نهبط فى مطـارها لنتزود بالوقود ، ولـكن القائد لم يرحاجة لذلك فواصلنا السفر بعد أن حيينا المطار التحية المعروفة .

ولما كنا نطير مع الشـمس فقد ظهر لنا النهار طويلا . جدا حتى اننا تناولنا الغداء مرتين بين المرة والاخرى ست ساعات . واما العشاء فقد تخيلنا اننا سنتناوله فاخرا بعد وصولنا .

وفى نهاية الرحلة طرنا ساعتين فوق الأرض وكانت الساعة السابعة مسـاء بتوقيت أمريكا حينما دنونا من واشنطن وبينما كنا نهبط فوق نهر بوتوماك ، شاهدت قمة تمثال جورج واشنطن التى ترتفع ما يقرب من خمسمائة وخمسـين قدما على المسـتوى الذى ترتفع فيه طائرتنا وقلت للقـائد كيلي روجرز سـيكون من سوء الحظ أن تنتهى قصتنا بالاصطدام بهذا التمثال دون غيره فأكد لى أنه سيحرص الا يصطدم به وهكذا هبطنا بيسر وسهولة على نهر البوتوماك بعد رحلة جوية استغرقت سـبعا وعشرين سـاعة من الطيران . وقد احتفى بنا اللورد هاليفاكس والجنرال مارشال وعدد من كبار الضباط الأمريكيين .

ولما كان الوقت قد تأخر وتعذر على مواصلة السفر فى تلك الليله ذهبت الى السفارة وتناولنا العشاء هناك فى الهواء الطلق وقرات آخر البرقيات فلم أجد بها شيئا مهما . ولا شك فى أن السفارة البريطانية التى تقوم على أرض مرتفعة تعد من اشد الاماكن فى العاصمـــة برودة وتضاهى الى حد بعيد من هذه الجهة البيت الأبيض .

وفى صباح اليوم التالى التاسع عشر طرت الى هايد بارك . وكان الرئيس روزفلت ينتظرنى فى المطار المحلى ، وشاهد هبوطنا الشاق وقد احتفى بى كل الاحتفاء ، ثم قاد بنفسه السـيارة التى ركبت معه فيها الى المرتفعات الشامخة المشرفة على نهر الهوسون ــ والتى توجد فوقها هايد بارك ، حيث مسكنه العائلى ، وطاف بى الرئيس كـــل جهـــات المزرعة لاشاهد مناظرها الجذابة ، وخـــلال هذا التطواف راودتنى بعض الافكار • فالعاهة التى يشكو منها الرئيس روزفلت تمنعه من ان يستخدم قدميه فى اجهزة السيارة، ولهذا اتخذت استعدادات رائعة فى السيارة تسهل له القيام بـكل شىء بيدية القويتين بشكل مدهش . وقد دعانى لاختبار عضلاته وقال أن احد المصارعين المشهورين حسده عليها .

وكانت هذه العضلات القوية تدعـــو الى الطمأنينة ، ولكنى كنت ادعو الله ، عندما كانت السيارة تقف وتنزلق الى الخلف وتشرف على حافة الهاوية المنحدرة الى نهر الهوسون ، الا يحدث اى خلل فيما كان يعتمد عليه فى ادارة كل اجهزة السيارة بيديه بدلا من رجليه وكنا نتحدث طول الوقت فى شئون العمل • بالرغم من اننى كنت حريصا كل الحرص على الا أصرف انتباهه عن قيادة السـيارة فقد أحرزنا تقدما فى مباحثاتنا اكثر مما يمكن أن نحرزه فى مؤتمراتنا الرسمية .

وقد سر الرئيس اننى احضرت معى رئيس اركان حـرب القوات

الامبراطورية وكانت ذكريات الشباب تشرق على مايهتم به من نواح فقد استضاف والد الرئيس والد الجنرال بـروك فى هايد بارك . ولذا كان شديد الشوق الى لقاء الولد الذى بلغ هذا المركز المرموق · وحينمـــا تقابلا لاول مرة بعد يومين ، استقبله بود بالغ ، واستطاع الجنـــرال بروك بشخصيته وجاذبيته أن يخلق صــلة بينهما ساعدت كثيرا على سير الأعمال .

وقد أحطت هارى هوبـكنز خبـرا بمختلف النقط التى أرغب فى الحصـــول على قرارات بشـــأنها ، ونقلها هو للرئيس . وهـكذا غدت الارض معبدة ، وأصبح الرئيس يلم عقله بـكل ما يمكنه من بحث هـذه الموضوعات ، وكان موضوع السبائك الأنبوبية من أشد هذه الموضوعات تعقيدا ، ومن أكثرها أهمية كما ثبت فيما بعـد ، وكنت أحمل أوراقى معى ولـكن البحث أرجىء لليوم التـــالى ، لأن الرئيس كان قـد طلب امداده بمعلومات أوفى من واشنطن . وفى غرفة صغيرة تبرز وحدها من الأرض ، وتكسوها ظلال للوقاية من وهج الشمس ، جرى الحديث بيننا بعد الغداء · وكان المستر روزفلت يجلس الى مكتب فى حجـــم الغـرفة تقريبا · وكان هارى يقوم ويقعد فى المؤخـــــرة وظهر لى ان صاحبى الأمريكيين لم يهتما بالحرارة كثيرا .

وأنبأت الرئيس فى عبارات عامة بماأحرزناه من سبق فى هذاالميدان وأن علماءنا أصبحوا الآن مقتنعين بامكان الوصول الىنتائج قبل ان تضع الحرب الحالية أوزارها . وقال الرئيس أن جماعته ماضون فى عملهم كذلك .

ولـكن ليس فى طاقة اى شخص أن يعرف ما ستتمخض عنه هذه البحوث من شىء عملى قبل أجراء تجربة واسعة النطاق . وشـــعرنا معا بالألم لخطورة قعودنا عن عمل شىء . وكنا نعلم ما يبذله الألمان من جهود لاستخراج كميات من « المياه الثقيلة » وهو تعبير مشئوم ومرعب وغير عادى أخذ يتسلل الى أوراقنا السرية . فماذا يحدث لو استطاع العدو أن يســبقنا الى القنبلة الذرية ومهما شـعر الآن بالتشكك فيما يؤكده العلماء الذين يفرطون فى الجدال والنقاش فى تعـــابير ليست فى مســـتوى عقول الناس العاديين فليس فى طاقتنا أن نخاطر بالســـماح للعدو بأن يسبقنا فى هذا الميدان الرهيب وحضضت الرئيس على ضرورة الجمع بين معلوماتنا ، والعمل على قدم المساواة والاشتراك فى النتائج أن وجدت ·

وهنا بدا السؤال عن المكان الذى يجب أنينشأ فيه مركز البحوث وكنا نعلم تمام العلم مايجب أن نتحمله من تكاليفباهظة ، وماقد يشتمل عليه تحويل مواردنا وقوتنا العقلية من ميادين المجهود الحربى الأخرى من خطورة . وقد بدا من المستحيل انشاء هذه المصانع الكبيرة والعجيبة التى نفتقر اليها فى جزيرتنا ، حينما كانت بريطانيا تتعرض لوطأة الضرب من الجو ، والرحلات الاســتكشافية المضـــادة . وكنا نرى أننا قطعنا شــوطا بعيدا فى الميدان الذرى مثل حليفتنا ، وكان هناك افتراض آخر وهو أن ننشىء المصانع فى كندا التى يمكنها أن تشـــــارك هى الأخرى مشـــــاركة فعلية فى هذا الميدان عن طريق كميات كبيرة من معـــدن

الأورانيوم التى جمعتها ، وكان من العسير جدا أن تتخذ قرارا بصرف مئات من ملايين الجنيهات الاسترلينية بالاضافة الى اشكال الطاقة الحربية المختلفة على مشروع لا يمكن أن يضمن نجاحه أى عالم من العلماء على ساحل الاطلنطى وبالرغم من ذلك فاننا كنا سنقوم وحدنا بالمغامرة ـ اذا لم يكن الأمريكيون متأهبين للقيام بها ـ فى كندا أو فى أى جزء من اجزاء امبراطوريتنا عندما تتردد الحكومة الكندية أو تتخوف ولكننى فرحت بالغ الفرح حين أنبأنى الرئيس روزفلت أنه يعتقد أن أمريكا يمكنها المضى فى المشروع • ولهذا قررنا الاشتراك ووضعنا أساسا للاتفاق • وسأتم هذه القصة فى فصل تال ولا ريب عندى الآن فى أن ما احرزه علماؤنا فى بريطانيا من تقدم ، ومن ثقة فى النجاح النهائى وعما ما صرحت بهما للرئيس هما اللذان حملاه من الجهة الأخرى على اتخاذ هذا القرار .

وفى ساعة متأخرة من ليلة العشرين اقلنا قطار الرياسة الى واشنطن ؛ وبلغناها فى الساعة الثامنة تقريباً من صباح اليوم التالى وصاحبتنا قوات حراسة كبيرة الى البيت الأبيض ، ونزلت ضيفا مرة أخرىفى الغرفة الكبيرة المكيفة الهواء التى كنت قد أقمت واسترحت فيها ، والتى تنخفض درجة حرارتها عن درجة حرارة بقية غرف البيت الأخرى ثلاثين درجة على الأقل وطالعت الصحف وامضيت ساعة فى قراءة البرقيات ، ثم تناولت فطورى ، ومررت بهارى فى حجرته عبر الممر ، ثم ذهبت للقاء الرئيس فى مكتبه وكان يصاحبنى الجنرال ايسماى وسرعان ما وردت برقية الى الرئيس وناولنى اياها دون أن ينطق بكلمة وكانت البرقية تقول :

استسلمت طبرق ، واسر خمسة وعشرون الفا من حاميتها »

ولم استطع أن اصدق الخبر لغرابته ، وطلبت الى ايسماى أن يتحرى صحته من لندن بالمسرة • وبعد دقائق رجع يحمل الرسالة التالية التى ارسلها من الاسكندرية قبل قليل الأميرال هاروود القائد العام الجديد لأسطول البحر المتوسط ، وهذا نص الرسالة :

« سقطت طبرق ، وتدهور الوضع تدهورا كبيرا بحيث أصبح هناك توقع لحدوث غارات جوية عنيفة على الاسكندرية فى القريب العاجل ، ولما كان البدر قد اقترب ، فقد قررت ارسال كل وحدات الاسطول الى جنوب قناة السويس لترقب الاحداث • أرجو أن تخرج الملكة اليزابيث من ارصفة التصليح فى آخر هذا الأسبوع .

وكانت هذه الضربة من أعنف ما تلقيناه من ضربات منذ قيام الحرب • ولم يكن تأثيرها على النتائج العسكرية المؤسفة وحدها بل تجاوزها الى التأثير على سمعة الجيوش البريطانية تأثيرا بالغا . ففى سنغافورة استسلم خمسة وثمانون الف رجل لعدد اقل منهم من اليابانيين ، وها نحن اولاء نرى فى طبرق حامية مكونة من خمسة وعشرين ألف رجل (فى الواقع ثلاثة وثلاثون ألف رجل) من خيرة الجنود المدربين تستسلم لعدد أقل من نصف عددهم واذا كان هذا هو تمثال الروح المعنوية لدى جيش الصحراء ، فليس فى طاقتنا أن نتكهن بالنوازل التى ستحل بنا فى الشمال الشرقى لافريقية . ولم ارد أن

اخفى عن الرئيس صـــدمتى وكانت اللحظة شديدة المرارة . فالهزيمة شىء والعار المعيب شىء آخر . ولم يكن هناك عطف ونبل يفوقان عطف ونبل صديقى الأمريكى فلم تصدر منه كلمة لوم أو عبارة نابية وتساءل روزفلت : « ماذا يمكننا أن نصنع لمعاونتكم ؟ قلت فورا » امنحونا اكبر عدد يمكنكم الاستغناء عنه من دبابات شيرمان وانقلوها فى غاية السرعة الى الشرق الأوسط .

وبعد وصول الجنرال مارشال استدعاه الرئيس وابلغه مـــا اريده فأجابه مارشال : « سيادة الرئيس ، لقد بدأ انتاج دبابات شيرمان منذ وقت قريب وقد أرسلنا بعض المئات الاولى من انتاجنـــا الى فرقتنـــا المدرعة التى كانت لاتزال تستعمل ســــلاحا فقد أهميته ومن الشناعة ياسيدى ان نأخذ من يد الجندى عنوة سلاحه الذى يحمله ، وبالرغـــم من ذلك فاننا سنعطى البريطانيين ما عندنا من هذه الأسلحة اذا كانوا فى حاجة ماسة اليها ، ويمكننا امدادهم بمائة مدفع أتوماتيكى أخرى من عيار مائة وخمسة ملليمترات .

ولاتمام هذه القصة يتحتم أن أقول : ان سخاء الأمريكيين حملهم على ان يرسلوا الينا اكثر مما وعدوا به . فقد عبئوا لنا فورا ست بواخر من أسرع بواخرهم بثلاثمائة دبابة شـــيرمان ومعها آلات لم يجر تركيبها بعد ، ومائة مدفع أتوماتيكى وارسلوها الى قناة السويس وقد قذفت غواصة المانية الباخرة التى تحمل آلات الدبابات كلها بطوربيد على كثب من ساحل برمودا فأغرقتها وأمر الرئيس ومارشال ، دون أن يدفعنا الى أن نطلب طلبا جديدا ، بتعبئة باخرة أخـرى بهذه الآلات ، وفى الحـال أرسلت لتدرك القافلة ، وهكـــذا يجب أن يكون الصديق عند الازمـــة والاقلاء .

وفى الحادى والعشرين من يونيه كنت أتنـــاول الغداء مع هارى ، وقد قـــال لى الصديق : « هناك ضابطان أمريكيان فى الجيش ، يريد الرئيس أن يتعرف اليهما ، لان الرئيس ومارشال ، وكل من يشـــتغل فى وزارة الحربية ، يقدرونهما غاية التقدير » . وفى الســـاعة الخامسة من بعد ظهر ذلك اليوم استقبلت فى حجرتى المكيفة الهواء كلا من الميجور جنرال ايزنهاور ، والميجور جنرال كلارك . وسرعان ما تأثرت فعلا بهذين الجنديين اللذين لم يكونا معروفين حينئذ .وكانا قد حضرا فور اجتماع الرئيس بهما للمرة الأولى . وقد تناول حديثنا عملية الغـزو الرئيسى عبر القناة عام ١٩٤٣ ؛ وما أطلقنا عليه حينئذ « عملية الطـــراد » وهو الموضوع الذى ركزا فيه اهتمامهما ، واســـتغرق الحديث الممتع بيننـــا ما يقرب من ســـاعة . واعتقدت أن هذين القائدين ســـيؤديان فى هذه العملية دورا كبيرا . وهذا هو ما دفع الى ارســـالهما للتعـرف الى . وهكذا بدأت صداقتنا التى احتفظت بها حتى يومنا هذا بمزيد من الرضا بالرغم من انتكاسات الحرب وانتصاراتها ، وفى خلال ذلك كانت أصداء اســــتسلام طبرق تتردد بين أرجاء العـــالم ونـــواحيه . وفى الثانى والعشرين تناولت الغداء أنا وهوبـكنز مع الرئيس فى حجرته . وقدم المستر المورديفيز ، رئيس دائرة الاستعلامات الحربية ومعه مجموعة من صحف نيويورك تحمل عناوين مثيرة مثل : « الغضب يسود بريطانيا » و « سقوط طبرق قد يدفع الى تغيير الحكومة » و « توجيه اللوم الى

تشرشل » ، وغير ذلك من العنـاوين . وقد دعاني الجنرال مارشـال لزيارة احد المعسكرات الامريكية في جنوب كارولينا · وقد تقرر ان نبدأ نحن والمستـر ستمسـون رحلتنا بالقطار ليلة الثـالث والعشرين من يونيه ، وهنا سألني المستر ديفيز في جد السؤال التالي : هل من الحكمة بالنسبة الى الوضع السياسي في الوطن أن أنفذ البرنامج الذي اتخذت كل الترتيبات الدقيقة لتنفيذه ؟ وقال : أخشى أن يساء تفسـير هذه الزيارة التي أقوم خلالها بتقصي أحوال الجنود الأمريكيين في وقت تجرى فيه قضـايا نتائجها بالغة الخطورة في افريقية ولنـدن . فأجبته بأنني سـأمضي في البرنامج ، وجزمت له بأنني أرتاب في أن تستثير مثل هذه الزيارة عشرين عضـوا من أعضـاء مجلس العمـوم للاقتراع على عدم الثقة بالحكومة · وهذا الرقم في الواقع هو الرقم الذي وصل اليـه الساخطون على الحكومة .

وهكذا قضيت رحلتي بالقطار الى جنوب كارولينا في الليلة التالية وفي الصـباح التالي بلغنا قلعة جاكسـون . ولم يقف القطار في محطة رسمية الا في السهل الواسع · وكانت الحرارة مرتفعة جدا في النهار · وغادرنا القطار الى ساحة العرض التي ذكرتني بسهول الهند في فصل الصيف الشديد الحرارة ، وذهبنا الى خيمة مسقوفة حيثابصرنا منها السـلاح الأمريكي المدرع ، ووحدات المشاة وهي تمر أمامنا ، ثم رحنا ننظر الى تمرينات رجال المظلات ، وقد كان المشهد مؤثرا ، فلم أشهد في حياتي قبل ما يقـرب من الف رجل يثبون في الجـو دفعة واحدة . وناولني جهاز مسرة متنقل لأحمله ، وكانت هذه أول مرة أحمل فيها مثل هذا الجهاز . وبعد الظهر شـاهدنا الفرق الأمريكية الضـخمة ، تتدرب في الميدان بالذخيرة الحية · وفي النهاية قلت لمـرافقي الجنرال أيسمان : «ما رأيك في كل ما شاهدت ؟» فأجاب : ان دفع دفع مثل هؤلاء الجنود في معركة مع الألمان يعتبر جريمة قتل « فقلت : » انك مخطيء . انهم خامة عظيمة صالحة وسيتدربون بسرعة « . وقد ظللت ألح على أصدقائي الأمريكيينبأن اعداد الجنديمهمة تستغرق سنتين على الأقل · ولاشك في أن الجنود الذين شاهدناهم في كارولينا قد تدربوا عامين على الحرب .

وبعد ظهر الرابع والعشرين طرنا عائدين الى واشـنطن ، وهناك تلقيت عدة تقارير ، وفي الليلة التالية غادرتها الى بليتمور ، وهناك كانت سفينتي الطائرة تنتظرني . وقد ودعني الرئيس في البيت الأبيض بكل ماعهدته فيه من دمائه ورقة ، ورافقني هـادي هوبكنز هاري وافريل هاريمان الى بليتمورليودعاني هناك·وكان الطريق الضيق الموصل الى الماء تحرسه قوات كبيرة من رجال الشرطة الامريكيين · واتضح لي ان هنـاك اضطرابا ، وارتسمت على وجه الضابط أمارات الجد والاهتمام البـالغين وقيل لي قبل أن نحلق في الجو أن احد الخـفراء المدنيين قد اعتقـل وهويعبث بمسدس في يده يتلعثم قائلا : انه سيجهز علي ، على وجهه أمارات البغض والكره · وحينما بدا استجوابه اتضح أن الرجل مجنون ومثل هؤلاء المجانين يخشى على الشخصيات الكبيرة منهم لأنهم لا يأبهون بالنجاة أو بالخلاص .

وفي صباح اليوم التالي هبطنا في مطار بوتود للتزود بالوقـود ،

ثم حلقنا فى الجو بعد أن تناولنا وجبة من الاصماك الطازجة • وبعد ذلك تناولت الوجبات فى مواعيدها المعهودة ونمت نوما عميقا . وجلست فى مقعد مساعد الطيار ، وبعد أن حلقنا فوق شمال ايرلنده ، دنونا من كلايد عند الفجر ، وهبطنا بسلام وأمان . وكان القطار فى انتظارى . وفيه بيك أحد أمناء سرى الخاصين ، ومعه بعض الملفات وصحف الايام الاربعة أو الخمسة الاخيرة . وبعد ساعة كنا فى طريقنا صوب الجنوب . واتضح أننا خسرنا انتخابا فرعيا بأكثرية ساحقة فى مالدون ولا ريب أن هذه الخسارة كانت احدى نتائج طبرق .

واتضح لى أن الظرف سيىء للغاية • وتوجهت الى فراشى ، وبدأت اطلع على الملفات بعض الوقت ، ثم نمت نوما عميقا مدة أربع ساعات أو خمس حتى بلغنا لندن ، وكان النوم جميلا للغاية . وهناك على رصيف المحطة وجدت اعضاء وزارة الحرب فى انتظارى ، وسرعان ما كنت فى غرفة مجلس الوزراء غارقا فى العمل .

الاقتراع على الحكومة

لقد كان لثرثرة الصحافة وانتقاداتها التي صدرت من اقلام لاذعة تكتب ومن اصوات رفيعة تعلو ، بعض اصداء متشابهة فى نشاط عدة عشرات من أعضاء مجلس العموم ، وفى كآبة وعبوس ممثلى الأغلبية الكبيرة التى نتمتع بها .. ولن تبقى الحكومة فى الحكم فى هذه المرحلة اذا كانت حزبية ، وستسقط نتيجة خذلانها فى الاقتراع على الثقة أو بتأثير هذه الازمة العنيفة التى أثرت على الراى العام كله والتى ضاهت تلك التى اجبرت المستر «تشمبرلين» على الاستقالة فى مايو عام ١٩٤٠ بيد أن الحكومة القومية الائتلافية ، التى عززها ماجد عليها من تعديل فى فبراير ، كانت متفوقة فى قوتها ووحدتها . وقد احاط بى كل وزرائها دون أن يداخلهم أى ريب او انتقاض ، وقد اتضح لى أننى احتفظت بثقة كل المراقبين لسير الاحداث والمطعين على بواطنها والمشتركين فى مسئولياتها ، ولم يمس أحدهم وهن أو ضعف ، ولم تنبعث همسة واحدة توحي بالريب أو بالوقيعة ، بل كنا كلنا حلقة متماسكة قوية لا تنفصم عراها نستطيع أن نقاوم أى هجوم سياسي يشن علينا من الخارج ، وأن نحافظ على وحدتنا تجاه القضية المشتركة برغم كل فشل وخيبة رجاء .

وقد مررنا بسلسلة طويلة من المحن والهزائم فى الملايو وسنغافورة وبورما ومعركة أو كتلك الخاسرة فى الصحراء ، وطبرق التى لم ندركها بعد » والتى ربما لا ندركها ابدا ، وتقهقر جيش الصحراء السريع ، وفقد كل ماسبق لنا الاستيلاء عليه فى ليبيا وبرقة، اربعمائة ميل من الانسحاب الى حدود مصر ، وقد قتل واسر من رجالنا اكثر من خمسين ألفا ، وفقدنا كميات كبيرة من المدافع والذخائر والسيارات والمستودعات المتعددة الانواع ، وها نحن أولاء قد رجعنا الى مرمى مطروح •• وهو المكان الذى حللنا به قبل عامين مع فارق واحد هو : أن رومل وجنوده الألمان يتغلبون علينا الآن ، ويضغطون علينا مستخدمين سياراتنا التى سقطت فى أيديهم وبترولنا الذى استولوا عليه ، ويقذفوننا احيانا بذخائرنا • ولو كتب لهم ان يتقدموا مسافة أخرى ويظفروا بنصر واحد

فحسب ، فان موســولينى وروميل ســوف يدخلان القاهرة او مابقى من أنقاضــها ... فكل شيء مافتيء معلقا فى كف القدر ، وكيف يستطيع الانسان بعد ما منينا به من انتكاسات وازاء عوامل الغيب التى تقابلنا أن نتكهن بالصورة التى سيتحول فيها الميزان ؟ ..

لقد اســتدعى الوضع البرلمانى تحديدا جليا ، وكان من العسير علينا أن نطلب من المجلس أن يقترع مرة أخرى على الثقة بحكومتنا ، بعد ذلك الاقتراع الذى ظفرنا به قبيل سقوط سنغافورة ، لهـــذا كان من مصلحتنا تقرير الاعضاء الناقمين فى الخـامس والعشرين من يونيو فيما بينهم ، توجيه قرار باللوم الينا ، يضمنونه جـــدول الاعمال ، ويطلبون الاقتراع على هذا القرار ، وهذا هو نص القرار :

« يقرر المجلس برغم تقديره لما اظهرته قوات التاج المســلحة من بسالة ومقاومة فى أوقات بالغة العنف والصعوبة — عدم الثقــة بالجهاز المركزى الذى يدير دفة الحرب »

وقد وقع مشروع القرار السير « جونووردلو — ميلن » وهو احـد الأعضــاء الذين لهم نفوذ فى حزب المحافظين ، ورئيس لجنة الشــئون المالية التى تضم أعضاء يمثلون مختلف الاحزاب التى كنت أدرس بعناية كبيرة تقاريرها عن تبذير بعض الادارات ، وعدم كفايتها ، وكان للجنة الكثير من مصــادر المعلومات التى فى حوزتها ، كما كانت لها اتصالات كثيرة بالحلقة الخـــارجية لجهـــازنا الحربى ، وحين أعلن ثنــاء أمـــيرال الأسطول « روجركيسى » على مشروع القرار وأن وزير الحربية السابق لستر « هور بيشا » يعضده بان لنا على الفور .أن هناك تحديا حقيقيا للحكومة ، ولقد كان الهمس يدور خلف الكواليس ، كما كانت الصحف تتكلم عن « أزمة سياسية منتظرة » قد تكون حاسمة ..

وقد أعلن على الفور ان الحكومة مستعدة لأن تمنح المجلس الفرصــة التامة لاجراء مناقشة وحددت الاول من يوليو موعداً لهـــا . وأحسست ان واجبى أن أعلن شــــيئا واحدا على الاقـــل ، فأبرقت الى « اوكنلك » اقـــول : « أرى من اللازم حين اتحـدث الى المجلس عنـد مناقشة قرار لوم الحكومة فى الســاعة الرابعة بعد ظهر الخميس — آن اعلن انك تسلمت القيادة من « ريتشى » بعد أن نحيته عنها فى الخامس والعشرين من يونيو » .

وكانت أزمة المعركة فى مصر تتفاقم وتزداد سوءا يوما اثر آخر ، حتى لقد انتشر الاعتقاد بأن القاهرة والاسكندرية سوف تسقطان عمـا قريب أمام « سيف روميل القهار » وقد اعد موسولينى فعلا العـدة ليطير الى مقر قيادة روميل وهو مصمم على أن يشترك فى الدخول الظافر الى اى من هاتين المدينتين وظهر لى اننا سنبلغ القمة فى معركتى البرلمـــان والصحراء فى وقت واحد ، وحينما ظهر لأندادنا انهم سيواجهون حكومتنا الأئتلافية — وهى متحدة تبخر معظم حماستهم وعرض صاحب الاقتراع سحبه ، اذا استدعى الوضع الحرج فى مصر عدم اثارة مناقشة عامة فى الموضوع ، ولكننا قررنا الا نمكنهم من الفرار فى يسر وسهولة ، ولما كنا نرى العالم كله يرقب فى الاسابيع الثلاثــــة الاخيرة فى قلق . أزدياد

التوتر فى الموقفين السياسى والعسكرى : فقد راينا من العسير علينا أن نمضى الى آخر الطريق .

***

لقد بدأ السير « جون ووردلو – ميلن » المناقشة بخطاب قوى ، بسط فيه القضية الرئيسية فقال : يجب ألا يعد الاقتراح هجوما على الضباط الذين يحاربون فى الميدان ، وانما هو هجوم على « ادارة الحرب المركزية» هنا فى لندن وأرجو أن أبدى أن عوامل فشلنا قائمة هنا ، لا فى ليبيا ولا فى غيرها ، وكان الخطأ الأول الذى ارتكبناه فى هذه الحرب هو الجمع : بين منصبى : رياسة الوزراء ووزراء الدفاع . وقد ركز على ما يحمله من يتولى هذين المنصبين فوق كاهله من أعباء ضخمة ثم قال : « يجب أن يكون لنا قائد قوى متفرغ يتقلد رياسة لجنة رؤساء الحرب أريد رجلا قويا يمكنه أن يطلب الاسلحة التى يفتقر اليها لتحقيق النصر أريد رجلا يتحمل مسئولية الفروع الثلاثة لقوات التاج المسلحة أريد رجلا قويا يمكنه أن يطب الاسلحة التى يفتقر اليها لتحقيق النصر وأن يضمن تحرر جنرالاته وأميرالاته وما ريشالات الجو فى تنفيذ أعمالهم على الوجه الذى يرونه ، ولا يسمح للاخرين بالتدخل فى شئونهم وفضلا على ذلك أريد رجلايقبل على الاستقالة اذا لم يمكنه انينفذ ما يريد .. وقد عانينا من الاضطرار الى قيام رئيس الوزراء بتمحيص ما يجرى هنا حقا فى الوطن .. ومنالاحتياج الىما يجب أن نحصل عليه من توجيهمن وزير الدفاع أو من أى ضابط مهما كان اللقب الذى يمنحه بتولى مسئولية القوات المسلحة ، ولاشك فى أنه قد ظهر لكل مدنى أن سلسلة الكوارث التى منينا بها فى الأشهر القلائل الاخيرة بل فى السنتين الأخيرتين ، انما هى نتيجة للعيوب الأساسية فى الجهاز المركزى لادارة دفة الحرب فى بلادنا » .

لقد خلف كل ما قاله السير « جون » أثره واصاب هدفه ، لكنه لم يلبث ان ارتكب جريرة كبيرة حينما قال : « أرجو ان تكون خطوة مرغوبا فيها ، موفقة اذا ما أقر جلالة الملك وصاحب السمو الملكى أن يتولى الدوق « جلوستر » القيادة العليا للجيش البريطانى على الا تكون له صلاحيات ادارية ، وقد كان هذا الاقتراح مضرا أفدح الضرر بالقضية التى عرضها ، كما انه ادى الى الزج بالأسرة المالكة فى خضم مسئوليات قابلة للمناقشات والمتناقضات .... وكان تعيين قائد أعلى للحرب ، يمنح صلاحيات غير محدودة ، وربط هذه الصلاحيات بدوق ملكى ، يعد أمرا يوحى بشىء من الدكتاتورية ، وهكذا بدا بيانه الطويل المطنب يفقد منذ ذلك الوقت تأثيره وقوته واخيرا وصل السير جون الى القول بأنه « على المجلس أن يظهر افتقارنا الى شخص واحد يخصص وقته كله لقضية : « كسب الحرب » ، ويتقلد القيادة الكاملة لكل قوات التاج المسلحة » .

وحينما نظفر بهذا الرجل ، ينبغى على المجلس أن يمده بأسباب القوة وبدعمه وييسر له سبيل ممارسة واجباته الملقاة على عاتقه ، فى قوة واستقلال واضحين .

وقد اثنى السير روجركيس على الاقتراح فى حين تألم الأميرال

من اقالته من مركزه كمدير للعمليات المشتركة ومن الحقيقة الواقعة أنني لم أستطع قبول مشورته والاصاخة الى رأيه دائما حينما كان يشغل هذا المنصب ، بيد أن صداقته الشخصية الطويلة لى كانت نقطة ضعف فى موقفه هذا ، لذا فقد ركز انتقاداته وحملته على مستشارى الخبراء وخاصة رؤساء أركان الحرب ، فقال : من المؤلم حقا ان يمنى رئيس الوزراء فى حياته ثلاث مرات بالفشل كما حدث له : «جاليبولى» « والنرويج » والبحر المتوسط وأن يعجز عن تسديد ضربات استراتيجية كان مقدرا لها أن تغير مجرى الحربين واتجاهاتهما : وذلك أن مستشاره البحرى الدستورى « أبى فى المرات الثلاث أن يتحمل معه المسئولية ويشاطره اياها – اذا كانت تحتوى على أية مجازفه .. ولم يمر هنا التناقض العجيب بين رأى صاحب الاقتراع ورأى المثنى عليه دون أن يلاحظه الجميع وقد تدخل نائب من حزب العمال المستقل هو : المستر ستيفن فأومأ الى ان صاحب الاقتراح ، أراد توجيه اللوم على اساس أن رئيس الوزراء جاوز حده فى ادارة دفة الحرب ، فى حين نرى من أثنى على الاقتراح يقول : ان الرئيس لم يتدخل تدخلا كافيا فى توجيه هذه الدفة .. ولقد كانت هذه النقطة جلية لكل أعضاء المجلس .

وقال الاميرال كييس « : اننا نرنو الى رئيس الوزراء طالبين اليه تنظيم وزارته أولا وأن يجمع كل الشعب خلفه ثانيا لأداء الواجب العظيم « . وهنا تدخل أحد النواب الاشتراكيين تدخلا موفقا صائبا فقال : ان الاقتراح موجه ضد « الادارة المركزية » لدفة الحرب ، فاذا أقر المجلس الاقتراح ، فعلى رئيس الوزراء ان يستقيل ، فى حين نرى العضو الموقر الشجاع ، يناشد المجلس الابقاء على رئيس الوزراء ، فرد السير روجر قائلا : لا شك فى أنها ستكون كارثة تثير كوامن الألم اذا اضطر رئيس الوزراء الى الاستقالة ، وهكذا تضعضعت المناقشة فى بدايتها .

وبالرغم من ذلك استمرت المناقشة وقبض الناقدون على زمام المبادرة وقام وزير الانتاج الجديد ، الكابتن أوليفر ليتلتو ، حين قام يرد على ما وجه الى العتاد من انتقادات فذكر فقرة عاصفة من بيانه المستفيض المفصل الذى تناول ،فيههذهالناحية ،وقدلقيت الحكومة مؤازرة قوية من صفوف المؤيدين الخلفيين وقدالقى المستر بوثبى بصورة خاصة خطابا قويا مؤيدا واسترد اللورد دينترتون – وهو الملقب « بأبى المجلس » – زمام الهجوم العنيف ، وركز هجومه على فقال : من الوزير المسئول الذى أدار عملية « نارفيك » وكان الرأس المحرك لكل عملياتها؟ انه الرئيس الحالى لوزارة الذى كان وقتذاك وزيرا للبحرية ... ولكن لن يجرؤ أى – عضو من الاعضاء على القاء التبعة على الشخص الذى ينبغى القاؤها عليه من الناحية الدستورية ، وهو : « رئيس الوزراء » . واذا كنا سنتلقى الرد نفسه باستمرار وهو : « عدم الانحاء باللائمة على رئيس الوزراء مهما حدث » .. فاننا نكون قد دنونا كثيرا فكريا ومعنويا من الشعب الألمانى الذى يقول : « ان الفوهرر لا يخطىء .. » ولم اشهد طوال السبعة والثلاثين عاما التى أمضيتها فى هذا المجلس، محاولات مثل ما نشهده اليوم من محاولات لتخليص رئيس الوزراء من المسئولية الوزارية .. ولم يحدث أن مرت بنا فى الحرب السابقة سلسلةمتلاحقة

من النوائب كما مربنا فى هذه الفترة ،.. وبالرغم من ذلك تنجو الحكومة لأن الفوهرر لا يخطىء ... ونحن جميعا متفقون على أن رئيس الوزراء كان هو القائد الموجه لبسالتنا وصمودنا أبان عام ١٩٤٠ ، بيد أن احداثا كثيرة وقعت منذ ذلك التاريخ ، واذا ظلت هذه النوازل تتوالى ، فان من الأفضل — للسيد الموقر جدا — أن يقوم بعمل رائع من أعمال « انكار الذات » التى يقوى كل أنسان على القيام بها ، وأن يذهب الى زملائه الوزراء — وبينهم كثيرون يصلحون لتولى رياسة الوزارة — ويقترح عليهم : ان يقوم احدهم بتأليف الوزارة « شريطة ان يتبوأ السيد الموقر هذا ، منصبا وزاريا معه ، ولعل من الأفضل له ان يأخذ منصب وزير الخارجية لأنه استطاع أن يدعم علاقاتنا الخارجية بروسيا وأمريكا ويصل بها الى درجة القوة والكمال ..

ولم يكن فى طاقتى أن اظل انصت الى اكثر من نصف الخطب التى القيت خلال المناقشة الحامية التى استمرت حتى الساعة الثالثة صباحا ، وكان على طبعا أن اجهز برنامجي لليوم التالى ، ولكن أفكارى كانت مركزة على المعركة التى ظهرت وكأنها معلقة فى كف الأقدار فى مصر ..

وقد استؤنفت المناقشة ، ولم تمض ساعات قليلة على استئنافها حتى كانت قد استنفدت طاقتها ، وفى اليوم الثانى استؤنفت بحيوية متجددة وبطبيعة الحال ، لم يمنع أى نائب من ان يقول مايبغى ، فقد كانت حرية الكلام ، وقد اغرب احد النواب فى قوله :

« عندنا فى هذه البلاد خمسة أوستة جنرالات ينتمون الى دول أخرى كالتشيكيين والبولنديين والفرنسيين ، وهم مدربون على استعمال هذه الأسلحة الألمانية وعلى أساليب القتال التى ينهجها الالمان وانى لاعلم : أن اقتراحى قد يكون جارحا لكبريائنا لكن الا يمكن ان نسند القيادة فى الميدان الى بعض هؤلاء الجنرالات حتى يتوافر عندنا القادة المدربون ؟ .. وهل هناك حرج فى أن نرسل الى الميدان هؤلاء — الرجال الذين لايقلون من حيث الرتبة عن الجنرال « ريتشى » ونسند اليهم قيادة قواتنا ؟ .. انهم يعرفون دون قادتنا كيف يخوضون غمار هذه الحرب ، وانى لاصرح بأن من الافضل أن نكسب المعارك ونحمى ارواح الجنود البريطانيين بقيادة رجال من الامم المتحدة لا ان نخسرها بقيادة جنرالاتنا .. وعلى رئيس الوزراء ان يعرف أن هناك قولا ذائعا يردده كل لسان فى هذه البلاد ، بأن رومل لو كان فى الجيش البريطانى لظل حتى الآن عريفا .. أو ليست هذه هى الحقيقة ؟.. انه كلام شائع فى أوساط الجيش كلها ، ففى هذه البلاد الآن وفى الجيش البريطانى « رجل » هزم مائة وخمسين الفا فى معركة « الا يبرو » فى الحرب الاهلية الاسبانية ، انه ميشيل دونبار الذى يعمل الآن عريفا فى أحد الألوية المدرعة فى هذه البلاد — وحقيقة المسألة وجوهرها أن الجيش البريطانى تتنازعه الأهواءالطبقية فعليكم أن تغيروا هذا الوضع واذا لم يستطع مجلس العموم أن يدفع الحكومة الى تغييره فان الاحداث ستغيره . وربما لا يعنى المجلس بما ذكرته اليوم ، ولكنه سيعنى به قطعا فى الأسبوع القادم تذكروا ماقلته يومى الاثنين والثلاثاء

القادمين . أن الاحداث هى التى توجهنقدها الى الحكومة وكل مانصنعه هو : أن نعبر عنها ، وربما يـكون تعبيرنا عنها غير واف ، ولـكنا نحاول التعبير عنها على اية حال . « وقد لخص المستر هور ـ بليشـار » : وزير الحربية السـابق القضية الرئيسية ضد الحكومة ، وفى النهاية قال : قد نفقد مصر او لا نفقدها وانى لأرجو الله ألا نفقدها ،ولكنى حينما اقرا قول رئيس الوزراء بأننا سـنحمى مصر يتضـاعف قلقى لأنه قد سـبق له أن قال انا سنحمى سنغافورة وكريت ، وسنقضى على الالمان قضاء مبرما فى ليبيا ، فكيف يمكن المرء ان يضع ثقته فى أحكام اثبتت أكثر من مرة خطأها وسوء توجيهها ؟ ..

هذا هو الموضـوع الذى يجب أن يقرره مجلس العمـوم الآن ، عليكم ان تعملوا التفكير فى كل ماهو معرض للخطر فى هذه اللحظة : « لقد خسرنا فى مائة يـوم ؛ امبراطوريتنا فى الشرق الأقصى ، فمـا الـذى سيحدث فى المائة يوم المقبلة ؟ .. أننى لأرجوأن يحكم كل عضوفى المجلس ضميره قبل الاقتراع .. »

وقد نهضت بعد هذا الخطاب القوى لانهى المناقشـة ، وكانالمجلس مزدحما بالحاضرين ، وقد حاولت بالطبع ابانة كل نقطة عرضـت على ، وكان المستر « هور بليشا » قد ركز على فشل الدبابات البريطانيـة ، وعدم كفاية معداتنا فىسلاح المدرعاتوكان مركزه ضعيفا فى هذا الهجوم بالنسبة الى سجله السابق قبل الحرب فى وزارة الحربية وقد استطعت أن أنكس الوضع حينما قلت :

ان فكرة الدبابة « مفهومبريطانى » واستخدام القوات المدرعة على ماهى عليه الآن « خطة فرنسية » كما يظهر فى كتاب الجنرال ديجول ، ولميكن أمام الالمان الأن يحولوا هذه الافكار الى أمور عملية يستخدمونها ، وقـد أمضوا السنوات الثلاث أو الاربع الاخيرة قبل الحرب ـ بما عهد فيهم من مهارة واتقان فى التخطيط والصـناعة معا ـ فى انتاج الدبابات ودراسة طرق حربها . وكان فى امكان وزير الحربية اذ ذاك ـ ولو لم تتوافر لديه الاموال الكافية لصناعة وانتاج الدبابات على نطاق واسـع ـ انتاج نماذج عملية كاملة الحجم يقوم بأجراء التجارب عليها ؟ ويختار المصانع ويكفل لها ما تحتاج اليه من معدات بحيث تبدأ انتاجها الضخم من الدبابات والمدافع المضادة لها حين تبدأ الحرب .

وحينما انتهت الفترة التى أطلقت عليها « فترة بليشا » لم يكن عندنا سوى مائتين وخمسين دبابة تحمل قلة منها مدافع من عيار رطلين ، وقـد وقع أكثرها فى قبضة العدو ، أو حطم فى معركة فرنسا ..

« وانى لاقبل راضى البال ، مايلزمنى قبوله مما اسماه اللورد النبيل الايرل وينترتون ، (المسئولية الدستورية) عن كل ما حدث ، أرى اننى قد نهضت بهذه المسئولية من ناحية عدم التدخل فى الامور الفنية للجيوش ، المشتبكة مع العدو ، على أنى قبل بدء المعركة ؟ استنهضت همة الجنرال « أو كنلك » كى يتولى القيادة بنفسه ، لاننى كنت واثقا من أنه لن يحدث فى منطقة الشرق الاوسط الشاسـعة فى الشـهر أو الشهرين القادمين ، ما يمكن أن يقارن بالقتال الدائر فى معركة الصحراء

الغربية ، وقد تراءى لى أنه الرجل الذى يصلح لهذا العمل ، لكنه اعتذر عن ذلك مبديا عددا من الاسباب ــ المعقولة ؛ وقد خاض الجنرال «ريتشى» المعركة ، وقد ذكرت قبل للمجلس يوم الثلاثاء أن الجنرال « أو كنلك » قد تسلم زمام القيادة من الجنرال « ريتشى » فى الخامس والعشرين ، ووافقنا نحن على هذا القرار فورا ، ولكن يجب أن أقرر بصراحة أن هذا الموضـــوع ــ موضوع ابعاد الضابط عن القيادة لم يكن من الطراز الذى يمـكن أن نتخذ فيه حـكما قاطعا نهائيا ، ولا أستطيع ان أزعم انى قد أصبحت فى حكمى على ما حدث فى هذه المعركة ، ولا أريد ان يحس قادة البر والبحر والجو بأن الحكومة تقف سدا منيعا بينهم وبين أى نقد ــ وينبغى أن تمنحهم الفرصة المعادلة بل اكثر من فرصة واحدة . فقد يخطئون ثم يتعلمون من أخطائهم وقد يمنون بسوء الطالع ، لكن طالعهم قد تغير ــ ولكن ليس فى امكاننا ان يكون عندنا عسكريون متأهبون لقبول المخاطر الا اذا أحسوا بأن حـكومة قوية تؤازرهم وتساندهم وبالطبع ، ان يغامروا أو يجازفوا اذا أحســوا بأن عليهم أن ينظروا باستـــمرار خلفهم ، وأن يستشعروا القلق لما يحدث فىالوطن ، والا فانهم سيعجزون عن تركيز أنظارهم على العدو وبالطبع لن يكون فى وسعهم الحصول على حكومة تقدم على المخاطر ، الا أذا أحست أن خلفها أكثرية قوية مخلصة فانظــروا الى ما يجب أن نصــنعه الآن ، وتخيــوا نــوع الهجوم الذى سنتعرض له اذا أردنا القيام بهذا الواجب ،ثم منينا بالفشل ففى فترات الحـــروب ينبغى على المواطن أن يمنح الولاء اذا رغب فى خــدمة وطنه حقا .

وانى لاود ان أقول بضعكلمات مشفوعة بأصدق التمنيات والتقدير ــ كما يقولون بلغة الدبلوماسيين ، ولىوطيد الامل فى أن يمنحنى المجلس الحرية التامة فى المناقشة ان للبرلمان مسئولية خاصة ، فقد كان قائمـــا منذ بداية الكوارث التى لحقت بهذا العالم ولهذا المجلس فضل كبير على ، وأرجو أن يشهد هذا المجلسالنصر النهائى وأرى أنه لايتحقق الا اذا أعطى المجلس الحكومة التنفيذية المسئولة التى اختارها قاعدة قوية ترتكز عليها فى هذا السبيل الشاق الطويل الذى يتحتم علينا أن نجتازه بعـد ، وعلى المجس أن نكون عامل استقرار ثابت فى الدولة ، لا ان يكون وسيلة يمكن الفئات الناقمة فى الصحافة عن طريقها ، خلق أزمة اثر أخرى • واذا قدر للديموقراطية والانظمة البرلمانيـة الظفر فى هذه الحرب ، فمن المحتم ان تتمكن الحكومات التى تعتمدعليها من أن تعمل ، وأن تجرؤ على هذا العمل والا يظل موظفو التاج عرضــة للمضايقة بالتجريح والنقد ، والا نمكن دعاية العدو من استغلال ما نقدمه اليها من مواد ، والا نعرض سمعتنا للتشهير والتحطيم فى كل انحاء العالم ، وعلى النقيض من هذا ؛ علينـا أن نبرز ارادة ــ المجلس فى مختلف المناسبات الهامة • ومن الاهميةبمكان الا يكون هؤلاء المتكلمون وحدهم العامل المهم فى الشئون العالمية ، وانما يكون معهم كذلك أولئك الذين يستمعون ويحكمون • فنحن ــ على أية حال ــ مابرحنا نحارب لا من أجل الدفاع عن حياتنا والذود عنها بل من أجـل الدفاع أيضا عنقضاياهى أغلى من الحياة نفسها •• وعلينا الا نفترض ان النصر أمر مؤكد وواقع لانه لن يتم الا اذا أدينا واجبنا على أحسن وجه ••

وللنقد البناء الوادع . أو ما يوجه من نقد فى جلسات سرية — فضائل كبيرة ، بيدأنواجب مجلس العموم ؟ يحتم عليه أحد أمرين اما أن يوطد مركز الحكومة أو يغيرها واذا لم يمكنه تغييرها ،فعليه أن يدعمها ، وليس هناك عمل وسطفى أيام الحروب ·· وكل ماينجم عن الخطب المعاديةيتسرب الى الخارج ويستغله العدو أشنع استغلال ··

«لقد قال مقدم اقتراح «لوم الحكومة» يجب على أنأتخلىعنمسئوبياتي الدفاعية لتتولى شخصية عسكرية أو غير عسكرية الادارة العامة لدفة الحرب ، وأن يكون لهذه الشخصية الاشراف على قوات التاج المسلحة وأن ترأس لجنة رؤســـــاء أركان الحرب ، وأن يخول تعيين الجنرالات والاميرالات واقالتهم وأن يكون مستعدا باستمرار للاستقالة اذا لم يظفر بما يريد . متحديا زملاءه السياسيين — ان صح لنا أن نطلق عليهم اسم الزملاء — وان يعمل تحت امرته امير من امراء الأسرة المالـكة — كقائد عام للجيش وأن يساعد رئيس الوزراء هذا الشخص بل أن يكون تابعـا له ويقدم الاجابة عن الاســـتفسارات ويذكر الدوافع ويقوم بالاعتذارات أمام البرلمان حينما تنحرف الامور وتتعثر ، وهذا ما يحدث كثيرا ، وسيقع حتما وهذا مافهمته من الاقتراح وان لم يحدده صاحبه

ان هذاالاقتراح على أية حال ينطوى على سياسة كمـــا أنه ينطوى على نظام يغاير كل المغايرة النظام البرلماني الذى نحيا فى كنفـــــه ، ومن اليسير ان يبلغ حد الدكتاتورية أو ينقلب اليها ، وانى لاود أن اوضح ايضاحا تاما اننى لن اشترك فى مثل هذا النظام ··

وهنا قاطع السير « جون ووردلو — ميلن » قائلا « أرجو الا يكون صديقى — الموقركلالتوقير — قد نسى عبارتى الاصلية وهى « ان كل شىء متوقف على موافقة وزارة الحرب » ولكننى واصلت خطابى فقلت :

·· متوقف على موافقه وزارة الحرب · ان هـــذا الشخص الذى بلغت قوته غايتها يمكنه أن يهدد بالاستقالة فى كل لحظة اذا لم ينــل ما يطلب . انه مشروع على أية حال .. لكنى لست مستعدا لان اشترك فيه ولا اعتقد انه نظام يرتضيه هذا المجلس .

« ولعل اشتراك أعضاء من الاحزاب المتباينة فى تقديم الاقتراح بلوم الحكومةوالاقتراع عليه يمثل حادثا مهما . علىأية حال ينبغى عليكم ألا تدعوا المجلس يهون من خطر ماحدث حتى الان ، وقددوى هذا الاقتراح فى كل أرجاء العالم لانه يتضمن استخفافا بنا وتحقيرا لحكومتنا ، وحينما تنتظر كل حكومة فى العالم — صديقه كانت أو عدوة — ما سـيقرره مجلس العموم ، وما يفصح عنه من اعتقاد ، فاننا نحس ان من واجبنا أن نمضى فيهحتى النهاية فهناك فى كل أنحاء العالم فى أمريكا حيث رأيت الوضع بنفسى ·· وفى روسيا ، وهناك فى الصين البعيدة ·· وفى كل بلاد تحت سـيطرة العدو ، يتوقع أصـــدقاؤنا أن يشـــاهدوا فى بريطانيا حكومة قوية راسخة ، وأن يروا ما ستصبح عليه زعامتها القومية أتتعرض للتحدى أولا ؟ ان لكل صوت أهميته ، واذا انخفضت نسبة مؤيدى أولئك الذين هاجمونا الى درجة مزرية ، وانقلب اقتراعهم

بلوم الحكومة القومية الى اقتراع بلوم مقدمى الاقتراح أنفسهم فتيقنوا أن هتافات أصدقاء بريطانيا والمخلصين لقضيتنا ستترتفع فى كل مكان وستدوى جلاجل الخيبة فى مسامع العتاة الذين نعمل على التخلص منهم

وكان أن رفض المجلس اقتراح السير « جون ووردلو ـ ميلن » بعدم الثقة بالحكومة بأكثرية (٤٧٥) صوتا مقابل : (٢٥) صوتا ٠

وكان أصدقائى الامريكيون يتطلعون بقلق بالغ الى ما سينجلى عنه الاقتراع وقد انكشف فعلا عما أبهجهم ٠ وفى صباح اليوم التالى أفقت لاتلقى تهانيهم ٠

وخلال المناقشة تعرض المستر وولتر ايليوت لموضوع تاريخى غريب حينما قرأ ما كتبه ماكسولى عن حكومة المستر بيت اذ قال : كان بيت يقود شعبافىمعركةالحياة أو الموت ٠٠ ولكن الجيش البريطانى فى الواقع غدا ، بعد ثمانى سنوات من الحرب ومن بذل الكثير من الارواح والاموال ، فى عهد بيت ؛ مثار سخرية أوربا كلها ٠

ولم يكنفىطاقةهذا الجيش أن يزهو بالانتصار فى احدى المعارك ولم يبرز فى أى بقعة من القارة ، الا كتبت عليه الهزيمة والفرار ٠ ومع ذلك استمر بيت يلقى مؤازرة مجلس العموم ٠ وهكذا كانت الحكومةتنال فوزا داخل أسوار البرلمان فى فترة طويلة من المحن التى نزلت خلالها خارج البرلمان نوازل مختلفة الالوان ٠

وفى النهاية لم تبق هنالك معارضة لحكومة بيت ، وفى عام ١٧٩٩ التاريخى نال بيت أكثرية ، اذ لم يصوت ضد حكومته الا خمسة وعشرون عضوا ٠ واستطرد المستر ايليوت يقول : ومن العجيب أن التاريخ يكرر نفسه أحيانا ولم يكن فى طاقة المستر ايليوت أن يدرك قبل التصويت مدى صدق قوله ٠ وقد تحيرت أنا الآخر من رقم الخمسة والعشرين ، لأنه كان الرقم الذى ذكرته للرئيس روزفلت ولهارى هوبكنز حينما كنت معهما فى البيت الابيض يوم وافتنا أخبار طبرق ٠

الجيش الثامن فى موقف التأهب

كان لسقوط طبرق ، دون حصار لفترة طويله أثره فى قيام ثورة فى خطط المحور ، وكانت الخطة حتى الآن تعتمد على أن يقف رومل على الحدود المصرية وأن تسارع قوات تنقل عن طريقى البحر والجو ، باحتلال مالطة ، وقد أكد موسولينى هذه الاوامر فى الحادى والعشرين من يونيو بيد أنه اقترح بعد سقوط طبرق بيوم واحد : أن يقوم بالقضاء على ما تبقى من قوات بريطانية صغيرة على الحدود وأن يفتح الطريق الى مصر ٠٠ وقد عززت وجهة نظره فى متابعة المطاردة الى قلب مصر عدة عوامل منها : وضع قواته وروحهم المعنوية العالية والكميات الهائلة من الذخائر فضلا عن الغنائم التى استولى عليها ، وضعف مركز القوات البريطانية . وطلب الموافقة على خطته ، وقد تلقى موسولينى رسالة أخرى من هتلر تلح عليه بقبول اقتراحات رومل ، واليك فقرات منها :

« لقد أراد القدر أن يمنحنا فرصة لن تعوض على مسرح الحرب نفسه ٠٠٠ فقد دمر الجيش الانجليزى الثامن تدميرا تاما ، ومازالت تجهيزات الميناء فى طبرق سليمة ، وها أنت ذا تملك الآن قاعدة اضافية لها أهمية عظمى ، لان الانجليز قد مدوا منها سكة حديدية الى مصر نفسها ، واذا لم نقم فى هذه اللحظة بمطاردة الجيش البريطانى حتى يلفظ أنفاسه آخر رجل فيه ، فسيتكرر ما حدث حينما حرم البريطانيون ثمار نصرهم الذى حققوه ، فلم يصلوا الى طرابلس ، وتوقفوا بقواتهم فجأة ، ليرسلوها الى اليونان ٠٠

ان « آلهة المعارك » تزور المحاربين مرة واحدة غير أن من يقعد عن التمسك بهاحين تزوره لن يستطيع أن يمسك بها مرة أخرى »

ولم يكن « الدوتشى » فى حاجة الى من يقنعه بذلك فقد راوده الامل مرارا فى احتلال مصر ٠ وقد أرجأ الهجوم على مالطة الى أول شهر سبتمبر وخول رومل ــ الذى أصبح حينئذ ماريشالا بصورة فاجأت الايطاليين وأدهشتهم ــ الاستيلاء على الممر الضيق نسبيا ،وهو بين العلمين ومنخفض القطارة ليكون « نقطة البداية » فى عملية قادمة تستهدف الوصول الى قناة السويس ، أما كيسلرنج « فكان يرى غير ذلك ، فقد أيقن أن مركز المحور فى الصحراء لن يؤمن الا بالاستيلاء على مالطة ،ولهذا فقد أفزعه ما طرأعلى الخطة من تحوير ٠ وقد أومأ الى حمق مشروع رومل وما ينطوى عليه من أخطار جسام ٠

ولم يكن هتلر نفسه على ثقة من النصر على مالطة لانه كان يرتاب فى كفاية القوات الايطالية التى كان من المقرر أن تقوم بالدور الرئيسى فى الحملة حيث كان من المتوقع أن يمنى بالفشل أى هجوم يشن عليها ؛

ولكن من المؤكد الآن ان خسارة طبرق التى تثير كوامن الحزن والفزع — قد أنقذت الجزيرة من محنتها الكبرى · وذلك عزاء ينبغى ألا يفيد منه أى جندى ممتاز سواءأكان ذا شأن فى المعركه أم لم يكن ، لان جانبا كبيرا من العبءيقععلى كاهل القيادة العليا أكثر من وقوعه على أى من الجنرالات أو الجنود ·

***

وقد نظم روميل بسرعة قوات المطاردة وفى الرابع والعشرين من يونيو اجتاز الحدود الى مصر دون أن يجد مقاومة الا من قواتنا المتحركة الخفيفة بالاضافة الى الاسراب المقاتلة العنيدة التى استطاعت ان تغطى حركة تراجع قواتنا الى مرسى مطروح ولم يكن مركزنا هنا قويا ، وقد تم اتخاذ اجراء دفاعى حول المدينة ، ولم يكن فى جنوبها غير خطوط من حقول الالغام غير المتصلة تفتقر الى الحماية الكافية ، وقد كان الدفاع عن هذا الخط يحتاج الى قوة مدرعة كبيرة لحماية جناحه الايمن شأنه فى ذلك شأن خط الحدود الذى تخلينا عنه .. ولم يكن فى امكان الفرقة المدرعة السابعة أن تقوم بهذه المهمة برغم أنها تمكنت حينئذ من حشد مائة دبابة ..

وفى الخامس والعشرين من يونيو وصل الجنرال أوكنلك الى الجبهة الامامية فى مرسى مطروح وقرر آن يتولى قيادة العمليات بنفسه بدلا من الجنرال « ريتشى » وكان من واجبه آن يفعل هذا منذ طلب اليه أن يفعلهفى شهر مايو الماضى ·· وقد توصل الى نتيجة سريعة هى : أنه لا يمكنه أن يصمد نهائيا فى مرسى مطروح ، وكانت الاجراءات تتخذ على قدم وساق لاعداد المواقع فى العلمينالتىتبعد مائة وعشرين ميلا الىالوراء واتخذت التدابير لوقف تقدم العدو فى هذه المنطقة ، ثم عهد الى الفرقة النيوزيلندية التى قدمت من سوريا ووصلت الى مرسى مطروح فى الحادى والعشرين من يونيو — بالقيامبعمليات حربيةفىالسادس والعشرينمن هذا الشهر فى المنطقة الصحراويه فى « منفا قائم » بينالعلمين ومرسى مطروح وفى هذه الليلة تمكن العدو من أن يخترق جبهة لواء المشاة الهندى التاسع والعشرين فى المنطقة التى لم تستكمل فيها حقول الانغام بعد ، وقد نفذ العدو من الفجوة التى فتحها فى الصباح التالى ، وطوق مؤخرة القوات النيوزيلندية التى أصبحت محاصرة من جبهاتها الثلاث ، واستمر القتال عنيفا يائسا طوال النهار ؛ وفى آخر الامر ظهر أن نهاية الفرقة قد غدت محتومة · وقدأصيبقائدها الجنرال « فريبرج » بجراح خطيرة ، بيد أنه قد خلفه الزعيم « انجلر » وقد كان قائدا ماهرا ، فقرر أن ينفذ من الحصار المضروب حولهوبعد منتصفالليل تحرك اللواء النيوزيلندىالرابع صوب الشرق ، وقد انتشرت فرقة وأشهر الجنود أسلحتهم ، ولم يجد النيويلنديون أدنى مقاومة مسافة الفيياردة ··· وفجاة ·· انصبت عليهم النيران ، وهجم اللواء فى صفواحد ، وفوجىء الالمان بهذا الهجوم ؛ وخرجوا مهزومين من المعارك التى جرت بالسلاح الابيض فى ضوء القمر الساطع ؛ وقامت بقية الفرقة النيوزيلندية بالهجوم تجاه الجنوب فى دفعات دائرية وهذا ما ذكره روميل نفسه عن هذه القصة حيث قال :

« لقد تناولت المعركة الحامية الوطيس التى أعقبت ذلك ؛مركز

قيادتي في الميدان ·· وقد تبادل قواتي والنيوزيلنديون اطلاق النيران بصـــــورة قوية عنيفة وسرعان ما وجدت حول مقر قيادتي عددا من السيارات المحترقة التي غدت هدفا لنيران العدو المتواصلة والتي تنطلق من مسافة قريبة ، وبعد فترة قصيرة أدركني الملل بسبب هذه الحالة ، وأمرت الجنود وضباطهم بالانسحاب قليلا الى الجنوب الشرقي ولا يمكن المرء أن يصف الاضطراب الذى ساد هذه الليلة · »

وهكذا أفلتت الفرقة النيوزيلنديه من الحصار واســـتعادت تنظيم صفوفها ونشاطها مع القوات الاخرى في موقع العلمين الذى يبعد ثمانين ميلا الى الوراء ، ولم يكن قد طرأ بعد على الفرقة أى انهيار مما ساعدهـا كثيرا في تعزيز خطوطها الدفاعية ·

وقد تم انقاذ بقية الجيش الثامن في أمان لم يخل من كثـــير من العنف وكان الذهول قد هيمن على القوات برغم أن اليأس لم يســـيطر عليها ، وقد ادى قصر المواصلات وبعد الاسكندرية عن الجبهة أربعين ميلا الى المبادرة باعادة تنظيم كل القوات وبدا « أوكنلك » — وهو يتولى القيادة المباشرة شخصا مختلفا كل الاختلاف عن ذلك القائد الاستراتيجي المفكر الذى ينظر بعين واحدة الى المعركة الحاســـمة الدائرة في حين تنشغل عينه الاخرى بالاخطار الغامضة البعيدة في ايران وسورية وقـــد حاول على الفور أن يسترد زمام المبادرة التكتيكية ، وقام في الثـــاني من يوليو بأول هجوم مضاد في سلسلة الهجمات المضادة التي استمرت حتى منتصف ذلك الشهر وكانت هذه الهجمات تمثل تحديا لتفـــوق رومل الغريب ، وفي صبيحة يوم الاقتراع على لوم الحكومة أرسلت اليه تشجيعي الذى كان يضاهي ما أطلقه من قصف المدافع ·

وقد امتدت مواصلات رومل في الواقع الى أقصى مدى ممكن ، في حين بلغ الجهـــد بقواته مـــداه ولم يبق لديه من الدبابـات ســـــوى اثنتي عشرة دبابة صالحة للعمل ، وقد بدأ السلاح الجوى البريطاني وخاصة المقاتلات — يبدو متفوقا بصورة واضحة وفي الرابع من يوليو أبرق رومل يقول : انه ســـــيوقف هجومه ويتجه الى الدفاع فترة من الزمن يستطيع خلالها اعادة تنظيم قواته وهو مازال واثقا من قدرته · على احتلال مصر وقد وافقه كل من موسوليني وهتلر في هذا الرأى ، وبالفعل أصدر الفوهرر أوامره بارجاء الهجوم على مالطة حتى يتم احتلال مصر دون ايماء الى الايطاليين أو الى قيادته البحرية ·

وفي الاسبوعين الاولين كانت هجمات « أوكنلك » المضادة بمثابة ضغط شديد على رومل الذى استأنف الهجوم بعد ذلك ،وحاول فيما بين الخامس عشر من يوليو والعشرين منه اختراق الخط البريطاني ، ولكنه اضطر في الحادي والعشرين الى الابراق بأن هجومه قد صد ،وقال :ان الازمة لاتزال قائمة ·· وفي السادس والعشرين بدأ يفكر في التراجع الى الحدود ، وأخذ يشكو من قلة الامدادات الجديدة وافتقاده الرجال والدبابات والمدفعية كما شكا من نشاط السلاح الجوى البريطاني الذى كان ذا فعـــالية ·· وهكذا استمرت المعركة في حالة من التأرجح حتى آخر الشهر حينمـــا وصل الفريقان الى حالة من التوقف من جراء قتالهما المستمر ·· وكـــان

الجيش الثامن الذى يقوده « أوكنلك » قد صمد للعاصفة وأضعفها ، وتمكن بهذا الصمود الراسخ من أسر أربعة آلاف ألمانى ، وكانت مصر لاتزال فى مأمن ·

وفى هذه المرحلة السياسية العسكرية الواهنة طلب الى الولايات المتحدة أن تتخذ قرارا بالتخلى عن كل الخطط لعبور قناة المانش فى عام ١٩٤٢ وتوجيه حملة بريطانية امريكيه مشتركة لاحتلال افريقية الشمالية الفرنسية فى خريف ذلك العام أو شتائه · وقد كان لهذا القرار أثره فى السيطرة على اتجاه الحرب طوال العامين القادمين ·

وكنت قد درست بعناية منذ مدة أفكار الرئيس وما يساورها من انطباعات كما كنت واثقا من أن « مشروع شمال افريقية » يستهويه كثيرا وكان هذا المشروع هو الهدف الذى أسعى اليه دائما وقد أدرج فى أوراقى التى اعددتها فى ديسمبر عام ١٩٤١ ، وفى هذا الوقت ايقن كل فرد من أفراد حلقتنا البريطانيه ان اجتياز القناة فى عام ١٩٤٢ سيمنى بالفشل، ولم يكن أى عسكرى على جانبى الاطلنطى على استعداد للتوصية بمثل هذا المشروع أو تحمل مسئوليته ، وقد عرضت هذه القضية باذلا اقصى ما استطيع من حول وقوة مستخدما فى ذلك أبسط عبارات ممكنة فى ابرقية التى بعثت بها الى الرئيس فى الثامن من يوليو وهذا نصها :

١ ـ ليس فى مكنة أى من قواد الحرب البريطانيين غزو بريست أو شربورج بعملية المطرقة الكبيرة فى عام ١٩٤٢ ، ويقول رؤساء أركان الحرب : « ان الاوضاع التى يمكن أن تنجح هذه العمية وتجعلها معقولة ، لا ينتظر حدوثها » وهم الآن يوافون رؤساء أركان حربك بتقريرهم عن هذا الموضوع ·

٢ ـ ونحن نقوم الآن بالسيطرة على الملاحة لاغراض تتعلق بالتمويه والتضليل على الرغم من أنها تؤدى الى خسائر تلحق بوارداتنا وتبلغ ما يقرب من ربع المليون طن ، ولكن الاخطر من هذا ، هو مايقونه «مونتباتن» من أننا اذا ارجأنا تدريب قواتنا ؟ فسنضطر بالاضافة الى خسارتنا قطع الانزال » وماشاكلها الى تأخير عمليه الغزو الرئيسيه لفرنسا شهرين أو ثلاثة على الاقل ، حتى لو فشل المشروع واضطررنا الى سحب القوات التى أنزلناها بعد فترة وجيزة·

٣ ـ واذا تمكنا من احتلال موقع والحفاظ عليه ، ينبغى علينا مواصله تموينه بالامدادات واحباط جهود قاذفات القنابل الالمانية التى ستتعرض حتما لغاراتها باستمرار ، وفى هذه الحالة سنستنزف كل جهودنا فى حماية رأس الجسر مما قد يؤثر ـ ان لم يقض قضاء مبرما ـ على احتمال قيامنا بعملية واسعة النطاق فى عام ١٩٤٣ ، وسنستنزف مواردنا كلها شيئا فشيئا ، فى هذه الجبهة الضيقة جدا ، والمفتوحة لنا وحدها دون سواها وعلى ذلك ، نستطيع أن نقول : ان العمل الذى لم ينضج بعد فى عام ١٩٤٢ ، والذى قد يؤدى فى الغالب الى كارثة سيكون صدمه قاسيه لآمالنا ، فى القيام بعمل منظم واسع النطاق فى عام ١٩٤٣ ··

٤ ـ وأنا واثق ان العملية فى افريقية الشمالية الفرنسية انما هى « عملية الرياض » وهى بلا ريب ، أفضل فرصة لنا لتخفيف الضغط

عن الجبهة الروسية في عام ١٩٤٢ ، وأعتقد ان هذه العملية تنسجم بأفكارك كل الانسجام بل انها فكرتك الاساسية ·· انها الجبهة الحقيقية الثابتة لعام ١٩٤٢ ، وقد استشرت الوزراء ولجنة الدفاع فاتفقنا عليها جميعا ، وهذه هي الضربة التي تحقق النتائج المرجوة والامنية التي يمكن ان نحققها في هذا الخريف ·

٥ ـ ونستطيع أن نعضد « عملية الرياضي » هذه بكل الوسائل باستخدام السفن البريطانية لنقل القوات الامريكية أو البريطانية اللازمة للعملية وتأمين سفن الانزال والملاحة وفي امكانك اذا شئت ـ أن نقوم بعملية المهماز من هنا ، ثم تستكمل الترتيبات مباشرة عبر الاطلنطي ·

٦ ـ ويجب أن يكون واضحا لدينا أن الامل لن يراودنا من أجل دعوة نتلقاها أو ضمان نتسلمه من « فيشي » ·· ولكن اية مقاومة يبديها الفرنسيون ، لن تكون شيئا ذا بال بالقياس الى ما نلقاه من الجيش الالماني في خليج « كاليه » في حالة الغزو ·· والواقع أن المقاومة الفرنسية تعتبر رمزية وكلما كنا أقوى، كانت المقاومة أضعف وكان من السهل علينا التغلب عليها · والموضوع هنا يتعلق بالناحية السياسيه أكثر من تعلقه بالناحية العسكرية · ويخيل الى أن علينا الا ندع جانبا هذه الضربة الاستراتيجية العظيمة التي تهيأت لنا في المسرح الغربي في هذا العام ··

٧ ـ وبالاضافة الى ماسبق علينا ندرس الآن امكانية القيام بعملية في شمال النرويج ، ولامرية في أن الصعوبات ستكون بالغة ، لما تتعرض له سفننا من الطائرات المغيرة من قواعدها على الشاطئ وعلى الرغم من اننا نعاني ويلات مخيفة في تسيير القوافل الروسيه الا انه من الضروري فتح الطريق وتأمين الاتصال بروسيا ·· وقبل أن يتخذ قرار نهائي حاسم كانت هناك فترة من التوقف · وقد حدثت أزمة شديدة في القيادة العليا ، لادارة دفة الحرب الامريكية ، ووقع خلاف بين الجنرال « مارشال » والاميرال كنج » حول أولوية أوربا أو المحيط الهادي ، ولم يكن أي الرجلين راغبا في « مشروع شمالي أفريقية » وقد كان اهتمام الرئيس روزفلت يتضاعف باطراد بالنسبة للمشروع الافريقي ، وقد استطاع الفيلد ماريشال « ديل » بما يتمتع به من مزايا ـ أن يكسب ثقة كل المدارس الفكرية المتضاربة ،وبفضل كياسته استطاع أن يحتفظ بثقة الجميع ، وكان الرئيس قد أدرك قوة الحجج المعارضة في عملية «المطرقة» واذا كان يضع دائما هذه العملية فوق كل اتصالاته بنا فما ذاك الا لانه أراد اقناع الجنرال ماريشال بأنه سيهيئ لهذه العملية كل فرصة ممكنة ، أما اذا عجز الجميع عن التقدم بهذا المشروع فماذا تكون النتيجة ؟ لقد وجد اتجاه جارف لدى ضباط أركان الحرب الامريكيين يذهب الى انه : اذا لم نستطيع أن نفعل شيئا هذا العام في أوربا فعلينا أن نركز جهودنا ضد اليابان فنوفق بهذه الطريقة بين فكرتي الجيش والاسطول الامريكيين ، ونقرب بين الجنرال ماريشال والاميرال «كنج»

بيد أن الرئيس «روزفلت » قاوم هذا الاتجاه الفكري الخطر وقضى عليه فلقد كان مقتنعا بأن على الجيش الامريكي ان يقاتل الالمان في عام ١٩٤٢ ـ فاين يمكن ان يتم هذا اذا لم يكن في شمالي افريقية ؟ ويقول

المستر « ستمسون » :ان هذه الفكرة ، كانت المولود الحربي الذي وضعه الرئيس سرا .. ولا مرية في أن قوة ادلة ومنطق الرئيس في هذا الاتجاه ، كانا في غاية السلامة والوجاهه ٠

وفي يوم السبت الموافق الثامن عشر من يوليو وصل الجنرال ماريشال والاميرال كنج وهارى هوبكنز بالطائرة الى « بريستويك » واستقلوا القطار فورا الى لندن حيث بدوا على الفور يتشاورون مع القادة الامريكين المقيمين هناك ٠ وهم ايزنهاور وكلارك و «ستارك وسباتز » وجرى النقاش بينهم ثانية في « عملية المطرقة » وقد كان الرأى المهيمن على الامريكيين لا يزال مؤيدا لهذه العملية دون سواها بل ملحا في تنفيذها ٠٠ وبدا ان الرئيس وحده قد تأثر بالحجج التى قدمتها ، وقد زود الوفد بوثيقة وضعها بنفسه واعتبرها أحسن ما كتب عن سياسة الحرب وأشدها فعالية ٠٠ أوردها بنصها ٠

« مذكرة الى السادة : « هارى هوبكنز والجنرال ماريشال والاميرال « كنج » الموضوع : تعليمات عن مؤتمر لندن ــ يوليو عام ١٩٤٢

١٦ من يوليو عام ١٩٤٢

١ ــ ستمضون فورا الى لندن كممثلين لى بصفة شخصية وذلك لتبادل الرأى مع السلطات البريطانية المختصة في موضوع ادارة دفة الحرب ٠

٢ ــ حدثت تغييرات عسكرية وبحرية استراتيجية كبيرة منذ زيارة المستر تشرشل لواشنطن ، تستدعى الوصول الى اتفاق عاجل على خطط العمليات المشتركة بيننا وبين البريطانيين على أساسين :

أ ــ الخطط النهائية في الفترة الباقية من سنه ١٩٤٢ ٠

بــ الخطط التى مازالت تحت البحث لعام ١٩٤٣ ، على أن تكون قابلة للتعديل في هدى ما سيتمخض عنه عام ١٩٤٢ ، مع وجوب اعدادها في هذا الوقت في كل الحالات على اعتبار انها استعدادات في عام ١٩٤٢ لعمليات ستقع في عام ١٩٤٣ ٠

٣ ــ أ ــ يجب أن يكون الهدف المشترك للامم المتحدة هو : هزيمة دول المحور ،وليس هناك أى تساهل في هذه النقطة ٠

ب ــ علينا ان نركز جهودنا وأن نتجنب الفرقة ٠

جـ ــ من الامور الحيوية استخدام القوات البريطانية بصورة عامة موحدة ٠

د ــ من الضرورى استخدام كل القوات الامريكية والبريطانية المتأهبة في أى عمل حربي يمكن استخدامها فيه ، وذلك في أسرع وقت ممكن ٠

هـ ـ من الاهميه بمكان ضمان استخدام القوات الامريكية البرية في عمل ضد العدو في عام ١٩٤٢ .

٤ ـ يجب تنفيذ كل الارتباطات المادية البريطانية والامريكية التي التزمنا بها لروسيا ، تنيفذا ينطوي على صدق النية والوفاء .

ويجب قبل كل شيء ان ترسل جميع مواد القتال عن طريق ايران اذا كان صالحا للاستعمال ، ومن الواجب ان يستمر هذا الارسال مادام التسليم ممكنا وعلينا ان نشجع روسيا على مواصلة القتال والا نتراجع في حال الانهيار الكامل ، وهو شيء نستبعده .

٥ ـ عليكم بالنسبة لعام ١٩٤٢ ، أن تدرسوا بعناية : امكانية تنفيذ عملية المطرقة « ولا مرية في أن مثل هذه العملية ، ستبقى على روسيا في ميدان المعركة هذا العام ، وهي عمليه مهمة للغاية بحيث تتطلب كل الاسباب والمسوغات تنفيذها وعليكم أن تحثوا بريطانيا بقوة على اتخاذ كل الاستعدادات العاجلة بغية تنفيذها ، وان تدفع العملية الى الامام بمنتهى الحيوية والنشاط ، وتخرج الى حيز التنفيذ سواء أصبح انهيار روسيا متوقعا في كل لحظة أم لا ، واذا غدا الانهيار محتمل الوقوع فان عملية « المطرقة » تتجاوز طور الصلاحية ولا مرية في أن الهدف الرئيسي لعملية « المطرقة » هو تحول قوات المانيا الجوية الايجابي من الجبهه الشرقية الروسية ! ..

٦ ـ أرجو اخباري حين تقتنعون تماما باستحالة تنفيذ « عملية المطرقة » مع وجود فرصة معقولة لتحقيق أهدافها المتوخاه .

٧ ـ واذا استبعدنا عملية المطرقة نهائيا ـ وبصورة مطلقة ـ فاني أريد ان تدرسوا الوضع العالمي على ما يكون عليه حينئذ ، وتقرروا المكان الآخر الذي ينبغي أن تقاتل فيه القوات الامريكية في عام ١٩٤٢ .

ان الصورة التي أرسمها للعالم اليوم هي كما يلي : ـ

أ ـ اذا استمرت روسيا في مناوشة قوات المانية كبيرة ، فان « عملية الطراد » « غزو أوربا » تصبح أمرا ممكنا في عام ١٩٤٣ ، ويجب أن نضع الخطط لعمليه الطراد ودراستها عاجلا واتخاذ الاستعدادات اللازمة لها .

ب ـ وقد تغدو عملية الطراد مستحيلة في عام ١٩٤٣ اذا انهارت روسيا وتحررت قوات المانيا البرية والجوية من الجبهة الشرقية .

٨ ـ يجب أن نحتفظ في الشرق الاوسط بكل قوة ممكنة ، سواء انهارت روسيا أو لا ، وأريد أن تأخذوا بعين الاعتبار ما يخلفه ضياع الشرق الاوسط من أثر ، ان مثل هذه الخسارة تعني ما يلي بالتسلل :

١ ـ ضياع مصر وقناة السويس ..

٢ ـ ضياع سورية ..

٣ ـ ضياع آبار النفط في الموصل ..

٤ ـ ضياع خليج البصرة بما يشن عليه من هجمات من الشمال والغرب مع امكانية الوصول الى نفط الخليج ٠٠

٥ ـ اتصال ألمانيا واليابان واحتمال ضياع المحيط الهندى ٠

٦ ـ احتمال قيام ألمانيا فى الغالب باحتلال تونس والجزائر ومراكش وداكار وقطع الطريق المائى عبر فرويتان وليبيريا ٠

٧ ـ تهديد الطرق الملاحية كلها فى جنوبى الاطلنطى وتهديد البرازيل والساحل الشرقى لأمريكا الجنوبية كله وهذه الاحتمالات تتضمن احتمال استخدام الالمان أسبانيا والبرتغال وكل ممتلكاتها ٠

٨ ـ يجب أن تقرروا أحسن السبل للاحتفاظ بالشرق وهذه السبل تتضمن حتما احدى الطريقتين التاليتين أو كلتيهما معا :

(أ) ارسال النجدات والقوات البرية الى خليج البصرة وسورية ومصر ٠

(ب) القيام بعملية جديدة فى مراكش والجزائر الغرض منها : الزحف على مؤخرة جيوش رومل ، أما موقف القوات الفرنسية فى مستعمراتها فما زال موضع شك ٠٠

٩ ـ اننى أعرض أن تقوم أمريكا وحدها بمجهود فى المحيط الهادى ضد اليابان فى الوقت الحاضر لأن هذا يؤدى الى هزيمتها فى أسرع وقت ممكن ، ولعل من الاهمية بمكان أن نفهم جميعا ان هزيمة اليابان لا تعنى هزيمة ألمانيا ، وان تركيز القوات الامريكية ضد اليابان فى هذا العام أو فى عام ١٩٤٣ يضاعف أحتمال سيطرة ألمانيا الكاملة على أوربا وافريقية ومن ناحية أخرى ، يبدو ان هزيمة ألمانيا فى عامى ١٩٤٢/١٩٤٣ تعنى احتمال الهزيمة النهائية لألمانيا على المسرحين : الاوروبى والافريقى والشرق الاوسط أيضا ، كما ان هزيمة ألمانيا تعنى هزيمة اليابان وقد تكون هذه الهزيمة دون اطلاق طلقة واحدة أو ازهاق حياة جندى واحد ٠

١٠ـ أرجو أن تتذكروا ثلاث حقائق أساسية هى : سرعة تقرير الخطط وتوحيدها والجمع بين الهجوم والدفاع دون الاقتصار على الدفاع وحده ، وينبغى أن يكون هذا هو الهدف العاجل للقوات الامريكية البرية التى تقاتل الالمان فى عام ١٩٤٢ ٠

١١ـ آمل أن تصلوا الى اتفاق كامل بعد أسبوع واحد من وصولكم

« فرانكلين ٠ د ٠ روزفلت
القائد الاعلى ٠٠ » ٠٠

وعلى الرغم من هذا الايماء الاخير ، فقد أبلغنى الجنرال مارشال بعد ظهر الثانى والعشرين من يوليو انه هو وزملاءه قد وصلوا فى محادثاتهم مع رؤساء أركان الحرب البريطانيين الى ما يشبه الأزمة مما حدا بهم الى التوقف وكان عليه أن يبرق الى الرئيس طالبا تعليماته ٠٠

٠٠ هذه من غير شك وجهات نظر استعمارية محضة

(اللجنة)

ورددت عليه بانني أتفق مـع الرئيس ومستشاريه العسكريين في رغبتهم الكاملة في الاشتباك مع العدو على أوسع نطاق وفي أسرع وقت ولكنني واثق انه نظرا للقوات المحدودة الموجودة تحت تصرفنا ، لن يكون ثمة داع للتفكير في القيام بعملية «المطرقة» في عام ١٩٤٢ ، وقد أشرت الى ما يواجهنا من احتمالات بشعة كثيرة ، فهناك مثلا احتمال «أوكنلك» واحتلال « دلتا النيل » وقناة السويس أو توطيد أقدامهمفي شمالي افريقية وغربيها ، وبذلك يفرضون على ملاحتناالمجهدة المنهوكة عبئا ثقيلا جديدا وقد اضفت: انالخلاف بين بريطانيا العظمى وأمريكا يترك أثرا أكبرواعظم من جميع هذه الاحتمالات ، ولهذا فقد اتفقنا على أن ينقل رؤساء أركان الحرب الامريكيين الى الرئيس عدم استعداد البريطانيين للمضى في عملية «المطرقة» وأن يبرق بذلك الى الرئيس ليبعث بتعليماته ٠

وقد رد الرئيس روزفلت على الفور بانه لم تدهشه النتيجة المخيبة للآمال التى وصلت اليها محادثات لندن ، كما وافق على انه ليس هناك جدوى من الاســـــتمرار في المضى في «عملية المطرقة» تجـــاه المعارضة البريطانية لها ٠ واصدر تعليماته الى وفده بالوصول الى قرار معنايتناول بعض العمليات التى تمكن القوات الامريكية البرية من الاشتباك مع العدو في عام ١٩٤٢ ، وهكذا اختفت «عملية المطرقة» لتحـل «عملية الرياضى» محلها ، وقد احنى « مارشال وكنج » هامتيهما أمام قرار قائدهما الاعلى على الرغم من المرارة وخيبة الامل التى انتابتهما ، وقــد سيطرت النيات الطيبة في أبلغ صورها علينا جميعا من جديد ٠

وبادرت الى اعادة « تعميد » عمليتى الاثيرة الى نفسى «الرياضى »تحت اسم آخر ، ففي الرابع والعشرين من يوليو أصدرت تعليمات الى رؤساء أركان الحرب بأن يصبح الاسم الجديد للعملية هـــو : «المشعل» وفي الخامس والعشرين من يوليو أبرق الرئيس الى هوبكنز ، بوجوب المضى في وضع الخطط للنزول في شمالى افريقية على الفـــور ، على الا يتأخر التنفيذ عن الثـــلاثين من أكتوبر ، ومضى أصدقاؤنا الامريكيون في تلك الليلة عائدين الى واشنطن ٠

وهكذا تم الاتفاق على الافكار التى جمعتنا أنا وزملائى من عسكريين ومدنيين منذ عهد بعيد ، وقد أثلج الاتفاق صدرى ولا سيما انه جاء في اللحظة التى بدا لنا أنها أحلك اللحظات ، وبهذا تم تبنى جميـع الخطط التى أجبتها باستثناء خطة واحدة فقد عجزت عن تنفيذ عملية «المشترى» الخاصة بغزو النرويج فهى على الرغم مما لها من مزايا لم تناقش ولميغض من شأنها ٠٠ على انى لم أكن قد تخليت عن هـــذه الخطة ، وان عجزت أخيرا عن تنفيذها ، وقد ركزت جهـــدى منذ أشهر على الغـــاء « عملية المطرقة » والاسراع بغزو شمالى افريقية « وعملية المشترى » وقد سقطت « عملية المشترى » في الطريق ، ولكننى حققت ما يستأهل الشكر ٠

لقد أبرق الينا المشير « الفيلد ماريشال ديل » من واشنطن يقول : لقد توجه الرئيس الى هايد بارك للاستجمام بعض الوقت بيد انه قبـــل ذهابه أصدر أوامره للاسراع بعملية « المشعل » وتنفيذها بأسرع مايمكن، وطلب الى هيئة الاركان المشتركة ابلاغه في الرابع من أغسطس بالموعد

المبكر الذى يمكن تحقيق العملية فيه ، ولا يزال خطر الالتفات الى المحيط الهادى ماثلا . وان كان الرئيس قد عقد العزم على ذلك .

« ويعنى قبول الرأى العام الامريكى لعملية المشعل ، استبعاد « عملية الطراد » فى عام ١٩٤٣ ، وينبغى ألا يساورنا القلق من هذا .. فكل ما نحتاج اليه الآن هو : تركيز تفكيرنا وجهودنا على «المشعل» ترى هل يقدر لاهدافه أن تكلل بالنجاح الذى تستحقه لما يتمتع به من بسالة وخيال عميق » ..

وقد وصلت الى هـذه الرسالة فى منتصف ليلة الأول من أغسطس عام ١٩٤٢ وكنت وقتها فى « مطار لينهام » أوشك على البـدء برحلة سأتحدث عنها بايضاح فى الفصل الثانى .

رحلتي الى القاهرة

تغييرات في القيادة

لقد كانت التقارير التي تلقيتها من جهات شتى تقوي باستمرار ـ الشكوك التي ساورتني في موضوع «القيادة العليا في الشرق الاوسط» . وغدا لزاما على أن أتجه الى هناك ، وأسوى القضية بصورة حاسمة ، وكان من المقرر أولا أن أمضى الى «جبل طارق فتاكورادى» ثم اجتاز أواسط افريقية الى القاهرة مما يقتضيني السفر بالطائرة زهاء خمسة أو ستة أيام ، وعلى أية حال وصل الى انجلترا في هذه الآونة طيار أمريكى شاب يدعى الكابتن «فاندركلوت» قادما بطائرته «الفدائى» من طراز ليبراتوز ، من الولايات المتحدة بعد أن رفعت منها أوكار قنابلها واستغيض عنها بأماكن لركوب المسافرين ، وقد كان في وسع مثل هذه الطائرة اجتياز الرحلة المرسومة لها في كل مراحلها بسرعة أكبر ، وقد استقبل «بورتال» ـ رئيس أركان سلاح الطيران ـ الطيار الامريكي مستجوبا اياه في موضوع طائرته ، وسأل «فاندركلوت» ـ الذى كان قد طار ما يقرب من مليون ميل ـ عن الاسباب التى تستدعى الدوران مثل هذه المسافة الطويلة الى «تاكورادى وكانوفورت لامى والعبيد» .. وقال : انه يمكنه أن يطير من جبل طارق الى القاهرة دون توقف ، اذ يتجه من جبل طارق صوب الشرق بعد الظهر ثم يستدير فجأة نحو الجنوب عبر المناطق التى تحتلها أسبانيا «أوفيشى» فى شمالى افريقية عند حلول الظلام ، ثم يتجه شرقا الى أن يصل الى النيل فوق أسيوط ويتجه شمالا بحيث يصل الى مطار القاهرة شمالى الاهرام بعد ساعة واحدة ، وقد كان هذا الاقتراح كفيلا بتغيير الصورة كلها ، فقد أصبح في طاقتى أن أصل الى القاهرة في يومين أما «بورتال» فقد اقتنع بالاقتراح كل الاقتناع .

وكان أهم ما يشغلنا أن نعرف رد الفعل بالنسبة للحكومة الروسيه بشأن الأنباء المؤلمة ـ التى لا مناص من ابلاغها اياها وهى ان القناة لن تعبر في عام ١٩٤٢ ، وقد حدث اننى شرفت بدعوة الملك الى العشاء مع أعضاء وزارة الحرب مساء الثامن والعشرين من يوليو في غرفة الحديقة في «داوننج ستريت رقم ١٠» التى كنا نستخدمها لمآدب العشاء وقد حصلت من جلالته ـ بصفة سرية ـ على الاذن لى بالقيام بالرحلة وبعد مغادرته هذا المكان دعوت الوزراء الى غرفة مجلس الوزراء ، فأبلغتهم كل شىء ، وتقرر سفرى الى القاهرة ، وان أقترح على ستالين مقابلته في موسكو» .. ولهذا ارسلت اليه في الثلاثين من يوليو البرقية التالية :

١ ـ نقوم الآن بالتمهيد للقيام بمحاولة اخرى لارسال قافلة كبيرة الى « أركانجل » في الاسبوع الاول من شهر سبتمبر .

٢ ـ اننى راغب فى المجىء اليك اذا دعوتنى ، للاجتماع بك فى «استراخان» فى «القوقاز» أو فى أى مكان آخر مناسب يماثله ويمكننا أن نستعرض الوضع الحربى معا وأن نتخذ القرارات معا ، وسأبلغك حينئذ بالخطط التى اتفقت أنا والرئيس روزفلت عليها بالنسبة للأعمال الهجومية فى عام ١٩٤٢ ، وسأحضر معى رئيس أركان حرب قواتنا الامبراطورية ٠

٣ ـ آنى ذاهب الى القاهرة فورا ، فلدى عمل جدى فيها لامرية فى انك تتخيله ، ومن هناك يمكننى أن أحدد الموعد الذى يناسبك للاجتماع اذا رغبت ـ وهو موعد قد يكون بالنسبة الى بين العاشر والثالث عشر من اغسطس ، اذا سارت كل الامور كما ينبغى ٠

٤ ـ لقد وافقت وزارة الحرب على اقتراحى ، وجاء الرد فى اليوم التالى ، وهذا نصه :

« نيابة عن الحكومة الروسية أوجه اليك دعوة الحضور الى الاتحاد السوفيتى للاجتماع بأعضاء الحكومة وأعتقد ان أنسب مكان للاجتماع هو: موسكو ، اذ ليس فى طاقتى أو فى طاقة أى عضو من أعضاء الحكومة أو كبار رجال القيادة العامة ـ أن ندع العاصمة فى هذه اللحظة التى يقوم فيها صراع عنيف عارم ضد الالمان ولا ريب فى ان وجود رئيس أركان الحرب ، أمر نرحب به أبلغ ترحيب وأصدقه ٠

« أرجو أن تحدد انت موعد اللقاء وفقا لما يقتضيه انجاز أعمالك فى القاهرة من وقت ، كما أرجو أن تتيقن من ان أى موعد تحدده سيكون مناسبا لى ٠

« أرجو أن تسمحوا لى أن أعبر عن شكرى لموافقتكم على ارسال القافلة المحملة بالعتاد الحربى الى الاتحاد السوفيتى فى الأول من شهر سبتمبر ، وعلى الرغم من الصعوبة البالغة فى تحويل الطائرات عن الجبهة، فستتخذ كل الاجراءات الممكنة لمضاعفة الدفاع الجوى عن القافلة » ٠

وهكذا تم ترتيب كل شىء ، وغادرنا «لينهام» بعد منتصف ليلة الأحد فى الثانى من شهر أغسطس على ظهر قاذفة القنابل «الفدائى» على ان هذه الطائرة من طراز لا يوفر لنا المتعة التى توفرها لنا السفينة الطائرة «بوينج» ولم تكن وسائل التدفئة قد أدخلت الى القاذفة ، ولذلك فان البرد القارص ـ الذى يكاد يمزق الاوصال ـ كان يسرى فىمفاصلنا، ولم يكن فى الطائرة أسرة ، بل كان فيها رفان فى الغرفة الداخلية استلقيت أنا « ولورد موران » عليهما وقد توافرت لنا البطاطين الصوفية وكانت متوافرة للجميع ، وطرنا على ارتفاع منخفض فوق جنوب انجلترا، حتى تتعرف علينا بطارياتنا المقاومة للطائرات والتى كانت فى حالة استعداد للطوارىء على الرغم من انذارها بمرورنا ـ وعندما أصبحنا فوق البحر ، غادرت « مقر الطيار » لآخذ قسطا من الراحة ، ثم تعاطيت بعض الحبوب المنومة ٠

وفى صباح الثالث من شهر أغسطس وصلنا الى جبل طارق دون

ما حادث وأمضينا النهار نطوق بالقلعة ، ثم غادرناها في السادسة مساء في طريقنا الى القاهرة ، لنقطع ألف ميل أو يزيد في فترة واحدة تقريبا ، نقوم فيها ببعض الدوران البعيد لنتجنب اللقاء بطائرة معادية فوق منطقة المعارك فى الصحراء ، ولم يواصل فاندركلوت ، طيرانه فوق البحر المتوسط الى أن ينشر الظلام جناحه ، رغبة منه فى توفير الوقود ، بل طار فورا عبر المنطقة الاسبانية ، وفىسماء أرض «أوفيشى» نصف المعادية، ولما كانت أربع مقاتلات من طراز «البوفايتر» تتولى حراستنا الى أن يحل الظلام ، فاننا قد خرقنا حياد هذه المناطق خرقا صريحا، ولم يتعرض لنا أحد فى الجو ، كما أننا قد ابتعدنا عن مراكز اطلاق المدافع المضادة القائمة فى المدن الهامة ، وعلى أية حال فقد رقصت طربا حينما حل الظلام وأصبح في مقدورنا أن نأوى الى المضاجع المتوافرة في طائرة من طراز «الفدائى» ولا شك فى أن مشكلة معقدة كانت ستحدث لو اضطررنا الى الهبوط فى الصحراء على الرغم من أن ايثار هذا المكان كان كافيا فى حد ذاته لخلق مشكلات كثيرة ، لكن محركات «الفدائى» الاربعة ظلت تدور بانتظام ، وقد نعمت بنوم هادىء مريح ونحن نحلق فى السماء الصافية ذات النجوم المتناثرة ..

وقد اعتدت في مثل هذه الرحلات أن أجلس فى مقعد مساعد الطيار قبيل شروق الشمس ، وعندما وصلت الى المقعد فى صباح ذلك اليوم الرابع من أغسطس رأيت فى ضوء الفجر الشاحب ، شريطا ملتويا من المياه الفضية يمتد أمامنا ، انه نهر النيل ينساب رائعا فى واديه ، وقد قطعت فى أيام الحرب والسلم ــ برا ونهرا هذا الوادى العظيم من منبعه فى بحيرة فيكتوريا حتى مصبه فى البحر ، ما عدا منطقة « الناقلة » ولكنى لم أشعر قبل بالارتياح حينما تطلعت الى مياهه كما حدث فى هذا الصباح .

وهكذا غدوت ــ بعد فترة وجيزه ــ «الرجل الذى يرقب الاحداث عن كثب» وبدلا من أن يستقر بى المقام فى الوطن فى انتظار وصول الأنباء من الجبهة ، أصبح فى وسعى الآن أن أنقل هذه الأنباء الى أى مكان آخر . ولقد كان هذا حقا ، شيئا مثيرا .

وكان على أن أقرر عدة قضايا فى القاهرة ، فهل فقد جيش الصحراء ثقته بالجنرال «أوكلنك» وأركان حربه ؟ واذا كان هذا حقا ، فهل يجب أن انحيه عن القيادة ومن سيخلفه فى حالة تنحيته ؟ .. ومثل هذه القرارات تكون مؤلمة قاسية وخاصة عند التعامل مع قائد له مثل ما «لأوكلنك» من مكانة ومنزلة وميزات وكفايات وتصميم .. ورغبة منى فى تعزيز أحكامى ، طلبت الى الجنرال سمطس ، أن يطير من جنوب افريقية الى القاهرة ، وقد كان فى انتظارى فى دار السفارة حينما وصلت الدما ثم قضينا فترة الصباح معا حيث حدثته خلالها عن كل متاعبنا ومجالات الخيار المتفتحة أمامنا وبعد الظهر عقدت اجتماعا طويلا مع «أوكلنك» الذى بسط لى الوضع العسكرى بصورة جلية واضحة وبعد ظهر اليوم التالى وصل الجنرال «ويفل» قادما من «الهند» وفى السادسة مساء عقدنا مؤتمرا لشئون الشرق الاوسط شهده «سمطس وكيس» الذى كان قد خلف للتون فى وزارة الدولة فى الشرق الاوسط ،والجنرال «بروك » رئيس أركان الحرب

«وويفل وأوكنلك» والاميرال «هاروود ماريشال الجونيدر» وقد أنهينـــا كثيرا من الاعمال بالاجماع ولكن عقلي ظل مشغولا طيلة الوقت بالموضوع الأساسي وهو القيادة .

ولا يستطيع الانسان أن يعالج مثل هذه التغييرات دون أن يستعرض الحلول البديلة وكان رئيس أركان الحرب ــ الذى يحتم عليه واجبه تقدير كفايات جنرالاتنا ــ مستشارى الخاص فى هذا الجزء من المشكلة ، وقد عرضت عليه أولا ، أن يتولى قيادة الشرق الأوسط وكان الجنرال «بروك» يود من صميم قلبه أن يتولى هذه القيادة العملية ، وكنت أعلم أنه ليس هناك من يفضله فى توليها وقد فكر «بروك» فى الموضوع طويلا ، وتحدث فى الصباح التالى طويلا الى الجنرال سمطس ، ورد أخيرا : بأنه تـــولى رئاسة الاركان العامة منذ ثمانية أشهر فقط ، وهو يعتقد أنه متمتـــــع بكامل ثقتى وان جهاز الاركان يسير سيرا مرضيا ، وأعرب عن اعتقاده بأن أى تغيير فى هذه اللحظة ، قد يحدث انفصاما مؤقتا فى هذا الوقت الحرج ، هذا بالاضافة الى أنه ــ لأسباب تتعلق بالذوق واللياقة لا يود أن يكون مسئولا عن التوصية بتنحية الجنرال «أوكنلك» عن قيادته وأن يتسلم هو مقاليد القيادة بدلا منه ، وكانت سمعته ترتفع فوق مســتوى هذه الاتهامات والاعتبارات ، ولكن تحتم على أن أتطلع الى ناحية أخرى بحثا عن القائد الجديد .

وكان «اليكسندر» ومونتجومرى قــد اشتركا معه فى المعركة التى تراجعنا فيها الى «دنكرك» فى عام ١٩٤٠ وكنا معجبين ســــويا بالخطة القوية التى قام بها «الكسندر» فى الحملة اليائسة التى عهد اليه أمرها فى بورما ، بيد ان سمعة مونتجومرى كانت طيبة تضرب فى آفاق الرفعة والسمو ، فاذا قرنا تنحية «أوكنلك» فليس ثمة شك فى أن «الكسندر» هو الرجل الذى يجب أن يحمل العبء فى الشرق الأوسط . ولكن شعور الجيش الثامن ينبغى ألا نتجاهلها أو نغفلهـــا على أن اختيار رجلين من انجلترا متخطين الرجال البسلاء الذين خاضوا معركة الصحراء يعد بمثابة تحد لشعورهم على اختلاف رتبهم فهذا هو الجنرال « جوت » ــ وهو قائد أحد الفيالق ــ أفضل من يصلح لقيادة هذا الجيش ، والقوات تدين له بكثير من الاخلاص ، ولم تلقبه عبثا « بقاذف القنابل » وقد كان هناك رأى نقله الى «بروك» هو انه منهك ويحتاج الى الاستجمام ، وكان اتخاذ هذه القرارات بمثل هذه السرعة أمرا سهلا بعد أن قطعت هذه المسافة الطويلة كلها حتى تتاح لى الفرصة لأرى وأسمع كل شيء يمـــكن الحصول عليه وتدبره فى ذلك الوقت .

ولقد كان كرم سفيرنا السير «مايلز لامبسون» وضيافته فى غاية الروعة فقد قدم لى حجرة نومه المكيفة ، ومكتبه المكيف للعمل فيه ، وكان الجو حارا للغاية وهاتان الغرفتان الوحيدتان فى المنزل هما اللتان بهما أجهزة التكييف ، ولم يكن هناك منغصات عدا حرارة الجو ــ خلال ذلك الاسبوع الذى أمضيناه فى استكشاف الاجواء والاستماع للآراء وزيارة الجبهة والمعسكرات الكبرى شرقى القـــاهرة فى القصاصين حيث كانت النجدات القوية تتدفق باستمرار .

وفي الخامس من شهر أغسطس قمت بزيارة مواقع العلمين وتوجهت بسيارة الجنرال «أوكنلك» الى النقطه التى تقـــع الى أقصى الجناح الأيمن للخط ، الى الغرب من «الرويسات» ومن هناك مضينا على طول الجبهة الى مقر قيادته وراء صخور الرويسات حيث تناولنا الافطار فيما يشـــبه المكعب تحيط به الاسلاك الشائكه ويمتلىء بالذباب والشخصيات العسكريه الهامه ، وقد وددت لو رأيت عددا من الضباط وفي مقدمتهم ، الجنرال قادة القنابل ، «جوت» فقيل لى : انه كان منهمكا في خدمته العسكريه الشاقه ، وكان هذا كل ما أردت أن أعلم ، وبعد ان تعرفت الى مختلف قادة الفيالق والفرق الحاضرين ، طلبت ان يرافقني الجنرال « جوت » بالسيارة الى المطار ــ وهو المركز الثانى الذى سانوقف فيه ــ وقد اعترض احد ضباط اركان حرب «اوكنلك» بان هذا سيبعد الجنرال بعض الوقت عن مكان عمـــله ، ولكنني أصررت على وجهه نظرى ، وكانت تلك هى مقابلتى الأولى والاخيرة لجوت ، على حين كانت السيارة تصعد بنا وتهبط الطرق الوعرة ، تطلعت الى عينيه الزرقاوين الهادئتين وسألته عمـــا اذ كان مجهدا او لديه اراء يود الافضاء بها ، فرد جوت انه بلا شك مجهد وانه يود ان يمضى الى انجلترا ، التى لم يشاهدها منذ بضع سنوات فى اجازة تستغرق ثلاثة اشهر ولكنه ابدى ــ مع ذلك ــ مقدرته على القيام بأية مجهودات ــ عاجلة أخرى ، فضلا عما يتحمل من مسئوليات قد توكل اليه ، وافترقنا في المطار في الساعة الثانية بعـــــد ظهر الخامس من اغسطس ، وبعد يومين قتل فى الساعه نفسها تقريبا برصاص العدو فى المنطقة الجويه التى كنت أطير فيها حينئذ ..

وقد عهد الى نائب ماريشال الجو كننجهام برعايتى ــ وهـــو الذى كان يتولى رياسه كل القوات الجويه التى عملت مع الجيش فى ظل قياده تيدر ، وهي القوات التى لولا نشاطها ما أمكن تحقيق ذلك التـــــراجع العظيم مسافة خمسمائة ميل دون أن تنزل بنا الكوارث التى تفوق فى شدتها تلك التى تحملناها حتى الآن ــ وقد طرنا في ربع ساعة الى مقر قيادته حيث أعد لنا الغداء واجتمع كبار الضباط من قائد جناح فما فوق وأحسست بالتوتر يسود كل الضباط منذ اللحظة التى وصلت فيها .. ولا يفوتنى أن أشير الى أن الطعام كان قـــد طلب من فندق شبرد فى القاهرة ، وقد حملت سيارة خاصة الطعام من الفندق ، غير أنهـا ضلت الطريق وبذلت مجهودات مضنية للعثور عليها ولكنها وصلت أخيراً .

وكانت مناسبة سارة وسط جو صاخب من الهجـوم والمتاعب .. أجل لقد كانت واحة حقيقية وسط صـــحراء كبرى مترامية الأطراف . وكان يسيرا على المرء أن يرى حرج وضع السلاح الجوى بالنسبة للجيش وما اعترى سلاحنا الجوى من دهشة للهزائم التى تعرضت لها قواتنـــا المتفوقة ، وعدت في المساء الى القاهرة ، ونقلت مشاهداتى الى المستر اتلى. وقضيت اليوم التالى كله ــ وهو السادس من أغسطس ــ مـــع «بروك وسمطس» ، وفي اعداد البرقيات اللازمة للوزارة ، كانت المسائل التى يتحتم على البت فيها عاجلا لأتتناول كبار القادة فحسب ، بل جهاز القيادة بأكمله في هذا المسرح الواسع ، وكنت أشعر دائما أن اختيار اســــم «الشرق الأوسط» لمصر وسورية وتركيا ، كان اختيارا سيئا ، فهـــذه

المنطقة هي الشرق الأدنى ، أما ايران والعراق ، فهمـــا يؤلفان الشرق الاوسط ، على حين تكون الصين واليابان الشرق الاقصى ، وقد بدا الى أن هناك ما هو اهم من تبديل الاســماء الوهمية ٠٠ وهو « تجزئة قيـادة الشرق الأوسط الحالية » ، نظرا لاتساعها وشمولها آفاقا رحبة شاسعة، وقد حانت الساعة المناسبة لتحقيق هذا التعديل فى التنظيم ، ولهــذا أبرقت فى الثامنة والربع مساء الى المستر أتلى بالبرقية التالية :

١ ـ توصلت الى نتيجة تدعو الى اجراء تغييرات جذرية عاجلة فى القيادة العامة ٠

٢ ـ ولهذا اقترح أن تنظم قيادة الشرق الاوسط الحالية فى قيادتين مستقلتين هما :

(أ) قيادة الشرق الادنى وتشمل مصر وفلسطين وسورية على أن تكون القاهرة مقرهـــا ٠٠

(ب) قيادة الشرق الاوسط وتشمل ايران والعراق ، على أن يكون مركزها البصرة أو بغداد ٠٠

وتشمل القيادة الاولى : الجيش : الثامن والتاسع على حين تشمــل القيادة الثانية الجيش العاشر ٠٠

٣ ـ يعرض على الجنرال « أوكنلك » تولى القيادة العامة الجديدة للشرق الاوسط ٠

٤ ـ يتولى الجنرال اليكسندر القيادة العامة فى الشرق الادنى ٠

٥ ـ يخلف الجنرال « مونتجومرى » الجنرال « اليكسندر » فى قيادة عملية «المشعل » وانى لآسف لاضطرارنا الى نقل « اليكسندر» من قيادة « المشعل » ولكن مونتجومرى جدير بأن يخلفه فى تلك القيادة لكفايته ٠٠

٦ ـ يتولى الجنرال «جوت» قيادة الجيش الثامن تحت أمرة اليكسندر»٠

تكون هذه الاقتراحات التغييرات الاساسية التى يقتضيها حــرج الوضع وأهميته وأكون شاكرا لزملائى أعضاء وزارة الحرب ، اذا ما وافقوا على هذه الاقتراحات ويريد « سمطس » ورئيس الاركان العامة أن أبلغكم أنهما متفقان معى كل الاتفاق على أن هــذه الاقتراحات تنطوى على خير السبل التى يجب أن نتبعها فى مثل هذه الحالة التى تحيط بها المتاعب الكثيرة وفى خضم هذه الحلول المختلفة البديلة ، وافق وزير الدولة أيضا على هذه الاقتراحات موافقة تامة ولا ريب عندى فى أن هــذه التغييرات ستحفز الجيش وتعيد اليه الثقة فى قيادتـه ـ وهى الثقة التى فقـدت فى الوضع الحاضر مع عميق الاسف ـ وأرى لزاما على أن أؤكد هنا ضرورة ايجاد بداية جديدة وعمل عنيف لبعث الحيوية فى هذه المنظمة الضـالة الواسعة ٠٠٠٠ ولن تحقق وزارة الحرب ـ فيما أعتقد ـ فى ادراك مغزى هذا الانتصار على روميل فى أغسطس أو سبتمبر وادراك آثاره الحاسـمة على موقف الفرنسيين فى شمالى أفريقية عندما تبدأ عملية « المشعل » ٠

وقد وافقت وزارة الحرب على آرائي في التغييرات الجذرية العاجلة وهي التي أدخلتها في القيادة العامة ــ ورحب اعضاؤها ترحيبا حارا باختيار الجنرال « اليكسندر » قائلين : انه سيغادر انجلترا فورا ــ بيد أنهم ــ على كل حال ــ لم ترقهم فكرة تجزئة قيادة الشرق الأوسط الى قيادتين منفصلين ، وبدا لهم أن الأسباب التي حملتنا على تقرير قيادة موحدة ، أقوى اليوم مما كانت عليه ، عندما اتخذ القرار في ديسمبر عام ١٩٤١ ، ووافقوا على أن يحل مونتجمري محل اليكسندر في قيادة « المشعل » واستدعوه للمجيء الى لندن فورا ، واخيرا تركوا لي موضوع البت في بقية التعيينات .

وفي صباح اليوم التالي أرسلت توضيحا آخر لاقتراحاتي ، وردت وزارة الحرب بأن برقيتي الجديدة لم تستأصل كل مخاوفها ، بيد أنني لما كنت في الميدان ومعي «سمطس» ورئيس الاركان ــ اللذان وافقا على اقتراحي كانت الوزارة على أستعداد تام للموافقة على ما آبديت من اقتراحات وان كانت قد أوضحت بشكل قاطع ، أن استمرار الجنرال «أوكنلك» في حمل لقب القائد العام للشرق الاوسط في حالة اختياره لتولي القيادة في ايران والعراق ، سيؤدي الى شيء من الارتباك وسوء المصير ، وقد رأيت أن الوزارة على حق في رأيها فاخذت بنصيحتها ..

وقد قضيت طيلة اليوم السابع من أغسطس في زيارة « الفرقة الحادية والخمسين الجبلية » التي كانت قد وصلت حالا الى مصر على حين كنت أصعد سلم السفارة بعد العشاء قابلت العقيد « ايان جاكوب » الذي غدا السير «ايان» ، فقال لي العقيد : انها لانباء سيئة عن جوت . فقلت : وماذا حدث له ؟ : « لقد أسقطوا الطائرة التي استقلها الى القاهرة بعد ظهر اليوم» وقد اعتراني الأسى والألم لفقدان هذا الجندي الممتاز الذي قررت أن أسند اليه القيادة المباشرة في المعركة الكبرى المتوقعة ،وهكذا اضطربت كل الخطط التي وضعتها . فقد كان تعيين « جوت » لقيادة الجيش الثامن ــ بما عرف عنه من خبرة في حرب الصحراء ومكانة حربية ممتازة ــ يوازي تنحية « اوكنلك » عن القيادة العامة ، ليخلفه فيها اليكسندر فماذا أصنع الآن ؟ . ولم يساورني شك في من يجب أن يخلفه فأبرقت الى المستر اتلي أقول : « يوصي رئيس الاركان العامة توصية شديدة بتعيين مونتجومري قائدا ــ للجيش الثامن ، وأشعر أنا وسمطس بضرورة ملء هذا المنصب في الحال .. أرجو ايفاده في طائرة خاصة في أسرع وقت . وأخباري بموعد وصوله » ..

وقد بدا أن وزارة الحرب اجتمعت في الحادية عشرة والربع من مساء السابع من أغسطس لدراسة البرقيات التي بعثت بها في ذلك اليوم ، والتي تم حل رموزها ، وكان المجلس لا يزال يناقش هذه البرقيات عندما دخل قاعتهم أحد السكرتيرين حاملا الرسائل الجديدة القائلة : «ان جوت قد قتل» .. وانني أطلب ارسال الجنرال مونتجومري فورا الى القاهرة ، وقيل لي : ان تلك اللحظة كانت شاقة على اصدقائنا في « داونج ستريت » ولكنهم تحملوا الصدمة الجديدة ، كما تحملوا ما سبقها من صدمات في حزم وشجاعه وواصلوا الاجتماع حتى قبيل

الفجر ، ووافقوا على كل النقط الرئيسية التي اقترحتها وأصدروا الأوامر اللازمة بشأن مونتجومري ٠

وحينما أرسلت رسالتي الى وزارة الحرب،أبنغها فيها بمصرع «جوت» طلبت من الزملاء عدم ابلاغ الجنرال ايزنهاور بأننا كنا نعتزم اعطاء مونتجومري بدلا من اليكسندر ، بيد ان هذه الرسالة جاءت متأخرة ، اذ كان النبأ قد نقل اليه : ان التغيير الجديد للخطة ، لأن ينطوي على نوع مزعج من الارتباك بعملية « المشعل » فقد اختير الجنرال اليكسندر لتولى قيادة الجيش البريطاني الاول في هذه العملية الكبيرة الضخمة وكان قد بدأ يعمل فعلا مع الجنرال ايزنهاور وقد تفاهما تفاهما رائعا والآن ٠٠٠٠ ها نحن أولاء ننتزع منه « اليكسندر » لتولى قيادة الشرق الاوسط ، ثم نوفد الجنرال « ايسماى » الى ايزنهاور لينقل اليه النبأ مع تقديم اعتذارى عن انقطاعي من مراسلته ، ـ ووجود بعض الاضطراب وليس لهما من علة الا طبيعة الحرب ومقتضياتها ، وقد ركز « ايسماى » حديثه على المواهب التي يتمتع بها « مونتجومري » كقائد في الميدان ، ووصل مونتجومري على الفور الى مقر قيادة ايزنهاور ، وتمت كل الاجراءات التي يتطلبها اجتماع مثل هذا بين قائدى جيشين يمتان الى شعبين مختلفين ، وان كانا قد أدمجا للقيام بعملية واحدة ، وفي صباح اليوم التالى أى في الثامن من أغسطس أصبح من الضرورى ابلاغ ايزنهاور بما يتحتم على مونتجومري في ذلك اليوم من الطيران الى القاهرة لتولى قيادة الجيش الثامن ، وقد اختير « ايسماى » أيضا لاداء هذه المهمة وكان ايزنهاور رجلا واسع الافق متفانيا في أداء الخدمات ، عمليا ، يعالج الاحداث على ضوء الواقع دون تأثر وفي غاية الهدوء،ومع ذلك فقد أزعجه دون شك وقوع هذين التغييرين في يومين متتاليين في هذا المنصب الهام ، وهو مرتبط بعملية عهد اليه بترتيبها وقيادتها ، وها هو ذا يجد نفسه مضطرا الآن الى الترحيب بقائد بريطاني ثالث ، ولا عجب أن رأيناه يسأل « أيسماى » : هل البريطانيين جادون في عملية«المشعل»؟٠ ومع ذلك فقد كان موت « جوت » حقيقة حربية يعيها ويفهمها جيدا كل جندى ممتاز ، وقد اختير الجنرال « أندرسون » لشغل المنصب ، ومضى «مونتجومري » الى المطار مع « ايسماى » الذى مكث معه زهاء ساعة ليحيطه علما بأسباب هذه التغييرات المفاجئة ٠٠٠٠

وقد رويت قصة عن هذا الحديث لم تتحقق مع الاسف ، فقد قيل : ان مونتجومري قد تحدث عن المتاعب والمخاطر التي يتعرض الجندى في حياته وذكر أن الجندى يكرس حياته كلها لمهنته وعمله ، ويقضى سنوات طويلة في الدراسة وضبط النفس ، وها هو ذا يبتسم له الحظ ، فقد أطلت عليه اشراقه من النجاح ، وحقق انتصارا ، وهاهى ذى الفرصة تواتيه فيمنح قيادة عظمى ، وقد انتصر ، وغدت شهرته تملا الآفاق واصبح اسمه على كل لسان ، ثم تنكر له الحظ فانهار كل مابناه في حياته وربما لا يكون هذا نتيجة هفوة هفاها ، ولكن سوء الحظ يأبى الا أن يسجل اسمه في سجل العسكريين الفاشلين وهنا قاطعه « ايسماى » محتجا : « ينبغي ألا تحمل الامور على هذا المحمل السيىء فهناك جيش عظيم يحتشد الآن في الشرق الاوسط ،

ومن المحتمل ألا تنتهي الى كارثة : وهنا صاح مونتجومرى ــ وهو يجلس في سيارته ــ : ماذا تقول ؟ .. ماذا تعني ؟ .. لقد كنت أتحـــدث عن رومل ..

***

وقد تحتم على حين ذاك ان ابلغ الجنرال « أوكنلك » نبأ تنحيته عن القيادة ولما كنت قد تعلمت من دروس الماضي وعبره ، أن من الافضـــل أن يكون مثل هذا العمل المزعج كتابة لا مشافهة فقد أرسلت اليه مـــع العقيد « جيكوب » الرسالة التالية :

القاهرة ــ ٨ من أغسطس سنة ١٩٤٢

عزيزى الجنرال أوكنلك :

لقد أثرت فى برقيتك الموجهة الى رئيس أركان الحرب فى الثالث من يونيو موضوع رغبتك فى ترك هذه القيادة ، ورشحـــت الجنرال اليكسندر لتوليتها ولم ترغب حكومة جلالتك فى ذلك الوقت العصيب ــ الذى يمر به الجيش ــ فى الافادة من هذا العرض الذى ينطوى عـــلى أصالة رأى وفى الوقت نفسه توليت قيادة المعركة فعلا ــ كما كنـــت أرغب منذ عهد بعيد ــ وكما اقترحت عليك فى برقيتى بتاريخ ٢٠ من مايو وقد تمكنت من ايقاف التيار المضاد . وغدت الجبهة الآن مستقرة

٢ ــ وقد قررت وزارة الحرب الآن ــ للاسباب التى ذكرتها انت ــ أن الفرصة غدت مواتية لاجراء تغيير . واقتراح : فصل العراق وايران عن القيادة الحالية للشرق الاوسط . وتقرر أن يتولى اليكسندر قيـادة الشرق الاوسط على أن يتولى مونتجومرى قيادة الجيش الثامن ، وهأنذا أعرض عليك قيادة العراق وايران مع الجيش العاشر ، على أن يكون مقر قيـــادتك فى البصرة أو فى بغداد . وفى الواقع يعتبر هـــذا الميدان فى الوقت الحاضر أصغر من ميدان الشرق الاوسط ، ولكنه قد يضحى فى خلال عدة شهور ،مسرحالعمليات حربية حاسمه ، وها هى ذى الامدادات فى طريقها الآن للجيش العاشر ، وستحافظ على ارتباطك بالهند فى هذا الميدان الذى خبرته من قبل ، وانى لآمل ــ بناء على ذلك ــ أنتوافق على توجيهاتى ورغبتى هذه ، بما نعهد فيك دائما من روح عالية ورغبة فى الخدمة العامة ومن المرتقب أن يصل اليكسندر فورا ، كما آمـــل أن يتم فى أوائل الاسبوع المقبل تحول المسئولية فى جبهات القتـــال الغربية بمنتهى اليسر والفاعلية ، مع توقف كل شىء على حركـــات العدو .

٣ ــ يسرنى جدا أن أراك فى أى وقت يناســـبك . متى رغبت فى ذلك ....

صديقنى
اننى المخلص لك
ونستون ٠١٠ س ٠ تشرشل

ملاحظة :

لقد كلفت العقيد جيكوب ، حامل رسالتي هـــذه ، بأن يعرب لك عن تعازي الخالصة بفقدنا المفاجيء للجنرال جوت ٠

وفي المساء عاد « جيكوب » وكان أوكنلك قد تلقى هذه الضربة بما ينبغي أن ـ يقابلها به من كبرياء رجل عسكري ، ولم يكن راغبـــا في قبول القيادة الجديدة ، وقد ذكر للعقيد أنه ســـيحضر لمقابلتي في اليوم التالي ، وكتب العقيد في يومياته يقول :

لقد استيقظ رئيس الوزراء من نومه في الساعة السادسة وكان على أن أنقل اليه ما أمكنني ـ تفصيل ما دار بيني وبين الجنرال أوكنلك. وقد انضم الينا رئيس الاركان العامة للامبراطورية ٠٠٠٠ ان عقل رئيس الوزراء مركز على شيء واحد هو أن نهزم روميل ، وأن يتولى الجنـــرال اليكسندر المسئولية الكاملة عن العمليات في الصحراء الغربية ، وهـــو لايستطيع أن يفهم ، كيف يستطيع الرجل أن يظل في القاهرة ، على حين تقع أحداث كبرى في الصحراء تاركا ادارة المعركة لشخص آخـــر سواه ، وكان الرئيس يذرع الغرفة جيئة وذهابا وهو يردد هذه النقطة ٠ مصمما على تنفيذ ما يريد ، ثم صاح فجأة : « روميل ٠٠ روميل » أهناك أمر ما يهمنا سوى أن نهزمه ؟ ٠٠

وبعد الظهر بقليل وصل الجنرال أوكنلك الى القاهرة وتحـــدثنا ما يقرب من ساعة حديثا بدا على الفور فاترا بالرغم من أنه كان بعيدا عن الاخطاء ٠ وفي ذلك المساء أقبل الجنرال اليكسندر لمقابلتي واتخـــذت الترتيبات النهائية للتغييرات التي حدثت في القيادة ، ونقلت كل هـــذه النتائج الى لندن في برقية أعتقد أن الفقرة التالية منها مهمة غـــاية الأهمية ٠

وجهت الى الجنرال اليكسندر التوجيه التالي الذي جاء موافقـــــا لرغباته وحائزا لموافقة رئيس أركان الحرب ٠٠٠٠

١ ـ ان واجبك الاول الاساسي هو : أن تأسر أو تدمر الجـــيش الالماني الايطالي الذي يقوده الفيلد ماريشال روميل ، مع كل ما لديه من تجهيزات ومؤسسات في مصر وليبيا في أقرب فرصة ممكنة ٠

٢ ـ ستتولى ادارة وتنفيذ كل ما يتعلق بقيادتك من واجبات على الا يؤثر عملك هذا على الواجب المنصوص عليه في الفقرة الاولى ، وهو ما ينبغي أن يكون في صدر مصالح جلالته ٠

وقد يكون من الممكن ـ في مرحلة لاحقة من الحرب ـ عدم تأكيد هذا التوجيه ، ولكنني واثق من أن البساطة في تحديد المهمة ووضوح الهدف هما شرطان أساسيان في الوقت الحاضر ٠

وقـــد وافانا « اليكسندر » برده بعد ستة أشهر ، وسنتحدث عنه في حينه ٠٠



مجموعة

اخترنا لك

تصدر

أسبوعية باللغات العالمية

يشترك في تحريرها وإعدادها

لجنة " اخترنا لك "



المراسلات : الدار القومية للطباعة والنشر

١٥٧ شارع عبيد - روض الفرج

تليفون ٤٠٥٨٨ - ٤٠٧٥٣ - ٤٠٨١٤ - ٤١٠١٢



الثمن ١٠ قروش